

أنور الجندی

التفسير الإسلامي للفكر البشري

الأيدولوجيات والفلسفات المعاصرة
في ضوء الإسلام

== دراسة جامعة ==

الفلسفة المادية — العلمانية — التفسير المادي للتاريخ
البرجماتية — الأجناس — النفس والجنس لفرويد
النسبية — الوجودية — الهيبة — الروحية — البهائية

دار الاعتصام

التفسير الاسلامي للفكر البشري

الأنديولوجيا والفلسفة المعاصرة

في ضوء الإسلام

أنور اجندي

دار الإعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل إلى البحث

انتقل الفكر البشرى مرحلة بعد مرحلة في طريقه الطويل ملتقياً بمفهوم التوحيد ومعارضاً له . وقد كانت الفلسفات الثلاث الكبرى التلودية واليونانية والغنوصية قد سبقت ظهور الإسلام ثم تحركت من جديد في محاولة لإخضاعه واحتوائه على النحو الذى حدث بالنسبة للاديان السماوية السابقة له .

واستطاعت التلودية الصهيونية في العصر الحديث أن تستوهب الفكر الغربى المسيحى وأن تسيطر عليه ، بدأ ذلك منذ وقت بعيد وكشفت عنه مقررات الماسونية وبروتوكولات صهيون . وتحركت الفلسفة الحديثة في طريقها خلال مرحلتين اسلمت أولاهما إلى الأخرى ، أما الأولى فهي الفلسفة المادية أو الوضعية أو دين البشرية الذى وصف بأنه بديل للمسيحية وفيه تحولت الأفكار والنيارات حثيثاً نحو التخلص الكامل من مفهوم الألوهية والتوحيد والإيمان بالبعث والجزاء . ثم جاءت المرحلة الأخيرة بظهور الماركسية والفرويدية والمدرسة الاجتماعية ثم الوجودية ، وكلها مذاهب ودعوات تتحرك خارج نطاق الإيمان بالله تحركاً صريحاً ، وبدأ من خلال هذه الفلسفات طابع التلودية العنيف في استيعاب الفكر الغربى كله ومحاولة استيعات الفكر البشرى وتدميره ، وكان أن طرحت هذه الفلسفات كلها في محيط الفكر الإسلامى رغبة في تحقيق غاية كبرى هي محاولة استيعاب هذا الفكر ، باعتبار ذلك هو الهدف الأخير للمحاولة التي رسمتها بروتوكولات صهيون من خلال مخطط التلود .

وقد أحسن تصوير هذا المعنى كاتب كبير من كتاب الإسلام حين قال :
« إن جميع الفلسفات التي نادى بها مفكرو العصر تعمل على تفويض دعائم
الاعتقاد بوجود إله واحد ، بغض النظر عن البديل المقترح ، فمنها من يقترح
ألوهية المادة ، ومنها ألوهية الإنسان ومنها من يجعل الغريزة محور تفسير الوجود
(والمعروف) أن الدين الوحيد الذي صفت منه عقيدة الوحدانية من شوائب
الشرك إنما هو الإسلام . »

والمبادئ والأفكار الحديثة تركز جهودها لهدم العقيدة التي تمثل في نظر
أصحابها جوهر رسالات السماء ، والإله في عرف اليهود إله قومي لهم وهدم
دون غيرهم من الأميين ، وعند النصارى واحد من ثلاثة ، وإذا كانت
الماركسية في حقيقتها تدميراً لفكرة الألوهية وربط للإنسان ومصيره بمصير
المادة المحسنة وتفسيراً لحركة التاريخ بعوامل ليس منها إرادة الله وخلقها على
أية حال ، فإن عداها الصريح لم يتوجه في الحقيقة إلا إلى الإسلام باعتباره
معقل الفكر الديني ، ورمزاً يحسد العلاقة بين الله الواحد والمخلوق ، وهي
تعد بذلك أخرج حملة وجهها الفكر الحديث إلى معقل الوحدانية وإن بدت
عاجزة عن تحقيق أهدافها بعد أن شاخت . وهناك محاولة أقل علواً ولكنها
أشد كثراً هي مجادلة الفلاسفة الوضعيين الذين يهولون من شأن الإسلام
وحركته التاريخية ، فقد أشبع (أوجست كونت) الإسلام مدحاً وتمجيذاً ،
ولكنه لم يزد على أن هذه مرحلة كانت ضرورية كحلقة من سلسلة تطور
البشرية نحو الدين الجديد والنهائي : « الوضعية » .

(٢)

ولقد تكتشفت بعد الحرب العالمية الثانية حقائق كثيرة وطُرحت وثائق
كثيرة من شأنها أن تلقى الضوء على كثير من الفروض التي كانت سائدة في أفق
الفكر الإسلامي مما طرّحه الغزو الثقافي في محاولته الخطيرة في إخراج العقيدة

الإسلامية من أصولها وقيمها ، وقد أوضحت هذه الحقائق والوثائق مدى الأخطار التي اختفت وراء كثير من الأبحاث التي كتبها رجال التغريب واتباع المستشرقين والمبشرين وخاصة فيما يتعلق بالاهتمام الوافر بنظريات التحليل النفسي والعنصرية والعالمية والجلدس والإباحية وتجديد تراث أبو نواس وبشار وتجديد تراث ابن عربي والحلاج وتحريف بعض مقررات التاريخ مما جاء به القرآن وخاصة فيما يتصل بأبي الأنبياء إبراهيم ونبي الله إسماعيل . وما يتصل بالاهتمام الوافر بالتيوصوفية والبهاية وتقديم الدراسات الواسعة عن نيتشه وسبلسر وماركس وميكافيلي ودوركايم ودارون وفرويد وسارتر ، ثم ذلك الاهتمام الباذخ بالتراث اليوناني الإغريقي الهليني الذي تفرع له كثير من الكتاب وجرى الحرص البعيد المدى على ترجمة آثاره التي رفض المسلمون ترجمتها في القرن الثالث والرابع الهجري . واقصد صبغت كل الدعوات والمذاهب التي حاولت أن تفرض وجودها على الأمة العربية والعالم الإسلامي بذلك الغرض الدفين الذي تخفيه النصوص [قد بدت البغضاء في أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر] ومن هذه الحقائق التي تكشف ما كشفه اليهود أنفسهم عن صلتهم بفرويد وماركس ونيتشه ودارون وما عرف عن الصلة بين هرتزل وفرويد .

(٢)

استخدمت مخططات التغريب في سبيل غايتها مؤسسات التعليم والثقافة وكلها تشرف عليها القوى الاستعمارية وتوجهها، فطرحت هذه النظريات والأيدولوجيات في مجال الفكر الإسلامي وحاولت عن طريق رجالها أن تقيم له دائرة ذات نفوذ، وكان منطلقها مناهج التربية والاجتماع والنفس والأخلاق ووسايلها فصل الدين عن الدولة في أنظمة الحكم وتأصيل منهج الربا عن طريق المصارف التي استوعبت المال الإسلامي وإخراج الشريعة وإقامة القانون الوضعي

والتماس مناهج التعليم الغربية التي تفصل بين التعليم والتربية وتعزل العلم عن الأخلاق والعقائد . ومن حيث كانت سيطرة الغزو الغربي كاملة على مقدرات العالم الإسلامى ، فقد أمكن طرح هذه المفاهيم فى مجال الثقافة عن طريق الصحافة والجامعات وهى ذات شقين ، الشق الأول تفريع النفس الإسلامية والعقل الإسلامى من مفاهيم الإسلام الأصيلة وشغله بالقشور البسيطة ، وإثارة الشبهات فى نفس الوقت حول التاريخ واللغة والنبي والقيم جميعاً على نحو يمكن الأيدلوجيات والفلسفات الوافدة من السيطرة والتحكم ، وبذلك بدا الفكر الإسلامى بعيداً مهجوراً متجهداً توجه إليه الطعنات وينظر إليه على نحو من الازدراء ، واستعمل الفكر الغربى وقيمه المادية الوثنية ، وحاول السيطرة على النفس الإسلامية والعقل الإسلامى جميعاً .

هذا المخطط وضعته قوى كثيرة ، نجح كلها على أمر واحد هو السيطرة على عالم الإسلام ، وامتلاك مقدراته دون أهله . وقد انطلقت هذه القوى إلى غرض أصيل هو إزالة شخصية العالم الإسلامى والأمة العربية جزء منه وتفريغ ذاتيته وإذابته فى الأمية والعالمية واحتواء مفاهيمه وقيمه حتى يصبح تابعاً ، ليس من ناحية مقدراته وثروته لحسب بل من ناحية وجوده وكيانه وشخصيته . وقد جرى تنفيذ هذا المخطط منذ وقت بعيد ، وشاركت فيه القوى الاستعمارية والدولية والصهيونية واتخذت من التبشير ومعاهد الإرساليات وخريجيها المسيطرين على الصحافة والثقافة أداة واسعة النفوذ قادرة على أن تطرح أمام الأجيال شبهاتها ومذاهبها ودعواتها . واستطاعت سموم هذه الشبهات أن تسرى بعد أن حطم الاستعمار الحصانة النفسية والروحية التى كانت تحمى النفس الإسلامية من الغزو حين سيطرت قوى الاستعمار على مناهج التعليم وأفرقتها من مفاهيم الإسلام وباعدت بينها وبين منهج القرآن الفكرى والتربوى والاجتماعى . ومن ثم اختلطت مفاهيم الإسلام بمفاهيم الوثنية والمادية والأديان الأخرى وخرجت عن طابعها الأصيل ووجودها

الفرد المتمثل في التوحيد القائم على الاطرة الذي لا يتماثل مع فكر أى أمة
أو ثقافة أو حضارة والمتميز بطابع الأصالة المستمد من وحى السماء ومن رسالة
النبوّة ومن كلمات الله المنزلة .

(٤)

واجه الفكر الاسلامى ما يمكن أن يسمى بموجة الفلسفة مرتين :
المرّة الأولى في القرن الرابع الهجرى عندما ترجم المسلمون الفلسفة اليونانية ،
ومن ثم تشكل تيار جديد لم يلبث أن اتسع نطاقه فأضاف إليه فلسفات مختلفة
منها مذاهب الفلسفة الغنوصية الشرقية المستمدة من المجوسية الفارسية
ومنها مذاهب زردشت ومانى ومزدك وفلسفات البرهمية والكنفوشوسية
وغيرها .

وقد علا موج هذا التيار وانصل بالاعتزال والكلام والتصوف ،
ونشأت عنه مدرسة تابعت الفلسفة اليونانية وحاولت تطويقها للفكر
الاسلامى ، وإدخال التراث اليونانى في إطار التوحيد ، كانت ترجمة الفلسفة
في هذه الفترة تجرى بإرادة أهل الفكر الإسلامى ، وكانت تستهدف أساساً
ترجمة الفلسفات الطبيعية والرياضية ، كمقدمة لبناء منهج علمى إسلامى في مجال
الطب والفلك والعلوم . غير أن المترجمين وجلهم من اللساطرة لم يلبثوا أن
توسعوا في نقل الفلسفة الإلهية الوثنية التي كان يطلق عليها (علم الأصنام)
ومن ثم بدا الفكر الإسلامى يواجه مفاهيم تختلف أصلاً عن جوهره
ومضامينه . ومن ثم دارت معركة واسعة امتدت عسراً طويلاً إلى أن استطاع
الفكر الإسلامى استيعاب هذه المحاولة وامتصاصها وإعادة تشكيل مفاهيمه
على النحو الذى تحقق له ، التحرر السكامل من نفوذ أى قيم وافدة .

ونجح الفكر الإسلامى في هذه المعركة وخرج منها أصنى ما يكون

جوهرأ وأشد أيدأ وأحق اتصالاً بقيمه الأساسية وأصوله الأصيلة ، ومن ثم شكل مفهومه الذى أطلق عليه مذهب أهل السنة والجماعة^(١) .

* * *

أما المرة الثانية فقد قامت فى القرن الرابع عشر الهجرى أى فى خلال المائة عام الأخيرة ، وهذه الجولة تختلف اختلافاً كبيراً عن الجولة الأولى من جوانب عديدة ، فقد جاءت فى أعقاب نفوذ الفكر الغربى الذى فرض على العالم الإسلامى والذى سيطر على مدارس الفكر الإسلامى فى مرحلة من مراحل الضعف والتخلف ، وصدر عن مدارس الإرساليات الأجنبية التى نراها النفوذ الاستعمارى فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى ، ثم سيطرت مناهجها على المعاهد والجامعات الوطنية التى نشأت فى العواصم العربية والإسلامية ، واستقدم لها عدد من المستشرقين المبشرين الذين قاموا بوضع مناهجها ودراساتها ثم استطاعوا خلق طبقة من الموالين لهم سافروا إلى بلاد الغرب وعادوا يحملون أعلى الدرجات ويتولون العمل طبقاً للبرامج المرسومة ويقومون بأعمال الترجمة والتدريس ، ويتصدرون مراكز الثقافة والصحافة والفكر جميعاً ، ولحق نستثنى من هؤلاء الذين سافروا إلى الغرب ، نماذج كريمة استطاعت أن تكتسب بالتحدى قوة جديدة على مقاومة التخريب . ومن هنا بدأت عملية ترجمة الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة العربية الحديثة ، وهى ترجمة تمت فى إطار الولاء والتقبل والتبعية ، ولم تتم فى إطار النقد أو الرشد الفكرى أو الأراضية الإسلامية الصحيحة . نعم ، قامت هذه الخطوة من وراء إرادة الفكر الإسلامى ومشيبته ، وفى وقت ضعفه وتخلفه ، لذلك

(١) راجع كتابنا (القيم الأساسية لفكر الإسلامى) .

فقد سيطرت قوة التغريب واستطاعت أن تفرض ترجمة فنون من الفلاسفات كان المسلمون العرب في الجولة الأولى قد رغبوا عنها ووجدوا أنهم ليسوا في حاجة إليها ، ولو كانت إرادة الفكر الإسلامى حرة في هذه الجولة لما قبلت ترجمتها إلا في إطار نقدها والنظر فيها ومعارضتها بأصول الفكر الإسلامى الأصلية . ثم جاءت ترجمة الفلاسفات الغربية ومذاهبها الحديثة ، وكانت المحاولة هى تلقين المسلمين والعرب هذه الفلاسفات كأنها حقائق مقررة وقوانين عليية ثابتة ، وأصول تتحقق صدقها وثباتها ، وليست كذلك الفلسفة في أى عصر أو زمان ، ذلك أن الفلسفة في حقيقةها ليست إلا فروضا من نتاج عقل بشرى يعيش في تحديات عصره وبيئته ، فهى محدودة بمجتمعها ، ومحدودة بعقلية صاحبها ، ومحدودة بأنها تجارب قد تخطئ وقد تصح وقد تتجاوزها الأحداث ، وقد تختلف من بيئة إلى بيئة ، ولذلك فإن أغلب هذه الفلاسفات قد تصدعت وأصبحت في حاجة إلى إضافات وتصحيحات ، بل إن بعضها قد فقد قيمته في بيئته الأصلية التى ظهر فيها ، ومن هنا فإن نظرة الفكر الإسلامى والثقافة العربية إلى هذه النظريات يجب أن يكون ناضجا وبقظاً وراشداً إلى هذه الظروف كلها ، وأن ينظر إليها من خلال فكره الأصيل ، وفي نطاق منهجه الإسلامى المتكامل المرن ، ولذلك فإن طرح هذه النظريات منذ بداهة شيلي شمبل وغيره في الربع الأخير من القرن التاسع عشر واستمر حتى الآن ، لم يجد قبولا ، وإنما وجد معاودة للنظر ومراجعة للتفكير ، فإن العقل الإسلامى والمزاج والذاتية والطابع الإسلامى ، وهو القائم على الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لا بد أن يجد الحرج في مواجهة فكر تصوغه طوائف مختلفة ومناهج قائمة على المادية الخالصة ، ولذلك لم تلبث حركة اليقظة الإسلامية أن أخذت تعيد النظر فيما طرحته الموجة الجديدة من مترجمات الفلاسفات الغربية ولتكشف عن

موقفها الصحيح منه ، ولعل هذه الرسالة واحدة من مثل هذه المحاولات
الكثيرة ، التي تقوم على أساس الانطلاق من القرآن نفسه ، ومواجهة
الفكر البشرى الوافد على أسس الاسلام وأصوله الأصيلة ، رغبة في
دحض الشبهات ودفع الزيف والتخلف من محاولة إخراج الفكر الاسلامى
من مقوماته القرآنية .

ويمكن أن توصف هذه المرحلة بمثل ما وصفت به المرحلة السابقة التي
واجهت منطق أرسطو والفكر اليونانى والتي استطاعت أن تحقق تحرر
الفكر الاسلامى واثباته الاصيل للقرآن وعجز الموجات العاصفة من الفكر
الوافد أن تحتويه أن تصهره في بوتقتها . ومن هنا بدأت المحاولات في الكشف
عن الفوارق الدقيقة بين مفاهيم الفكر الاسلامى ومفاهيم الفكر الغربى في
مختلف المجالات من خلال مفتاح التوحيد .

(٥)

في خلال الخمسين عاماً الأخيرة تبلور الفكر الغربى أن سيطرت عليه
التملودية اليهودية في مجموعة من النظريات شملت مبادئ :

(أولاً) مقارنات الأديان .

(ثانياً) العلم والعلمانية .

(ثالثاً) فلسفة الاستعمار والتفسير المادى والليبرالى للتاريخ .

(رابعاً) فلسفة الأجناس .

(خامساً) فلسفات النفس والأخلاق والمجتمع .

(سادساً) فلسفات الحضارة والروحية الحديثة والترية .

ولقد طرحت هذه النظريات في أفق الفكر الاسلامي وترجمت معالمها ترجمة التبعية وفرضت فرضاً في مجال الجامعة والصحافة والثقافة دون أن يكشف مقدماتها عن الصلة التي تجمعها بالفكر الاسلامي أو تفصلها عنه ، وكان لا بد من أن يقام ميزان جديد : [هو منهج الفكر المقارن] للنظر من خلال الاسلام إلى هذه المناهج والنظريات ، وقد جرت محاولات كثيرة في هذا المجال ، لإلقاء هذا الضوء ، ولكنها كانت محاولات متفرقة لا يجمعها رابط ولا تتحرك من خلال منهج أصيل أو إطار واضح .

لذلك كان لا بد أن توضع هذه الفلسفات والنظريات في ميزان الاسلام وتدرس من جديد في ضوءه ، وهذه محاولة متواضعة في هذا المجال ، أحسب أنها خطوة تتلوها خطوات والله من وراء القصد .

الباب الأول

الفلسفة المادية

(١) الفلسفة المادية

(٢) العلم والعلمانية

(٣) العلمانية

(لحق) :

ضوء الاسلام على الفلسفة المادية

الفصل الأول

الفلسفة المادية

هناك نظرية في تقسيم الفكر البشرى تضعه في ثلاث قوالب مستقلة :

الفكر الشرقي وهو فكر غيبي (غنوصي) يقوم على أساس الوجدان والبصيرة والاشراق .

الفكر الغربي وهو فكر مادي (هلييني) يقوم على أساس العقل والمحسوس وبينها الفكر الإسلامي وهو فكر قرآني : جامع بين العقل والوجدان يربط بينهما برباط التوحيد .

ولقد كان الفكر الغربي منذ وقت بعيد ، منذ أربعة آلاف سنة قبل الاسلام فكراً مادياً غيبياً يقوم على أصول واضحة في الفلسفة اليونانية الهلينية والحضارة الرومانية ثم جاءت المسيحية فغزت أوروبا ولكنها وصلت اليها بمفهوم رجل غربي روماني هو بولس ، فاختلطت بالفكر الوثني اليوناني الروماني فأثمرت طابعا جديداً من الفكر ، اختلف عن الفكر الهليني واليوناني ثم جاء الإسلام فأهدى إلى البشرية مضموناً جديداً للآلوهية والكون والحياة والإنسان لم يلبث أن تبلور في فكر وحضارة ، شرقت وغربت حتى وصلت قلب أوروبا فكانت بعيدة الأثر في تحريرها من قيود كثيرة في العقيدة والحياة وفتحت الآفاق أمام فكر جديد وأمام نهضة علمية بعيدة المدى كانت مصدراً للحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة .

غير أن صراعاً قام من جديد أحيا الفكر القديم كله من ركام البابلية والاشورية والمجوسية والهندية الشرقية ومن اليهودية والمسيحية ومن طوابع الاسلام وحملت قيادات فكرية قادرة هذه التيارات كلها فصهرتها في فكر جديد لم يلبث أن تشكل من خلال تحديات العلم الحديث للكنيسة والمسيحية ومن خلال تطلعات اليهودية التلمودية فكان ذلك مولداً لما أطلق عليه من بعد: [الفلسفة المادية] .

ولقد اختلط مفهوم المادية بين العلم والفلسفة . فبدأ في أول الأمر وكأنه علم خالص ، غير أن العلم سرعان ما كشف موقفه من قضايا الكون والغيب كله وأعلن أنه لا يستطيع أن يقتحم هذه المجاهل ، ثم لم يلبث أن اعترف بأن هناك كون وراء المادة وأن هناك بوادر تدل عليه وإن كان العلم غير قادر على أن يخوض فيه .

ومن هنا فقد كانت الفلسفة أولاً وآخرأ حاملة لواء المادية والداعية اليها في محاولة تمويه ضخمة لتصنع باسم العلم، والمذهب المادى فلسفة لاعلم فيها، وفرق كبير بينهما فالعلم يرود بوسائله مجاهيل هذا الوجود الضخم ويدون العلاقات الموجودة بين ظواهره منها، ويضم الأشياء إلى نظائرها، ثم يبذل وسعه ليجد النواميس العامة في كل طائفة منها وهو كما عرف عن نفسه ومهمته «الكشف عن ظواهر الأشياء، وتحليل المواد لمعرفة عناصرها الأولية» أما الفلسفة فهي محاولة عقلية من أجل إدراك حقيقة الوجود ، فقد رفض الفلاسفة الاقرار بميتافيزيقا الكتب السماوية ، وعدلوا عن الوصول إلى الحقيقة عن طريق جهازهم المحدود «العقل» وقد دخلت الفاسفة منذ نشوئها إلى اليوم في أطوار كثيرة فبعد أن كانت تعتمد على العقل وحده، أصبحت اليوم تعتمد عليه وعلى العلم أيضاً .

ومن هذا الطريق وصلت الفلسفة إلى ما وصفت نفسها بالطبيعية ، وهي التي يعتمد عليها المذهب المادى إلى الحكم بأن الوجود مادة محضة ، وأن ما يسمى عقلا وروحا وعواطف ما هي إلا حالات راقية من المادة .

ولكن العلم في القرنين سبعة الأخيرة دخل في طور جديد من التشكيك ودفع أقطابه إلى أن يضعوا تقنياته في الميزان من جديد وتغيرت لهجة بمثابه فأصبحوا يكترون من قولهم أن الوجود مشحون بالمجاهيل فيما ندعى أننا فرغنا من بحثه .

(٢)

اشتبكت المادية في صراع حاد مع العقائد القديمة (١) منذ ظهور أول المذاهب الفلسفية التي تدعوا لها ، ذلك لأن الأفكار الدينية الوثنية التي كانت سائدة في الشرق القديم وفي العقائد اليونانية المختلفة كانت خليطاً مضطرباً غامضاً غير أن الفلسفة المادية قد غالت في معارضتها للأديان في أمرين خطرين هما وجود الخالق والبعث والموت وأن أدنى مراجعة للفلسفة الماسونية ومفاهيم اليهودية التلمودية ليكشف بوضوح أن بذرة هذا الشك . قد بدأت من الفلسفات الوثنية القديمة ثم تجمعت في بؤرة هذا الفكر مستهدفة القضاء على الأديان وعلى المفاهيم المرتبطة بالفكر الرباني الذي جاءت به الأديان المنزلة ، مع إعلاء العقل إلى درجة لم يعرف العام الحقيقي لها مثل هذه المكانة ، ومن الحق أن يقال في تبرير الاتجاه العلمى أن مفاهيم الدين في الغرب كانت مما لا يقر أغلبه العقل وأن الدين ومؤسسة الكنيسة قد عارضوا نهضة العلم وحركة الحرية وأن نصوص كثيرة في الكتب المقدسة مما كتبه بعض الكهان قد تعارض مع ما استطاعت العلوم أن تحقه وتقيسه بمقاييسها الحديثة

(١) لائحة : تاريخ المادية .

غير أن هذا كله لم يكن ليدفع الفكر البشرى إلى هذا التجاوز الخطير لجانب ضخم وأساسى من تكوين الإنسان وهو جانب الروح والبصيرة والغيب بكل مقرراته حتى يصل إلى الإنكار الكامل للخالق والمعارضة لحقائقه اليقينية التي جاء بها الرسمى

(٣)

« المادية فى الفلسفة نظرية فكرية ترى أن جميع ما فى الكون مؤلف من المادة ولا وجود لشيء غير مادى فى هذا العالم وتضم الفلسفة المادية مفاهيم عديدة : قديمة وحديثة كلها ترى أن هذا الكون مكون من المادة ،^(١) وليست النظرية المادية من منتوجات العصر الحديث ولكنها قديمة قدم الفكر البشرى نفسه ، وأن ديمقريطس اليونانى هو أول من قال : بأن لشيء موجود إلا المادة وذلك فى القرن الخامس قبل الميلاد. والواضح أن مختلف المذاهب الفلسفية الأدبية ، وكذلك الآداب والنظريات التى طرحها أصحابها فى علم النفس أو التربية أو الأخلاق إنما استمدوها من هذه النظريات القديمة وخاصة الأساطير . وقد قامت هذه النظريات فى مواجهة التحديات التى قام بها المفكر المسيحى الغربى بطرح النظرية الروحية التى تؤمن بوجود الروح بوصفها عنصراً قائماً بذاته فى هذا الكون فجاءت النظرية المادية معارضة لها ومن هنا قام الصراع بين الفلسفة المثالية والفلسفة المادية ومن هنا كان إصرار الفلسفة المادية على أن المادة هى الوجود الأصيل للأشياء غير أن الفلسفة المادية لم تقف عند هذا الحد بل كشفت عن موقفها فى صراحة حين عارضت الدين جملة وقالت أنه نظام من وضع البشر لأنه لا يتفق مع النظرة المادية أو لأن النظرة المادية إنما كانت منطلقاً لإنكار وجود الله والحياة الأخرى بعد هذه الحياة .

(١) دكتور أحمد حسن عبد الرحيم (١ - ١٩٦٩ الأعلام) .

(٤)

انطلق المذهب المادى من نقطة المعارضة لمفاهيم الدين وعلى عكسها تماماً فقال أن الوجود قديم وأن المادة هى مصدر كل كائن ، وأن لها خصائص ونواميس عامة لا أثر للتدبير فيها وقال دعاة المادية : أن ما أتت به الأديان من وجود مدبر حكيم وراء هذا العالم فهو من الزخارف الكلامية التى ولدها الخيال وتمسك بها الجهال وأن الذين يقومون عليها رجال لهم مصالح ذاتية وتقاليد وراثية وقد أعلنت الفلسفة المادية اعتماداً على بعض النظريات العالمية أن المادة لا تنقسم إلى ما لا نهاية بل تقف عند الجوهر الفرد غير أن العلم لم يلبث أن تخلى عن هذه النظرية بعد أن اكتشف أن الذرة قابلة للتجزئة وبذلك سقطت النظرية المادية نتيجة ذلك سقوطاً بشعاً : لقد تعثر مفهوم المسادة القديم وأصبحت المادة طاقة .

لقد أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة وأن ما أسماه الجوهر الفرد ليس إلا فرض ، من الفروض التى قدمها العلم فى فترة من فترات البحث .

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : إن أخطر النتائج العلمية التى نشأت عن التقدم فى البحوث الفيزيائية هو إفساح المجال للحرية حتى فى عالم الفيزيقا وهو أول درجة من درجات المسادة ، ذلك أن الطاقة التى تتبدد من الذرة عند انفلاقها فتذهب يميناً أو شمالاً لا يمكن تحديد مسارها .

وقد كانت معارضة المادية القديمة للأديان من هذا الوجه ، نغى من جهة القول بالحمية المستمدة من طبيعة الأشياء ، حتى ذهب غلاة المادية إلى القول بأن المادة هى كل شئ وهى أصل العقل والشعور وليس العقل إلا إفرازات المخ كما تفرز الكبد الصفراء .

وقد أشار العلامة هالدين في كتابه المادية فقال : « لقد ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة والكاترونات سالبة .

« وطغت عليها نظرية (الكوانتم) التي تقول أن الكهربائية تجيء شخائها من المجهول وتذهب إلى المجهول . إن نظرية الكوانتم قد قضت قضاءً مبرماً على النظريات الميكانيكية . ومن هنالم يعد المذهب المادى يستطيع الإجابة على السؤال .

« إن الحقيقة التي ظل الإنسان يبحث عنها دهوراً مديدة : روحانية في جوهرها والروح لا يدركها العقل ، .

* * *

ولا ريب أن القول بإنكار عالم الميتافيزيقا : عالم ما وراء الطبيعة لم يقل به العلم وإنما قال به الفلاسفة الماديون وحدهم ، ذلك لأنه المنطلق الوحيد إلى الغاية التي قامت على نظريات ومذاهب مختلفة منها المادية الجدلية والمادية التاريخية .

(٢)

نظرية التطور : والتطور الاجتماعى

لم يكن دارون أول من نادى بالتطور فقد سبقه فى الغرب (لامارك) ومن قبله بأكثر من ألف سنة قال به كثير من علماء المسلمين : وأسبقهم فى ذلك ابن مسكويه الذى قال فى كتبه : « إن النبات أسبق فى الوجود من الحيوان ، وقسم النباتات إلى ثلاث مراتب . . أولاها ما نجم من الأرض ولم يحفظ نوعه ببذر ، ذلك أنه فى أفق الجماد ، والفرق بينهما هذه الحركة الضعيفة فى قبول

الحياة وقال ابن مسكويه : بدشوء الحيوان من النبات وإن الإنسان ناشئ من آخر سلسلة البهائم ، وإنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقى حتى رتبة أعلى من مراتب البشر كما عرض ابن خلدون تسلسل بعض الأحياء من بعض غير أن دارون حاول أن يقول بتطور الإنسان من نوع سابق له من الكائنات ويستدل على ذلك بأدلة من التشریح المقارن ولم يزعم دارون أن الإنسان قد انحدر من القرود مباشرة ولكن من نوع من الكائنات أبسط منه تركيباً . ثم اجتاز مرحلة تطور فائقة . ويمكن القول أن نظرية دارون قد اكتشفت عدداً من الحقائق العلمية الهامة أهمها أن جميع الكائنات الحية يختلف بعضها عن بعض حتى أفراد النوع الواحد وإن لم يكن ذلك في كل التفاصيل . كما استنتج إردن أن بعض الأفراد والسلالات يتفوق على غيرها بالتنازع على البقاء وهى تلك السلالات والأفراد التى لها من الصفات ما يجعلها أكثر ملائمة لظروف البيئة التى تعيش فيها وهذا ما عبر عنه دارون بالانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلىح .

* * *

ونظرية دارون فى مجال البحث العلمى هى بمجموعة من الفرضيات القابلة للخطأ والصواب ، غير أن محاولات جرت لحل النظرية إلى غايات أخرى لخدمة الفلسفة المادية والهدف الذى يقوم من وراءها ، وقد كشفت بروتوكولات صهيون عن هذا الاتجاه فى إحدى البروتوكولات بالنص : « إن دارون ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر آرائه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين [ويمكن القول أن ما جاء فى مذهب دارون ينافى صريحاً ما جاء فى الكتب المقدسة عن الخليفة وأصل الإنسان ومن هنا كانت معاونة رجال الدين له بينما جاء فى الكتب المقدسة لم يكن نصاً سماوياً وإنما كان من اجتهادات البشر . غير أن الخطر بدا منذ أن أخذ هربرت سبنسر هذه النظرية البيولوجية ، وحولها إلى

مفهوم (تطور اجتماعي) ومن هنا نشأ مفهوم مادي خطير يفرض نفوذه على الاجتماع والتاريخ والنفس والأخلاق .

ومن تلاميذ دارون : توماس هكسلي والفرد ولاس وأرنست هيكل وهم الذين أذاعوا النظرية مع شيء من التحوير . فقد باتت النظرية وكأنها أخرجت رجال السياسة وعلماء الاجتماع أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء ، وتركزت أثر الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب . وكان مبدأ بقاء الأصلح أثره في الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها ، وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصري والشعوب المختارة كما صنعت نظرية القوة عند نيتشة ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان ، ومنها وجدت الاشتراكية سلاحها في حين وجدت الارستقراطية أيضاً سلاحها فأعلنوا عن أنهم أنفسهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكو العروص وصانعو التاريخ ، وقد تلقف نظرية التطور معلنو الحرب على الأديان فأفاضوا في الادعاء بهزيمة الدين وانتصار العلم وبأن الإنسان وحده صاحب القداسة والاتصال بالملأ الأعلى وأن الكون قد خلق من أجله ولخدمته ، إن هربرت سبنسر هو الذي نقل نظرية التطور من الميدان العلمي إلى الميدان الفلاسفي لقد رأى سبنسر أن التطور الاجتماعي تطور حتمي لا شعوري وإنه لا يسير لأغراض معينة بل إنه ينمو نمواً طبيعياً وأن المجتمع وحدة عضوية متجانسة وتقول أحدث الدراسات عن نظرية سبنسر^(١) إن النظرية التي جاء بها سبنسر سابقة للتجربة . وأن سبنسر انتقى من المصادر ما يدعم نظريته وأغفل قصداً سواها ، وأنه قام بتعميمات سريعة وأنه لم يفرق في تأديته للحوادث والظواهر بين معنى الظاهرة الحقيقي ومعناها المجازي وأنه تعمد أن يقول أن أساس الدين هي عبادة القوى الطبيعية وعبادة الأرواح .

(٣)

التطور الفلسفي

حاول مصممو نظرية التطور الاجتماعي القول بأن كل شيء يتطور وأنه لا يوجد شيء ثابت على الإطلاق وإن التطور يجعل كل طور أفضل من الطور الذي سبقه ، وقد كان واضحاً أن صياغة النظرية على هذا النحو هي محاولة من محاولات متعددة لإنكار عنصر الثبات الأصيل القائم في الكون والوجود ، ومعارضة الأديان والحقائق الكبرى والنواميس الأساسية التي يعترف بها العالم وكذلك انتفاض مفاهيم المحافظة والقديم ووصفها بأنها مفاهيم جامدة وقد كشف العلم عن أخطاء نظرية التطور الفلسفي التي أريد فرضها على المجتمعات والثقافة في معارضتها الأساسية لقوانين التوازن والتكامل بين الجديد والقديم والمحافظة والتجديد وبذلك خرجت نظرية التطور الفلسفي عن مفهوم العلم الذي يقرر أن القديم والجديد عنصران هامين من عناصر الحياة وأنهما متلازمان وضروريان لبقاء الحياة . وأنه لا سبيل لظهور الجديد إلا من القديم كما كشف العلم عن الفارق بين التطور والتطوير . وأن التطور قد يكون تحسناً ورقياً وقد يكون تأخراً وانتكاساً . أما التطوير فهو الذي يعنى التحسين التصاعدي الذي يهدف إلى الترقى .

(٤)

أن أخطر محاولات نظرية التطور الاجتماعي الوصول إليه لخدمة أهدافها هو القول بأن التطور قانون أخلاقي يفرض نفوذه على القيم الإنسانية ويعرضها لخطر التغير مع الأزمنة المختلفة كان يقال أن لكل عصر أخلاقه وأن ليس للأخلاق مقاييس ثابتة أو أحكام ثابتة .

وأن علاقة الإنسان بالإله تعتبر من مفاهيم الأخلاق .
وقد ثبت زيف هذه الفرضية ومخالفاتها للحقائق العلمية الأصلية .

الفصل الثاني

العلم والعلمانية

بدأ منطلق العلم الحديث من الخطوط الذي رسمها المنهج العلمي التجريبي الذي شكله المسلمون ثم ساروا به شوطاً وحققوا به نتائج هامة ، في ميادين العلوم الطبيعية والكيميائية ثم انتقل ميدان العلم إلى أوربا فاتخذ طابعاً مغايراً ؛ كان في العالم الإسلامي يتحرك داخل إطار القيم الإسلامية وأبرزها التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب ، وكان موجهاً إلى الخير والبر والتقدم الجاهل بين الروح والمادة غير أن أوربا لم تقبل غير مفاهيم العلم وحدها وأغضت عن أطوارها ، وطوابعها الإسلامية ومضت بها شوطاً من خلال إطار يختلف : قوامه مفاهيم المسيحية والكنيسة وقيودها ونصوصها التاريخية والجغرافية المسبقة التي أخذت طابع القداسة ومن ثم أخذت تتعارض مع مقررات العلم . ولقد كان لحظة الكنيسة على العلم أثرها في إندفاع العلم إلى الخروج من نطاقها وقيودها ، ثم كان لمنجزات العلم التي هزت النفس البشرية أثرها البعيد في الاستعلاء بالعلم عن كل ماعنده من قيم ، فلما زادت حملة اضطهاد الكنيسة للعلم كان ذلك دافعا للعلم إلى الخروج نهائياً من ساحة القيم كلها وإقامة نفسه فوق القيم عالماً مستقلاً خالصاً لا يخضع بل يخضع سواه . ومن هنا كان ذلك الانفصام بين القيم التي يجمعها الفكر في إطار واحد ، دافعاً إلى التمزق الذي وصل إليه العلم بعد سنوات طويلة حين نما عقل العالم نمواً كبيراً بينما ظل جسمه ضامراً أنحياً ، وبدأ صراع عنيف خفيف كان كله على حساب الدين الحق ، وعلى حساب قيم الفكر الديني

الذى سيطر عليه الفكر البشرى وحاربه في عنف . ومن الحق أن يقال أن الحرب كلها كانت موجهة إلى مفهوم الدين الذى عرفته أوروبا ، لا إلى مفهوم الدين الحق ، وأن قوى كبرى أرادت تمويه الحرب وتوجيهها إلى الدين كله بحسبانته هو تلك المفاهيم التى كانت تعرفها أوروبا من خلال الكنيسة ، ذلك أن تلك القوى كانت تستهدف ضرب الدين كقوم إنسانى أصيل ، للقضاء عليه وتزييف مفاهيمه وإثارة الشبهات حوله حتى يتحقق لها الوصول إلى أضخم هدف من أهدافها : إنكار الألوهية والحياة الأخرى .

* * *

وخير ما يصور هذا المعنى ما ذكره الأستاذ أبو الحسن الندوى :

كانت الكنيسة تحارب العلم لأن الجهالة سندها الأكبر في الإحتفاظ بسلطانها على الجمهور وما تلقته الكنيسة كان مجموعة من الأساطير لا تثبت لضياء العلم ، فقد كانت تحارب الحرية ، لم تقدم المسيحية للنهضة طريقا ولكن النهضة بدأت بعيداً عن المسيحية والكنيسة .

وبدأت النهضة على أساس غير دينى (secular) وارتكزت على محور يتمتع في دوراته رويداً رويداً عن الدين والعقيدة وما حولها . وعادت إلى منابعها قبل المسيحية إلى الزرات اليونانى والرومانى القديم ، وتكررت لأسانذتها الذين علموها العلم في محاكم التفتيش وطرده المسلمون من الأندلس بعد أن تعلمت منهم المنهج التجريبي وعاشت أوروبا قروناً كاملة بشخصية مزدوجة : مسيحية ووثنية .

ومن هنا نشأت تلك المعركة التاريخية التى أطلق عليها الصراع بين الدين والعلم ، وهو صراع استمرز منا ثم خفت حدته عندما عدل العلم موقفه ، وتخفف من غلوانه ، ومن ثم تحولت المعركة إلى صراع بين الدين والفلسفة .

* * *

ذلك أن العلم لم يلبث بعد أن قطع شوطا يتبين له أنه لم يصل إلى ما كان يحاول وخير ما يصور هذا ما ذكره عالم من كبار العلماء حين قال : « كان العلم في أذهان واضعيه الأوائل يراد به تفسير الوجود ، وكان العلماء في أول عهدهم بالعلم يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها . فلقد ترك العلم للفلسفة منذ عهد بعيد مهمة الإطلاع ببحث العلل النهائية للوجود بعد أن عجز في هذا المضمار ولم يسفر بحته فيه عن شيء البتة » .

والعلم لا يفسر شيئا وإنما هو يربط ويلسق . يلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالي يصف ويقرر ، وأن هذا ليس فها للأشياء ولكن تعرف عليها ، .
ومعنى هذا أن العلم عجز ، ، وأن الفلسفة مع الأسف لم تستطع أن تحتفظ بالطريق الذي التمسته فغلبتها المادية وسيطرت عليها .

ذلك أن النزعة المادية حين برزت كانت القوى التي تدفعها قوية ، إلى الحد الذي مكنها من السيطرة ، بينما ضعفت النزعة المثالية والروحية نهائياً وحوربت وبعثت حتى توارت .

وقد بدأت الفلسفة المادية منطلقها من احتقار الإنسان وتهديم القول بأنه سيد الخليفة والتشكيك في أن الروح هي ميراث الإنسان دون سواء من سائر الخلائق .

(٢)

يؤكد أميل بوترو في كتابه العلم والدين : ان النزاع في القديم لم يكن بين العلم والدين بل بين الفلسفة والدين وأن هذا النزاع قد استمر زمنا طويلا منذ فجر الفلسفة في القرن السادس قبل الميلاد حتى نهاية عصر النهضة . وعنده أن ديانة قدماء اليونان لم يكن إلا مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس التي

يمارسها المواطنون ، وقد نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، ولكنها ما أن استقلت عنه حتى راحت تحاربه وتسخر منه وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة ، وكان الدين (اليوناني) يؤمن بالضرورة العمياء فجاءت الفلسفة اليونانية فأمنت بالعقل البشرى وحل العقل المتسامى محل الإله .

وأصبح عند أفلاطون هو (الصانع) وعند أرسطو (المحرك الذي لا يتحرك) .

وعند الرواقيين (زيوس) وجاء أفلوطين فنأدى بوحدة الوجود .

وبمضى أميل بوترو في تصوير قصة الصراع بين الفلسفة والدين فيقول :
« ولما ظهرت المسيحية اضطرت إلى اصطناع الفلسفة اليونانية لمحاربة الوثنية فقدمت المسيحية من جانبها الإيمان بالوحي السماوى والاحساس بيؤس الانسان وحرمانه ، والإيمان بإله المحبة الذى تجسد مسيحاً لخلاص البشر ، ثم يشير إلى حركة الإصلاح الدينى التى انبثقت من البروتستانتية فيقول : هذه الحرية الدينية شملت كذلك الحرية العلمية التى لجأت إلى المشاهدات والتجارب لا الاعتماد على الأوهام والسحر . وكان ما وضعه جاليلو من أسس العلم التجريبى ارهاصاً لما ظهر بعد ذلك على يد بيكون وديكارت ، ومن هنا ظهرت مشكلة الصلة بين العلم والدين فى ثوب جديد ورأى ديكارت فى « العقل ، الرابطة التى تجمع بين الانسان والله ، وبين الله والعالم .

« ثم أخذ العلم يتقدم بسرعة معتمداً على التجربة الموضوعية وحدها ، فشرع يؤمن بمناهجه ويتجاهل الدين ، ثم أشار إلى ما تطورت اليه الصلة بين الفلسفة والدين حين جاء أوجست كونت صاحب المذهب الوصفى وقرر أن اللاهوت والميتافيزيقا وهميان ، ودعا الى سيادة العلم واخضاع الدين تحت جناحه وجاء سبنسر فقال أن الدين يخضع لقانون التطور كأي ظاهرة أخرى .

ودعا هيجل : إلى عبادة الحق والخير والجمال التي تمثل ثلوثاً جديداً يحل محل المسيحية ، فالحق هو العلم والجمال هو الفن والخير هو المحبة وقال أن الفلسفة العلمية تحل محل الأديان ، وعلت أصوات الفكر المسيحي لتواجه هذه الحملات الضخمة التي شنتها اليهودية النلمودية فدعا رجاله الى تطهيره من العناصر الدخيلة عليه . كالفلسفة والميتافيزيقا واللاهوت والسلطة الكاثوليكية .

وقال ولهم هرمان أن الصيغ اللاهوتية في الكتب المقدسة إنما تمثل تجارب دنيوية تخص صاحبها كالقديس بولس مثلاً . ودعت البروتستانتية إلى إلغاء سلطة الكنيسة . وحاولت التمييز بين الإيمان والعقيدة .

(٢)

لم يلبث هجوم الفلاسفة على الدين أن توسع وعمق حين سيطر المفكرون اليهود :

فقال ماركس أن الدين أفيون الشعوب وأنه مجموعة من الأساطير ابتدعها الاقطاعيون الرأسماليون لتخدير الجماهير السكادحة، وقال فرويد أن الدين ناشىء عن الكبت وقال دوركايم : أن الدين ليس فطرة ، وكذلك عمق الهجوم على الأخلاق ، فقال ماركس : أن الأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي المتطور على الدوام ، وقال : فرويد : أن الأخلاق تنسم بطابع القسوة حتى في صورتها العادية .

وقال دوركايم . الأخلاق شئ . لا يمكن الكلام عنه ككيان ثابت وكان هذا التطور مصداقاً لما جاء في بروتوكولات صهيون : « أن دارون ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر آرائه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين . لقد رتبنا نجاح (دارون - ماركس - نيتشه) بالتزويج لأرائهم ، وأن الأثر الهدام

للأخلاق الذى تلشيه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد.

(٤)

الغيبيات

كان انكار الفلاسفة لوجود عالم آخر خلف هذا العالم المحسوس هو أكبر الأخطار التى واجهها الصراع بين الفلسفة والدين ، فقد ذهبت الفلسفة الوضعية إلى القول بما أسمته « خرافة الميثافيزيقا » فهى تذهب إلى أن جميع قضايا الميثافيزيقا والمطلقات فى المعرفة والأخلاق ، هى أشباه قضايا وخرافات باطلة ، إذ أنها لا تخضع للتحقيق العلمى ولا تقع ضمن نطاق التجربة الحسية ، ولأرباب ان فكرة انكار الغيبيات هى قضية فلسفية وليست قضية علمية : فالعلم لا ينكر الغيبيات ولا يبحثها والعلماء بعد تحطيم الذرة آمنوا بأن هناك عالما آخر ، ويقول العلماء أن الحواس ليست هى الحكم الأول والآخر فى قضية الغيب ، وأن هناك محاولات متعددة تعمل على تحطيم الحواجز على عالم المجهول ، وأنه ليس هناك عدم مطلق وراء عالم الشهادة ، وليس معنى عجز الحواس عن استكناه عالم الغيب هو عدم وجوده ، وهناك أمثلة كثيرة على التناقى من عالم الغيب كسماع الأصوات الصادرة من بعيد ، يقول كريسى موريسون . رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك : إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم تثبت وجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة .

* * *

ولأرباب أن محاولة الفلاسفة فى انكار عالم الغيب إنما يستهدف إلى إقرار مذهب من مذاهب اليهودية التلمودية وهى انكار البعث والجزاء والعالم الآخر وأن الإلحاح على تشكيك الفلسفة للناس فى هذه الحقيقة إنما يهدف إلى دحر مفهوم المسؤولية والجزاء .

يقول أحد الباحثين : أن فكرة انكار الميثولوجيا والغيبيات هي وسيلة
لتحطيم القيم الأخلاقية أساساً ولإلغاء مسئولية الفرد على أعماله في
المستقبل .

وأن معنى انكار الغيب هو تدمير لرسالة الإنسان ومسئوليته ، وجزاءه ،
ومحاولة لإلغاء حقيقة أكيدة هي أن الموت ليس نهاية الإنسان وأن الحياة في
هذا الكون ليست إلا مرحلة إلى حياة أخرى .

الفصل الثالث

العلمانية

لم يشتق مصطلح العلمانية من العلم وإنما اشتق من (معارضة الدين) أو من اللادينية ذلك أن كلمة علماني إنما هي ترجمة لكلمة Secular ومعناها لاديني وهو ينصب أساساً على مبدأ واضح : هو فصل الدين عن الدولة وهو هدف أصيل من أهداف الحركة التي تدافعت بقوة لتحطيم نفوذ الخلافات المسيحية التي قامت على أساس وضع الحواجز بين المجتمع المسيحي والجيوتو اليهودي المعزول بقوة ، وفي عشرات من الأوضاع عن الإرتباط بالمجتمع أو السياسة أو غيرها .

وقد استهدفت الثورة الفرنسية التي قامت أساساً في محافل الماسونية وفق الفلسفة اليهودية التلودية . دعم حركة دخول اليهود إلى المجتمع الأوربي واعتبرت فصل الدين عن الدولة كأساس لهدم الحواجز التي كانت تحول دون تسلم اليهود مراكز الصدارة في المجتمعات والمحافل السياسية . وعزل مفهوم الدين (بمفهومه المسيحي) عن التربية والتعليم والسياسة وتحطيم السدود الأخلاقية التي تحول دون استشراف الإباحة والإلحاد .

يقول الدكتور محمد رضوان : هذه الفكرة لم تنشأ في أوروبا إلا كرد فعل على الأخطاء التي ارتكبت من رجال الدين باسم الدين كاضطهاد الأقليات الطائفية مثلاً . فالتاريخ يحدثننا عن الحروب بين الطوائف الدينية إذ كانت

الأكثرية الساحقة تحاول فرض معتقدها على الأقليات . فمن هنا كان اضطهاد
الكاثوليك للبروتستانت ، وكذلك كان اضطهاد اليهود من قبل الدول المسيحية
عامة : بروتستانية وكاثوليكية .

ولكن هذا الاضطهاد لم يكن ليحدث لو أن التسامح الديني وحرية المعتقد
كانا قاعدتين من قواعد الدولة الحاكمة . غير أن الأمر الذي ساعد أكثر
فأكثر على نجاح فكرة العلمانية في أوروبا هو عجز السلطات الدينية عن مسايرة
حضارة العصر بشكل جعل بعض المفكرين لم يترددوا في نعت الدين عندهم نعتاً
محقراً . (وأشار إلى وصف أوجست كونت ولفي برول الدين بأنه جاء لينظم
الشعوب البدائية) وكذلك فإن فكرة كارل ماركس بأن الدين لفيون الشعوب
هذه الفكرة لم تكن لتكون لو أن رجال الدين كانوا على المقدرة الكافية
لمواجهة الحضارة الحديثة بمشكلاتها العديدة المختلفة . فالدين برجاله في أوروبا
وقف وقفة المتفرج خلال الفترة الأولى من نشوء وانتشار الأفكار والتيارات
الفلسفية المعاصرة ، وقد فات الباحثون أن أوجست كونت ولفي برول وماركس
كانوا جميعاً من فلاسفة الماسونية التي قامت لنقض المجتمعات المسيحية لحساب
اليهودية التلويديّة .

وأنهم نقّـلوا مخططات الانقلاب العالمي والمؤامرة التي كشفتها
البروتوكولات من بعد ، إلى صعيد العمل الصريح الواضح الذي ظهر أولاً في
رجال الموسوعة وفولتير ثم تحقق عملياً في الثورة الفرنسية والثورات الأوروبية
التي اقتلعت جذور الحكومات المسيحية الأوروبية . ومن الحق أن نقول مع
الباحثين أن « الذي ساعد على نشوء العلمانية في أوروبا : جاء نتيجة الأخطاء التي
ارتكبت باسم الدين فأثارت بعض المفكرين عليه وسمحت لهم باغتنام الفرصة
لمحاربته والسعي لهدمه » .

ذلك أنه من الحق أن المسيحية الغربية والكنيسة عجزت عن التجاوب مع النهضة ولكن القوى القادرة استغلت هذا في سبيل تحقيق أهدافها .

* * *

فمن الحق أن نقول أن علمانية الدولة أو لادينية الدولة هي هدف صهيوني أساسي يفسح المجال أمام اليهود حتى لا تقف قوائم الدين أمام نفوذهم وانبثاقهم في مختلف البيئات .

(٢)

كان مقصود أن يكون هدف العلمانية ، هو فصل الدين عن الدولة ، والتفريق بين المجتمع الكنسي والمجتمع المدني وإعطاء كل منهما استقلاله دون أن يخضع أحدهما للآخر ، غير أن الذي حدث في أوروبا لم يكن كذلك وإنما كان إعطاء الدولة القدوة على إخضاع الدين وضربه ، فإن العلمانية القائمة على أساس على الفلسفة المادية لم يلبث أن فاجت عن المذهب اللاديني الذي جعل غاية محاربة الدين وإقصائه عن مختلف مجالات الحياة العامة وكذلك إقصاء رجاله ، والحد من تأثيرهم بعزله عن المعاهد الثقافية والعلمية ومنع التعليم الديني من المدارس ومصادرة أملاك الكنيسة وسيطرة العلمانية على الحكم والمدرسة واستطارت الحملة على ما يسمى بالحكومة الشيوقراطية واستهدفت بالحملة إبعاد الدين ومقرراته عن تكوين الثقافة أو الفكر السياسي والاجتماعي .

(٢)

هل حققت العلمانية في أوروبا أهدافها وهل استطاعت أن تهزم الدين :

من الحق أن يقال أن التجربة التي استمرت الآن ثلاث قرون لم تستطع أن تحقق هدفها في هدم الدين في المجتمعات الأوروبية أو تخرجها لإخراجاً كاملاً

من مضامينه وقيمه ، بالرغم من حملتها الضخمة على الألوهية والأخلاق والبهت .

وأن المجتمعات الأوربية بعد إنسحاب الدين من التوجيه السياسى ثم التوجيه الاجتماعى ما تزال متدنية . أما الأهداف التى دعت العلمانية إليها فإنها قد عجزت عن تحقيقها وأهمها المساواة وإحلال الوطنية والقومية والأيدولوجيات السياسية ، فقد فشلت هذه المذاهب تماماً .

فالعلمانية — كما يقول الدكتور محمد رضوان لم تنجح فى تحقيق غايتها وهى إقامة دولة ومجتمع ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردى ولم تستطع العلمانية أن تنحصر الدين فى الفرد فقط ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون فى بلد واحد يشعرون أنهم أشوة فى الوطن بصرف النظر عن كونهم غير أشوة فى الدين ، ووالعلمانية يشق عليها أن تنجح فى بلد يكون فيه الشعور الدينى يقطأ ، والواضح اليوم أن الشعور الدينى لم ينجح حتى فى البلاد التى تدعى بالإلحاد رسمياً ، . . . لقد قامت الدولة العلمانية لكنها فى الواقع لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلمانى إلا بشكل صورى .

أعنى أن هذه الدول لم تتخل عن دينها وأن الدين لا يزال له نفوذه وهذا واضح حالياً فى عدة ميادين ، لذلك نرى أن العلمانية تظهر كل يوم وجهاً جديداً من أوجه عجزها وتقف مكتوفة الأيدي إزاء المشكلات التى يعاينها المجتمع الذى ولدت فيه .

(٤)

ويرى الدكتور فاضل الجمالى أن هدف العلمانية الأول هو إحتواء القرية والتعليم للسيطرة على إخراج أجيال لا تعرف الدين أو الأخلاق ، يقول : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها فى البلاد التى طبقت فيها بل وقت فى

تناقضات واضحة ولا سيما في حقل التعليم ولا شك أن الهدف الأول من العلمانية في العلم ، ولأجل هذا أبعثت الثقافة الديدية عن المدارس العامة في كل من فرنسا والولايات المتحدة ولكن أبناء الشعب الذين يؤمنون بأهمية الثقافة الديدية اضطروا إلى إرسال أبنائهم إلى مدارس دينية خاصة بدل إرسالهم إلى المدارس العامة .

(٥)

حاولت الصهيونية العالمية والاستعمار طرح قضية العلمانية في المجتمعات الإسلامية من خلال نفوذ الاحتلال الذي فرض على البلاد العربية والإسلامية أنظمة غربية كما فرض عليها أن تقتبس قوانينه وتشريعاته من القوانين الغربية التي تقوم على أساس فصل الدين عن الدولة أساساً . غير أن البلاد العربية والإسلامية لم تجد نفسها من خلال هذه الأنظمة وعاشت حياة سياسية واجتماعية وتربوية مضطربة قلقة نتيجة للفصل بين الإسلام والمجتمع ، أسوة بالمجتمعات الغربية التي فصل بينها وبين الدين وكان الخطأ في ذلك هو عدم تقدير الفوارق الدقيقة بين الإسلام وبين الأديان الأخرى . حيث لا يوجد للإسلام مؤسسة كالكنيسة الغربية ، وليس هناك تاريخ دام في الصراع بين الفرق ، ولا اضطراب في المفاهيم ، ولا صدام بين الدين والعلم بل على العكس من ذلك فقد جاء الإسلام ديناً ومنهج حياة ، وكان مصدر أساسياً للمنهج العلمي التجريبي .

ومن هنا فلم توجد ضرورة حقيقية لأن يعتنق الفكر الإسلامي أو المجتمعات الإسلامية مبدأ العلمانية إذ أن العوامل التي كانت سبباً في أوروبا لاعتناقها لم توجد إطلاقاً في المجتمع الإسلامي ولا في الفكر الإسلامي .

وفي العالم الإسلامي لم تقع خلافات ولا معارك ديموية ، وكانت روح الإسلام قابلة لتغير الأزمان والبيئات ، وكان منهج الإسلام بطبيعته مرناً حياً

قادراً على التحرك والتجارب مع الأحداث على نحو يكشف عن أنه دين الإنسانية الحق الذي يمثل الفطرة الإنسانية في شمولها وتكاملها وفي الاعتراف بنوازها ومطالبها والاستجابة لها ولم يكن الإسلام موضع صراع أو جدل أو خلاف على النحو الذي عرفته أوروبا ولم يشارك الإسلام في الاستبداد وظلم الملوك والأمراء بل على العكس من ذلك كان دائماً ضد الظلم والاستبداد وقد كان الإسلام قادراً على استيعاب كل تقدم علمي وصناعي وفكري وفي نفس الوقت فإن الفكر الإسلامي استمداداً من مصدره القرآن إلى الأصل لا يستجيب للفصل بين الدين والدولة أو بين الدين والمجتمع، لاختلاف طبيعة الإسلام كدين ونظام مجتمع عن المسيحية في أصلها وهي مجموعة وصايا وبالنسبة لها كتطبيق في المجتمعات الرومانية التي كان الدين فيها لله والحكم لقيصر بينما كان الدين والحكم في الإسلام منذ أول اليوم تشكل فيه المجتمع الإسلامي لله خالصاً هذا فضلاً عن الإسلام لا يقر حرية الإلحاد ولا يقبل أن تكون منفصلة عن التربية الدينية والأخلاق. ومن حق أن يقول الدكتور محمد رضوان أن الدعوة إلى العلمانية في عالم الإسلام تكشف عن الجهل بحقائق الإسلام وتاريخه الفكري الناصع وقدرته على استيعاب كل تقدم علمي وصناعي وفكري بل وحته اتباعه على إحرار هذا التقدم، فقد كان الإسلام قادراً برويته وقدرته السكينة على إعطاء الحياة المتجددة قوتها، ولاريب أن الصهيونية العالمية إنما تريد أن تخرج المجتمعات الإسلامية والعربية من معايير القانون الأخلاقي وذلك بطرح مختلف هذه الدعوات الهدامة التي فشلت في مجتمعاتها الأساسية ولم تستطع أن تحقق شيئاً، وأثبتت أن الحكومة العلمانية عاجزة عن تحقيق الوحدة الاجتماعية، أو مقاومة التحديات المختلفة التي تواجهها. هذا فضلاً عن أن «الصلة المحركة التي تربط الدين بالسياسة والتي هي من خصائص الإسلام ومميزاته لا تحظى بالقبول عند كثير من المسلمين الذين تلقوا ثقافتهم عن الغرب والذين نشنوا على أساس الاعتقاد بأن لكل من مسائل الدين والحياة العلمية عالمها الخاص»

ذلك أن تعاليم الاسلام إنما تعمل أساساً على تنظيم العلاقة بين الانسان وخالفه ، وفي نفس الوقت بين الانسان والانسان وذلك بوضع نظام محدد للسلوك الاجتماعي والأخلاقي يجب على المسلم اتبعه .

(٦)

ومن التسميات التي اتصلت بالعلانية : شبهة أن الدولة الاسلامية هي دولة ثيوقراطية :

يقول أحد الباحثين : إن الجواب يسكون بالنفي القاطع إذا كنا نغني بالثيوقراطية : ذلك النظام الذي نقله التاريخ عن أوروبا في القرون الوسطى عندما حاولت طبقة رجال الدين أن تتمسك في يدها بأزمة السلطة السياسية العليا ، وذلك لمبب بسيط هو أنه لا وجود في الاسلام للكهانة ولا لطبقة متميزة تدعى رجال الدين ولهذا يستحيل أن يوجد في الاسلام مؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التي تختص بأسرار الدين وطقوسه . ولما كان كل مسلم بالغ له الحق المطلق أن يمارس بنفسه شعار الدين فليس هنا شخص أو هيئة اجتماعية تستطيع أن تزعم لنفسها نوعاً من القداسة اكتسبتها عن طريق شعيرة دينية أو طبقة كهنوتية اختصت بها من دون الناس . وبجمل القول أن تعبير الثيوقراطية كما يفهمه الغرب لا معنى له على الإطلاق في البيئة الاسلامية . وأن للفكرة الاسلامية نظاماً اجتماعياً متميزاً خالصاً لها وحدها يختلف عن غيره من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة في الغرب ، إن الاسلام أكثر من نظام سياسي : إنه منهاج كامل للعقيدة والقيم الأخلاقية ، إنه نظرية اجتماعية شاملة ودعوة إلى الاستقامة والاعتدال في كل الأمور الشخصية ، إنه ايدولوجية تامة تعتبر كل مظاهر الحياة الأدبية منها والمادية والروحية والعقلية ، الفردية والاجتماعية كلاً لا يتجزأ . ولما كانت ايدولوجية الاسلام تامة مستقلة بذاتها عن سواها فإن معتقديها لا يمكن أن يعيشوا حياة إسلامية صحيحة بمجرد اعتناقهم لعقائد الاسلام .

ويقول الدكتور فاضل الجمالي : ان تطبيق العلمانية في البلاد المسيحية أسهل منه في البلاد الاسلامية وذلك لما جاء في إنجيل متى من أن « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، قد يكون لأهم من ذلك : أن المسيحية لم تشمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة ، أما الاسلام فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق فإنه جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان في شتى نواحيها من المهد إلى اللحد ، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الانسانية : وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم أهمية الشريعة الاسلامية وما تحويه من ثروة ذاهرة واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال المتطورة ، فعلمانية الدولة في البلاد الاسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الاسلامية إلى أهم عامل من عوامل توجيه حياة الشعب اليومية . ولئن كانت العلمانية لاتلائم الشعوب الاسلامية بصورة عامة فإنها لاتلائم الأمة العربية بصورة خاصة لأن الأمة العربية مديونة للإسلام في تكوينها الحاضر ، ويجب أن تكون حاملة رسالة الاسلام إلى الانسانية جميعاً ، فالفصل بين الدين والدولة معناه تجرد الحكومة العربية من أهم مقوماتها . فالأمة العربية منفصلة عن الاسلام وعن رسالته تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه ، والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لالب فيه وما أسهل دخول المبادئ الوافدة على اختلاف أنواعها لئلا الفراغ في القشر الفارغ .

(٧)

ولقد استطاعت موجة العلمانية أن تجرف المجتمع الاسلامي وتضيئه في الصميم في مجال التعليم وفي مجال الشريعة والقضاء وفي المجتمعات والنظم والحكم .

وقد تشكلت الأجيال المختلفة في معاهد الاداسيات ووفق الأنظمة التي رسمها الاستعمار وكانت النزعة العلمانية أو اللادينية بالأجرى موجهة إلى

الإسلام وحده من دون الأديان الأخرى ، ذلك أن مدارس الإرساليات والكليات المختلفة التي أنشأتها قد أعادت من شأن مفاهيم الأديان والتاريخ الغريب عن الإسلام وأثارت الشبهات حول الإسلام ولغته وقرآنه ورسوله هذا فضلا عن أن مؤسسات كثيرة اجتماعية وسياسية قامت في البلاد العربية والعالم الإسلامي تركز على علمانية الدولة ، أو تقدم القومية الضيقة القائمة على العلمانية ومن كان منها ذا طابع إسلامي أو عربي حاول أن يقصر مفهومه على الإسلام الحضاري .

ملحق

ضوء من الاسلام على العلم والفلسفة المادية

لا ريب أن القرآن هو الذي دفع الانسان المسلم إلى اكتناه الآفاق الكونية وهو الذي دعا الانسان إلى السيطرة على الحياة ودفعه إلى الابداع العلمي، ومن ثم اندفع المسلمون الاولون إلى التماس منهج القياس والتجريب، وفكرة القياس لا ريب من أهم الأفكار التي عرفها تاريخ الانسانية كلها، وذلك للنتائج التي حققتها من بعد بإنشاء المنهج العلمي التجريبي . فليس المنطق اليوناني بل هو المنهج التجريبي الذي فتح آفاق العلم . وفكرة القياس وضعت في عصر النبي وفي عصر صحابته وتحت تأثير القرآن نفسه لقياس الأشباه بالنظائر والأمثال بالأمثال ، بل ولقد وضعت أيضاً في العصر القرآني قواعد القياس وشروط العلوم . يقول الزركشي صاحب البحر المحيط : إن الضعابة تكلموا في زمن النبي في العلل . ويقول ابن خلدون : إن كثيراً من الواقعات لم تندرج في النصوص الثابتة فقام بها الصحابة بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط من ذلك الإلحاق ومن ذلك تصحيح المساواة بين الشبهين أو المثليين ، حتى يغلب على الظن أن حكم الله فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس ، ويتميز العلم الاسلامي بأنه حي واقعي تجريبي ، خال من عنصر الخيال والقصة والفسير اللاشعوري أو الشعري لأنه مقيّد بالملاحظة والتجربة كما أنه تميز بأنه ناقد ، ولا ريب أن الفكر الاسلامي كان ثمرة عملية نقد كبيرة وعملية تصفية للفكر السابق ، وتجديد وبناء استغرق قروناً زاهرة في حياة العقل في الاسلام .

وقد اعتمد العلماء المسلمون على العقل والحس ، مطالبين أنفسهم وغيرهم
بالدليل والبرهان وقد استطاعوا بعد أن يطلعوا على معارف الأمم أن يصححوها
ويعيدروها بالمعرفة خطوات هائلة ، وكان تحديد العلوم الطبيعية والكونية من
طريق شتى تبدأ بدراسة المحسوس لا المجردات الذهنية ، وإدراك فكرة الحكم
والمقدار في نظام الطبيعة والاهتمام بمعرفة الحقيقة ووجوه الحكم والابداع في
صنع العالم . وتحديد فهم المعرفة العلمية بالاعتماد على الملاحظة والتجربة بعد
أن غلب على اليونان الاستنباط النظري فصححوا معارف القدماء واتسكروا
علوماً خاصة بهم . وجاء جابر مؤسس علم الكيمياء بمعناه الحديث ووضع الحسن
ابن الهيثم علم الضوء بالمعنى الحديث والثباتي مجدد علم الفلك . وقد أقام جابر
علم الكيمياء على التجربة التي جعلها وسيلة كشف وتمحيص يسبقها عمالاً بدونه
قبلها من تصور أو تخطيط فكري يقود التجربة ،^(١)

وفي الاسلام لا يوجد صراع بين الدين والعلم : لا يوجد في الاسلام تلك
المشكلة الموجودة عند غير المسلمين وهي مشكلة أن الدين يقابل العلم والفلسفة
أو يعارضهما ، فالاسلام مبني على العقل والعلم وكتابه كتاب علم وحكمة ،
وإذا كانت هذه المشكلة قد ظهرت بين المسلمين قديماً أو هي تعرض لبعض
المفكرين حديثاً فإنها دخيلة ، وآتية من محاولات أخرى ولا ينبغي أن
تعرض لمن يعرف الإسلام أصولاً وروحاً ومنهجاً ، ويعرف معنى العلم
وحقيقة العقل وطريقته واليقين ومقياسه . وقد تميز الإسلام عن غيره من
الأديان بأنه نبه العقل واعتمد عليه وجعل العلم أساس العقيدة والبرهان سلاح
الإيمان ، وقد اعترف العلماء الغربيون بمحدودية العلم وقال بوترو في كتابه
العلم والدين :

(١) ، من بحث الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة .

[لقد عجز العلم عن حل المشاكل ، وأن العلم مهما تقدم فهو محدود ، وبذلك لا بد من الرجوع إلى ما يسد الفراغ عن طريق الدين بروحانيته واعتياده على القلب والعاطفة : أن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ، أن كل منهما مستمد من الآخر ، ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر] .

ويضع المسلمون العلماء تحفظات أكثر حول دعوى العلم التي تطلق على الفلسفة وعلى كل ما يجرى مجرى التفكير . والحق أن ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمي إليه ، ولا كل ما ينتمي إلى العلم مفروض من إثباته ، بل كما أن في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيها أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات ، وهناك فرض باطل مسلم به ضمناً وهو أن العلم الحديث مبني على البرهان الحسي فما يقال باسمه لا بد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلماء البرهان فهم يتقبلون كل ما ينسب إلى العلم لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه ، (١) .

• • •

أما نظرية التطور فهي نظرية ناقصة ولكي تكون كاملة لا بد أن يدعج معها قانون الثبات الذي هو وعاء لحركة التطور مع تحديد الآفاق والافلاك التي يدور فيها التطور ولا يتعداها . ونظرية التطور قامت على عدد ضخم من الفروض والتخمينات ولم يقبلها الماديون الذين يرفضون كل ما هو محسوس حتى ولو كان ذلك مجرد الترابط بين المحسوسات .

الباب الثاني

تفسير التاريخ

الفصل الأول : التفسير المبادئ للتاريخ

الفصل الثاني : التفسير الليبرالي للتاريخ

الفصل الثالث : الفلسفة البرجانية

الفصل الأول

التفسير المادى للتاريخ

نشرت الفلاسفة الأوربية بساط المادية فأصبح أساساً لكل النظريات العقائدية والاجتماعية (بما فيها الاقتصاد والأخلاق) .

وهكذا أصبحت النظرية المادية أساساً لكل مقاررات الفكر الغربى بشقيه : الليبرالى والماركسى . وإذا كانت النظرية المادية قد أصبحت أساساً للفكر الأوربى ، فإن التفسير المادى للتاريخ أصبح أساساً للفلسفة الاجتماعية حتى أطلق عليها اسم المادية التاريخية .

وبذلك يكون المنحنى الخطير الذى اتجه إليه الفكر الغربى خلال عصر التنوير قد حقق هدفه فى تغليب الفكر البشرى بكل مقدراته القديمة وابتغائها من جديد ، وفرضها فرضاً حتى لم يجعل للفكر الإنسانى الأصل الذى قدمته الأديان المنزلة إلا خيطاً رقيقاً أصبح فى كل وقت معرضاً للزوال ومن هنا يرى توينبى أن الماركسية انحرف فى الحضارة الغربية المسيحية .

وتقوم النظرية على تفسير الحياة الإنسانية من خلال التفسير المادى والاقتصادى ، فالتفسير المادى للتاريخ يقوم على : تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله ، فالقوى المادية والاقتصادية هي العنصر الفعال فى تاريخ البشرية .

وإن عوامل الإنتاج المادى هي أساس التغييرات الاجتماعية والإنسانية

والروحية والفكرية ، وإن الفنون والتشريع وغيرها من مظاهر الحضارة غير المادية هي نتائج ملازمة وصيغ إضافية للمادية التاريخية .

ويرى ماركس أن المادة تفسر كل شيء في الكون وفي المجتمع الإنساني . وإن العامل الحاسم في حركة التاريخ هي علاقات الإنتاج وإنه حين يحدث التناقض بين علاقات الإنتاج يؤدي ذلك إلى الانفجار وإلى تغيير نوعي وجذري في هذه العلاقات ، ولذا فإن التاريخ صراع بين طبقات تريد الاحتفاظ بالعلاقات القديمة وطبقات تريد التغيير ، وإن التاريخ لهذا صراع طبقات .

وتقول المادية التاريخية : إن التاريخ من صنع البشر ، وإن أفكار البشر انعكاسات للظروف الاقتصادية . وإن الحالة الاقتصادية التي تعيش فيها الأمة هي مصدر الانقلابات والحروب وتطور الأخلاق والجماعات .

وقد وجد ماركس أن التاريخ يمثل صراعاً عنيفاً بين الطبقات الاقتصادية ، وإن جميع أنواع الصراع في التاريخ سواء في ميدان السياسة أو ميدان الدين والفلسفة والإجماع ما هي إلا تعبير عن الصراع الطبيعي في المجتمع ، وهدف التاريخ عنده هو الوصول بالبشر إلى مجتمع لا طبقي ، وقال ماركس إن الشعور الإنساني تتحكم فيه الظروف الاجتماعية ، واعتبر تطور الإنتاج المادي هو القوة المحركة للتاريخ البشري ، وعند ماركس إن المادية هي الأساس والفكر ظل لها . وبالجمله فإن ماركس يرى كل ما يقع في التاريخ مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية وما دامت الأسباب الاقتصادية دون غيرها هي التي تملي على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء فلا مجال هناك للاعتراف بإله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصائرهم .

(٢)

ومن منطلق التفسير المادي للتاريخ يتشكل مفهوم الفلسفة الماركسية :-

- ليس للكون خالق بل الكون مادة .
- الأديان عتد للمقول يجب التحرر منه وإنقاذ الإنسانية من شره .
- الدعامة الأساسية هي إنكار الله والبحث .
- المادية هي التي أنشأت الحضارة الصناعية الحديثة .
- الطوايع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية طوايع مادية .
- الفرد وسيلة وليس غاية ، وهو ذرة تفتى في جسم الدولة .
- إلغاء حق الملكية الفردية وحق التوريث وحق ثمار الكسب .

ومن هذه الخيوط العامة تبين مدى التعارض الكبير بين مفهوم الفكر الغربى المسيحى وبين مفهوم الفكر اليهودى التلوى الواضح الأثر فى نظرية التفسير المادى للتارىخ الكاشف لكل ما تضمنته مفاهيم التلوى وفلسفة الماسونية .

وقد تطور وتشكل فى صورة نظرية كاملة معارضة تمام المعارضة لمنهج الفكر الغربى المسيحى الذى شكلته مفاهيم الرأسمالية والحرية ، فهى لم تقم على معارضة النظام الاقتصادى والاجتماعى الغربى ، وإنما هاجمت الأساس الاصيل للفكر الإنسانى كله المستمد من الأديان ورسالات السماء ، وذلك بمعارضة الدين وإنكار الخالق ، وإنكار البعث . وكان واضحاً فى صياغة النظرية الماركسية أن تكون بمثابة منهج كامل وعقيدة شاملة أو بديل للدين والشرائع ، وكان واضحاً ذلك التحدى الخطير الذى كانت هى بمثابة رد فعل له وهو المسيحية والكنيسة . وقد اعترف الفيلسوف هكسل بهذه الحقيقة حين قال فى كتابه « دين بغير وحي » .

كانت الماركسية أكثر تنسيقاً وملاءمة ولكن أساسها المادى المحض حد من فاعليتها فقد حاولت أن تنسج حقيقة القيم الروحية ، وهذه القيم موجودة وقائمة ، لذا كان على الماركسية أن تتقبل نتائج هذا الخطأ الأيدولوجى فأقبلت في غيظ وحق تفتح أبواب الكنائس للجموع المنعشة إلى القيم الروحية . ولم تكن الفلسفة الماركسية جديدة أو مبتكرة ولكنها كانت واضحة الأصول في الفكر اليونانى القديم عامة وفى جمهورية أفلاطون خاصة وكانت هسارة الفكر الوثنى المادى القديم . ومن الحق أن يقال إن النظرية الماركسية هى رد فعل النظرية الرأسمالية التى هزتها أوروبا وبلغت غايتها فى السيطرة السياسية والاقتصادية وغلبة الاحتكارات واستهدفت القضاء على هذا النظام وتدميره باعتباره ثمرة من ثمار الفكر المسيحى الغربى ومرتبطة أشد الارتباط بالكنيسة الكاثوليكية ونفوذها فى مجال الإقطاع . غير أن الفلسفة الماركسية لم تقتصر على الاقتصاد وحده ولكنها حاولت هدم المجتمع الغربى وفكره من الأساس ونقله إلى مجال النظرية المادية ، وذلك حين جمعت من المادة أساس الكون والحياة .

ولذلك فهى لم تكن فى الحقيقة عملية تطور طبيعى فى الفكر الغربى فى مواجهة الرأسمالية وحدها ، ولكنها كانت محاولة لاقتلاع الجذور الفكرية المسيحية التى قامت عليها الحضارة والفكر والرأسمالية . وهى واحدة من أيدولوجيات كثيرة حاول المجتمع الغربى التماسها منهجاً للحياة والمجتمع بعد أن أعلن رفضه للنهج الغربى المسيحى الذى قامت عليه الكنيسة الكاثوليكية والنقوذ البابوى .

(٣)

يقول كثير من المفكرين أن الماركسية هى بمثابة تحول فى داخل دائرة الفكر الغربى وليس خارجة عليه ، ذلك أن ماركس فى منطق نظريته يؤمن

بالحضارة الغربية بكل قيمها وتاريخها ، ويغتر بهذا التاريخ ويعتبه تقدماً للبشرية في طريقها نحو النصر الأكبر ، ويسمى جوامع هذه الحضارة حتمية تاريخية لا يرجعها إلى فلسفتها بقدر ما يرجعها إلى الضرورات الاقتصادية ، وكل ما يتقدم به ماركس هو حل لإنقاذ هذه الحضارة وإخراجها من ورطتها من التناقض من العمل الجماعي والملكية الفردية .

(٤)

إذا كانت النظريات المادية تعارض مفهوم الدين جملة فإن النظرية الماركسية تواجهه بأعنف جملة من حملات المعارضة والخصومة .

فالدين في مفهوم الماركسية ليس إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية ، وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة ، وترى الماركسية أن الدين مظهر لمعجز الإنسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الإقطاعية وأنه يوم يجد الإنسان الطمأنينة على رزقه وحياته سيختفي الدين .

ولا تدعو الماركسية إلى اضطهاد الدين أو القضاء عليه ولكنها تقول بسحب الأرض من تحته بالقضاء على الأساس المادية والمعنوية لوجوده . وإذا كانت النظريات اليهودية التلمودية التي طرحت على الفكر الغربي قد تعددت : بين نظرية قومية عنصرية تقوم على أساس فوارق الدم والجنس أو مادية محالصة تنكر الأديان والعقائد فإن نظرية ماركس تعارض الأساسين القديمين : الدين والعنصر .

وتقوم على أساس الطبقات وتدعو عمال العالم إلى القضاء أيضاً مبرماً على المملوكين وأصحاب رؤوس الأموال ، حتى لقد عد كتابه (رأس المال) كتورة (م ٤ - للاقتصاديات والفلسفة)

للطبقات العاملة . فقد دأب مختلف الطبقات في جميع بقاع المعمورة إلى التطلع والاعتقال .

ويرى المؤرخ توينبي وهو من كبار المدافعين عن وجهة النظر المسيحية في الحضارة الغربية أن : للماركسية أيولوجية تبشيرية قبل المسيحية والإسلام تهدف إلى تحويل البشرية بأجمعها نحو مبدأها ، لذلك فهي لا تتحدى المذنيات الغربية فحسب بل كل المذنيات الحية في العالم ، هذا التحدى سوف يحملنا على رد فعل مماثل ، فلسوف نجبر جميعاً على إعادة النظر في أساس معتقداتنا الموروثة ومحاولة إستخلاص جوهر هذه المعتقدات . ويقول : يرفض الغرب النظرية التي تقول بأن الأفراد يجب ألا يقدموا على البشرية كجموعة ويتحسس الغرب لقداسة الشخصية الإنسانية (الفردية) . ويقول : فالمسيحيون يعتقدون أن للشخص حقوقاً لا يصح التنازل للمجموع ، وأن للنفس الإنسانية الفردية قيمتها العليا أمام الله .

(٥)

وضع ماركس معنى كاملاً للحياة والتاريخ عن طريق التفسير المادى للتاريخ ، يقوم على أساس إعلاء الاقتصاد واعتبار القوى المادية هي صاحبة الأثر الأكبر في تشكيل الأحداث والانتاج هو أساس النظام الاجتماعى وأن تاريخ البشرية كله هو التاريخ المادى وأن المواقف الاجتماعية والسياسية والمعنوية هي انعكاس لأسلوب الإنتاج ويقوم هذا المفهوم كله على أساس أن الإنسان حيوان وأن مطالبه ليست سوى المأكل والسكن والإشباع الجسد ، ومن هذا المنطلق المادى الإقتصادى البحث تصل الماركسية إلى القول بأن الرسائل السماوية هي من أكبر أوهام البشرية ، وأن حقيقة العالم تنحصر في ماديته وبذلك تنكر وجود الله والوحى والرسالات وترى أن الدين هو أفيون الشعوب ويترتب على هذا القول بأن القيم الأخلاقية مجرد

إنعكاس للوضع الاقتصادي، وأن وجودها ليس أصيلاً في الحياة البشرية فضلاً عن أنها غير ثابتة (ومن هذا المنطلق يبدأ فرويد ودوركايم مرحلة أخرى من مراحل تطور الفكر المادى) .

* * *

والنظرية في ذاتها مجافية لطبائع الحياة والإنسان الجامعة بين الماديات والروحيات وبين المعنويات والقيم ، فقيام نظرية على اغفال هذه الجوانب من تفسير الحياة والتاريخ تبدو غريبة غريبة شديدة عن الفطرة . ولذلك يبدو في ثنائها الغرض والهدف الرامى الى هدم الدين والأخلاق .

وفيها إغضاء كامل عن العوامل المختلفة التى تدفع الناس إلى السعى في الحياة .
وهى تعنى معارضة الفكر المسيحى الأوربى والدينى معارضة كاملة .
• وماركس يرفض الفسكرة الأساسية فى الدين وهو الإيمان بالله الموجود الأزلى المستقل تماماً والمتجرد تماماً عن المادة وكحقيقة واضحة ، وهو يرفض القيم الأزلية والإلهانية العليا ويقصر نظره عند الجانب الاقتصادى وحده من بين أحداث الحياة وعوامل التأثير فيها .

وأخطر من هذا كله ما تحاول الماركسية أن تصل إليه من القول بتبعية العقل فى وجوده لوجود المادة ، ويلتصق هذا إلى القول بأن وجود العقل غير مستقل عن المادة يعنى أن الله (تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) غير موجود فى نظرها وفى تتبع العقل للمادة ، يحل الجبر محل الاختيار فى توجيه الفرد ، ويصبح الفرد مجبوراً لا اختيار له ، مجبوراً ببيئته ووراثته وبمحيطاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الخصوص ،^(١) .

• (١) راجعنا فى هذا : الإنسان بين المادية والروحانية (و) خصائص التطور الإسلامى .

وتتضمن الماركسية الدين بأنه مخدر لأنه يدعو إلى تأليه غير المحدود في الوجود وهي تقف عند المحدود الذي هو الحس، وأن الدين يدعو إلى تقديس حلة عامة للوجود وراء الحس والشاهد، وهي تنكر ما عدا الحس والشاهد، وأن الدين يدعو إلى القيم الأخلاقية والمثل العليا الثابتة وهي لا ترى ثباتاً لشيء على الإطلاق، كما لا ترى قيماً ولا مثلاً فيما عدا ما يوحى به الحس ويقدمه للإنسان من متع حسية وما يسد به حاجة بدنه فقط. وتصف الدين عامه بأنه مخدر لأنه يقف في طرف مقابل عما تؤمن هي به وتصف المسيحية الكاثوليكية على الخصوص بأنها سلطة تعوق الانتقال أو التقدم في سير العالم وتعيب ثبات القيم الأخلاقية والاعتبار العام للمقاييس الأخلاقية.

* * *

ومن هذا كله نرى كيف تشكل النظرية الماركسية حلقة أكثر إبعاداً في المادية وتطوراً بالفكر الغربي خاصة وبالفكر البشري عامة لإخراجه من القيم الإنسانية التي قدمتها رسالات السماء والأديان ودفع العقل، والنفس الإنسانية إلى الانحدار نحو المادية الخالصة بكل مقوماتها من وثنية وإباحية وفساد في التصور والسلوك. فهي تدعو إلى: إنكار الفرد وقيمه كفرد وإعلاء شأن الجماعة، إنكار الملكية الفردية، إنكار الأسرة وحقها في العلاقة الزوجية إنكار القيم العقائدية، وتدعو إلى تبعية الفكر للعامل المادي الاقتصادي، وإنكار الله والدين والبعث والجزاء وهي تنطلق لدعوة فرويد ودوركايم وسارتر فيما يتعلق بالسلوك الإنساني فهي ترسم له الطريق للتحرك في إطار المستوى المادي وحده، وإقامة علاقات الأفراد على أساس مادي، وبناء العلاقات الأسرية، ليس على علاقة الدم والرحم، وإنما على أساس التبادل في التعبير المادي.

(٦)

ومن أخطر مقررات النظرية الماركسية القول بأن الأحداث الاجتماعية

لا تقوم على أساس عمل الأبطال والزعماء والمفكرين بل عن طريق القوى
المادية وحدها، وأن هذه القوى هي الاقتصاد .

وبذلك تفكر الماركسية الزعامات والبعاولات وأثرها في التغيير التاريخي
فالماركسية كما تنسك أثر الأديان والقيم، في أحداث التغيير من خلال حركة التاريخ،
وكذلك كل ما هو غير مادي من مشاعر وعواطف، ومن مقومات كالحق
والعدل، أو من تقاليد وأخلاق، كذلك تنسك أثر الأنبياء والأبطال والقادة
الذين غيروا مجرى التاريخ وأثروا في المجتمعات على مدى العصور وبذلك تبدو
صورة التفسير الماركسي للتاريخ والحياة قائمة مظلمة قائمة على عنصر واحد من عدة
عناصر لها أثرها الواضح . ويتكشف من وراء ذلك معارضتها العميقة وتقصيها
الواضح المغلف بالطابع العلمي البراق للعقائد والأديان وخاصة بقايا المفهوم
الغناوي الزباني في المسيحية الغربية، ولقد استطاعت القوى الخارقة التي تحمل
هذه الدعوات وتحركها في المجمع المختلفة، وبين الصحف والكتب
والجامعات أن تفرض هذا المفهوم على الفكر الغربي كله (بشقيه) فقد أخذ
بالنظرية المادية أساساً ثم أخذ بالتفسير المادي للتاريخ، وقبل تفسير الحياة كلها
من حيث الاقتصاد والمادة وإغفال القيم وأثرها في الحياة . وبذلك ينحرف
الفكر البشري مرة أخرى عن الفطرة والطبيعة الإنسانية وتعود به النظرية
الماركسية بالإنسانية إلى الرق، وبالفكر والإيمان إلى الجبر وبالإنسان إلى الوثنية
وبالقيم والأخلاق إلى الانطلاق في الحيوانية واعتبار الطعام والجنس هو الهدف
الأساسي في حياة الإنسان .

(٥)

الفصل الثاني

التفسير الليبرالي للتاريخ

(الفلسفة السياسية)

تحوّلت الفلسفة السياسية في الفكر الغربي من الثيوقراطية (حكومة البابوات إلى الميكافيلية تحت تأثير التطور الذي أحدثته النظرية المادية والصراع بين الفكر المسيحي الغربي والفكر التلودي الزاحف .

وقد جاء كتاب الأمير الذي كتبه ميكافيل عام ١٥١٣ بمثابة أفق جديد للتحوّل الخطير الذي خرج به الفكر الغربي للمسيحي إلى آفاق المادية الخالصة وتدمير مختلف القيم الأخلاقية السياسية . بل أن ميكافيل نفسه لم يكن يتصور أن كتابه بعد أربعة قرون سيصبح أنجيلاً لنوع جديد من الحكم ، يحاول أن يفرض مبادئه على العالم^(١) .

فقد رسم ميكافيل صورة الأمير الذي يأخذ طريقه إلى السلطان والملك بوسائل العنف والخيانة والغدر ، من خلال مبادئ عنيفة لا ضمير لها ولا وازع ، تتعارض مع كل المثل الإنسانية والأخلاقية ، وتقوم على أساس الغدر السياسي والاجتماعي .

فالأمير عند ميكافيل ، ليس عليه أن يحفظ العهد إذا كان مثل هذا الوفاء

قد يغتاب ضده ، وليس من الضروري أن يتصرف الأمير بأخلاقه الحسنة ،
ولكنه من الضروري أن يبدو وكأنه متصرف بها .

وليس على الأمير أن يراعى كل الأمور التي يقدره الناس من أجلها ،
لأنه كثيراً ما يرغم لكي يحفظ الدولة أن يتصرف بغير ما يقضى به الأخلاق
والصداقة والإنسانية والدين ، وإذن فمن الضروري أن يكون ذهنه متأنهاً
للمعمل وفقاً لتقلب الرياح . وعنده أن الأمير ليس من الواجب عليه أن يتمسك بعهد
قطعه ، وإذا كان وراء هذا التمسك ضرر قد يصيبه ، أو إذا كانت الأسباب التي
حملته على قطعه أصبحت مفقودة ، ولكن من الضروري أن يستمر هذه الرذيلة
في نفسه ويخفيها عن أعين المراقبين وأن يكون ذمياً عظيماً ومتحلاً خداعاً ،
فالناس في حالة من البساطة والعوز تجهلهم على استعداد ليكونوا دائماً قريسة
لمن يسعى لنفسهم وخديعتهم ، أ. هـ .

* * *

والمذهب السياسي الذي قدمه ميكافيل للفكر الغربي هو : الغاية تبرر
الواسطة وهو الذي يقرر أن الأساس الممين في حكم البلاد الحرة بعد فتحها هو
تخريبها وتدميرها فإن لم يهلكها الفاتح أهلكته . وأن الفاتح الجديد ينبغي له
في أول مرة ، أن يقتزف ما أراد من صنوف القسوة مرة واحدة ، بحيث
لا يحتاج إلى العودة إليها أبداً . وإن على الأمير أن لا يخشى غار المعاييب التي
يصعب عليه بدونها الاحتفاظ بالملك . ويقدم ميكافيل في فلسفته الخطيرة
للحكم والملك خلاصة تجربته ، فيقول : أن تجارب زماننا هذا دلت على أن الأمراء
الذين لم يراعوا اليهود قاموا بأعمال كبيرة وتمسكوا من تحيير أو همام الناس
بمكرهم وتغلبوا في نهاية الأمر على الأمراء الذين اتخذوا الأمانة عادة والوفاء
أساساً لحياتهم ويرسم ميكافيل للأمير أساليب الغدر والإمتحان للأمر على نحو
غاية البشاعة فيقول .

* * *

إن أمام القارئ الذى يروم إحصاء الشعوب رسائل ثلاث :

الأولى أن يدرك صروحها ويزيل معالمها ويجعلها ثراً بعد حين ، الثانية أن يقيم فيها ، والثالثة أن يعطيها حق التمتع بشرائعها ونظمها على أن يتقاضاها الجزية وأن يحمل لنفسه من أهلها ، أقلية ، تظاهر بالوطنية وتكون صلة للحكم بينه وبينها وأداة المحافظة على ولائهم وخضوعهم .

(٢)

كانت الفلسفة السياسية التى رسمها ميكافيلى هى منطلق التحول فى الفكر الغربى للمسيحى إلى مفاهيم العبودية الرومانية القديمة بمفاهيمها ، ولم يلبث هذا الفكر إلا قليلاً حتى أصبح طابع الفكر السياسى الغربى كله حتى يصفها أحد الباحثين فيقول : لم تعد الميكافيلية فى عصرنا منبوذة ، ولكنها تغدو بالعكس حقيقة واقعة تطبقها وتؤمن بها دول عظيمة ،^(١) ذلك أن الفاشية الإيطالية والأنظمة الطاغية المماثلة الأخرى تقوم فى جوهر على الفلسفة الميكافيلية .

وقد اعتبر ميكافيلى البابا أسكندر بورجيا مثله الأعلى وخصه بفصل شائق ، وقد لقي ميكافيلى فى أواخر حياته من التعذيب والتكال أهوالاً شديدة جزاء سياسته ومفاهيمه .

ويرى لوى دى فلنفس فى كتابه نحن وميكافيلى : أن الفاشية هى أعظم تجربة ميكافيلة عرفها التاريخ . أن تكون الدولة كل شيء والفرد لا شيء ، وأن تكون الدولة مصدر كل السلطات والقوانين وأن تطرح كل اعتبار أخلاقى فى نحرى غايتها . وقال أن هذه النظم جميعاً (إيطالية الفاشية وألمانيا النازية وروسيا البلشفية) تقوم على نوع من الزعامة الممثلة فى الطغيان

والاستثمار بكل السلطات وهي تستر وراء فكرة الدولة ولم يبق للفرد اليوم وجود في ظل هذه النظم المطلقة .

(٣)

على هذه المفاهيم التي أذاعها ميكافيل في القرن الخامس عشر قامت السياسة الغربية ورسمت مخططات الإستعمار الذي فرضها على البلاد المختلفة .

وقد جاء الاستعمار حلة تالية للرأسمالية نفسها التي كانت طابع النظام الليبرالي الذي شكله الفكر الغربي ، فقد قام النظام الاقتصادي الغربي في ظل الثورة الصناعية في إنجلترا وأوروبا الغربية ، على أساس الملكية الخاصة لموارد الثروة وعلى أساس الربا ، وقد جاء النظام الليبرالي متكاملاً بين الاقتصاد والاجتماع والفكر على أساس الحرية المطلقة فأصبح النظام المالي هو المسيطر على السياسة وتوجيه التفكير في المجتمع ، والربا هو الوسيلة الرئيسية لنظام التعامل المالي وإثباته عن طريق المقامرة بالأوراق المالية في البورصة ، والإحتكار في الإنتاج الصناعي وكان الاستعمار هو المنطلق الأول للنظام الليبرالي نظراً وعكساً : في استخدام الخفامات من البلاد المحتلة وفي جميع المنتجات إليها وقد أطلق الاستعمار على نفسه اسماً مغايراً لحقيقته وأدعى أمانه خطيرة : هي تمدد الشعوب المنحطة ، وتدريبها على الحكم الذاتي ووصف ذلك بأنه « عبء الرجل الأبيض » واستنتج ذلك طرح نظرية الأجناس العالية التي صنعت الحضارة والأجناس الملوثة .

وقد بدأ الاستعمار في القرن السادس عشر وكان على رأسه الأسبانيون والبرتغاليون ثم تبعهم فرنسا وإنجلترا وهولندا وبلغت مساحة مستعمرات الدول الأوروبية خمسي مساحة اليابسة ، وعدد سكانها نحو ثلث البشر وبدأت فلسفات الاستعمار والعنصرية تأخذ مجراها إلى حمل دعاوى عريضة لتبرير سيطرتها ونفوذها .

(٤)

استلهم الفكر الغربي نظام الديمقراطية اليوناني الذي طبق في أثينا وأسبرطة والذي يعنى حكومة الشعب (ديموس : الشعب . كراتوس : الحكم) أى حكومة الأعلية وارتبطت الديمقراطية بمبدأ سياسى اقتصادى هو مبدأ الفردى الحر الذى يعانى فى تقييد سلطان الدولة ، وقد كان النظام الديمقراطى الغربى هو الأساس الذى أكدته الثورتين الأمريكية والفرنسية ودعمت معالمه وقواعده وهكذا ارتبطت الليبرالية والديمقراطية والاستعمار على نحو من الانحاء من خلال النظام الاقتصادى الرئوى الذى وضع نظامه اليهود وسيطروا به على الحضارة الغربية والفكر الغربى والرأسمالية كما تصورها الموسوعة الميسره هى النظام الاقتصادى الذى يقوم على الملكية الخاصة لماورد الثوره ويطلق المجال لحرىات الأفراد والمشروعات الخاصة ويصير الربح حافزاً أساسياً على التقدم الاقتصادى الاجتماعى . وقد بدأت معالم الرأسمالية فى الظهور على أثر اضمحلال النظام الاقطاعى وتدهور النفوذ الاقتصادى والسياسى للملاك الزراعيين وصعود الطبقة الوسطى إلى مجالات الصناعة والتجارة والمهن الحرة ، وقد تطور النظام الرأسمالى تطوراً بعيد المدى واقترب سياسة الحرية وابتداء الدولة عن التدخل فى الحياة الاقتصادية ، وقد بلغ أوجه فى منتصف القرن التاسع عشر وذلك بتشغيل النساء والأطفال وتكديس الثروات وسوء توزيع الدخل وسيطرة المشروعات الكثيرة التى تتمتع بسلطة احتكارية .

(٥)

والربا نظام قديم عرفه الرومان وقدماء المصريون والعرب فى الجاهلية . وجاء مضاداً لمفاهيم الأديان المنزلة التى حرمتها جميعها تحريماً كاملاً ، والذي تخصصت فيه طوائف اليهود التلموديين مستبجحين آياه فلما جاءت دعوة المسيح تحرم الربا ، كان ذلك من أكبر العوامل التى خلقت معارضة اليهود ومقاومتهم لدعوة المسيحية .

ولقد حرمت الكنيسة من بعد التعامل بالربا ولم تفرق بين الإقراض بفائدة قليلة أو كثيرة، وكانت النتيجة أن انتقلت كل المسائل النقدية المتعلقة بالقروض إلى أيدي اليهود وأصبحوا هم وحدهم المختصين بهذه الحرفة^(١).

وكان اليهود منتشرين في أنحاء البلاد يقومون بإقراض أموالهم بالربا الفاحش ولا يألون جهداً في الكسب، ومن هنا ارتبطت الليبرالية بالربا كما ارتبطت بالاستعمار.

وأصبح النظام الربوي الرأسمالي هو مصدر الانحلال الخلقى فإن المنظمة الربوية لم تكن لتستطيع الاستمرار دون أن تفرض على الفكر الغربي مفاهيم خاصة تحمى قيامها ووجودها، وتمهد لها الطريق وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالدعوة إلى التحلل الأخلاقى للأفراد والأمم، فقد كان النظام الربوي مناهضاً للأديان، والفطرة، وطبائع النفس الانسانية ولذلك فقد استلزم فرضه جهوداً ضخمة لإقراره والدعوة إليه وإغراء العطاء والأمراء والحكومات باعتناقه والتعامل به والوقوع تحت برائته وما تزال قصة الخديو إسماعيل في مصر والشاه إسماعيل في إيران في العصر الحديث مثلاً ضحماً لهذا المخطط الخطير. ومن هنا قامت فلسفات ونظريات فكرية لوضع الربا موضع التقدير والإعجاب واعتباره ضرورة للتقدم الاقتصادى.

ولقد دفع الربويون كثيراً من الكتاب إلى هذا المجال منهم تورجو الفرنسى صاحب كتاب (أقراض النقود) في فرنسا وبوم يورك فى النمسا بما كان له أثره فى تحويل رأى العام وبما حقق هدفهم الخطير فى إجازات الحكومات للربا وقد حاولت هذه الكتابات القول «بشرعية الفائدة»، على أساس القول بأنه رأس المال من الملكية الخاصة، التى يجوز لمن يحرم نفسه من الاستمتاع بها أن يحصل على عوض له وجرت المحاولة لوضع المال فى مكان

الأرض المستأجرة وغير ذلك من الدعاوى الباطلة التي هدمها المنطق الإنساني الصحيح وكشفت الأديان المنزلة عن زيفها. ومن الناحية الأخرى فقد تلبه الكثير من الباشين الغربيين إلى خطر الربا وأثره البعيد في هدم المجتمعات والأمم ومنهم لورد كينس الأستاذ بجامعة كمبردج الذي عزا إلى الربا كل محاذير انهيار الحضارات فقال : من الممكن أن تنسب جميع الآفات الاجتماعية إلى الربا وبقدر ما يزداد مجتمع ما تقدما في المدنية والثقافة فإنه ينقص عنده نصاب الربا في عين المقدار والتناسب بحيث أنه في مجتمع مثالي سيكون المبلغ صفر في المائة ، ولقد ألغى الإسلام الربا إلغاء كاملا وحاربه حرباً عواناً وفرق بينه وبين البيع والتجارة فأحل البيع وحرم الربا .

(٥)

ارتبطت الليبرالية : القائمة على الربا والاستعمار على أساس مفاهيم اجتماعية وفكرية بربا الربا وتنظيمه وتدافع عنه وتعمق الدعوة إليه ، وهي أساساً تدعو إلى هدم القيم والأخلاق والمفاهيم الدينية وطرح نظريات حيوانية الإنسان ومادية الكون والتفسير المادى للتاريخ والترويج لعشرات من المشروعات التي تقوم على إثارة الغرائز الجنسية وإثارة الميل إلى الترف وإنتاج المرفهات والمكائيات ودفع عمليات الإنتاج كلها إلى التوسع في هذا المجال على النحو الذي يفرق المجتمعات ويدفعها دفعا إلى الاقتراض بالربا ومن الحق أن يقال أن الربويون قد سيطروا على الصناعة كلها ودفعوها في طريقين أساسيين هما إنتاج أدوات الحرب وأدوات الترف وذلك لإيقاع الشعوب والأمم تحت سيطرة نفوذ القروض ، واحتوائها أمما وأفرادا في برائن النظام الربوى وسيطرته ، واليهود الذين يملكون الذهب في العالم هم الذين وضعوا مختلف الأنظمة الخاصة بالاقتصاد السياسى والمصارف والسندات والأسهم والبورصات . وقد دفعوا المؤسسات إلى التوسع في الإنتاج لدفعها إلى الاقتراض الربوى وبذلك دفعوا

المصانع والإنتاج جميعاً إلى حالة من حالات الخطر الدائم العام الذين يلوحون به من أن الإنتاج في حاجة إلى تصريف وإلا فإنه يمكن أن تحدث أزمات خطيرة بينما في الإمكان تفادي التوسع في الإنتاج بالاقبال منه ولما كان هدف الربويون هو مزيد من الاقتراض فقد كان الإنتاج العادي لا يؤدي إلى حصولهم على ثمرات ضخمة من الربا ، أما الحرب والترف فإنهما الوسيلتان اللتان تحققان أقصى نسب الربح ، ولذلك فهم يسيطرون على السياسة ويوقعون الصراع بين الدول حتى يضعوها دائماً على حافة الحرب ، ويحرضونها على زيادة التسليح مع تسريب أخبار ذلك إلى الدولة المنافسة لتزداد تسليحاً ومن هنا يظل الإنتاج الحربي يمتص الثروات ويدفع الدول إلى الاقتراض من المرابين السكار الذين تقوقعوا وراء لافقات المصارف الكبرى هرباً من القتل والاعتقال الذي كان يواجهون به في المصور الوسطى من الأمراء والملوك وكل هدف فلسفة الربا وضع المجتمع البشري في حالة من العجز والقصور والحاجة إلى القروض ، من ناحية أو وضعه في حالة من الانهيار الخلق ليكون متقبلاً للترف في مختلف شؤون الطعام والملابس والسكن وإعلاء أدوات الترف والزينة على الضروريات وإعلاء الكماليات الاستهلاكية على المقتنيات الثابتة هذا بالإضافة إلى دفع المجتمع إلى مجال الجلس عن طريق صناعة الأفلام والصحافة الداعرة وتجاهة الرقيق والخمر والمخدرات وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر الساهر .

وتقوم على الانحلال والترف ثمرات الصناعات في العالم التي تمثل الرأسمالية.

(٦)

ولاريب أن عدداً كبيراً من النظريات والفلسفات التي طرحها الفكر الغربي في العصر الحديث إنما كانت هاملاً أساسياً من عوامل تعميق نظام الربا وتدعيمه ودفعه إلى الأمام وخاصة ما يتعلق بالاباحة وإعلاء الجلس وانكار البحث والآخرة . والدعوة إلى اقتناص الرغبات والمنع في صراع مع الموت

والنهاية المحتومة وفي ظل أخطار الحروب النووية ولقد كان النظام الربوى هو منطلق الاستعمار باستقدام الخامات وبيع الصناعات الكبرى وهو الممول للاستعمار ومن هنا كان النظام الربوى أساساً هاماً في تدمير جميع القيم الأخلاقية والانسانية والاجتماعية ومن هنا كانت له أثاره البعيدة في تسخير الشعوب والحكومات والأمم لمصالح أصحاب رؤوس الأموال^(١) وقد ارتبط الاقتصاد العالمى كله بالربا، في ظل نظامى الاقطاع والرأسمالية، وشمل الفلاح فى الأرض والعامل فى المصنع، وسار الربا إلى الأضعاف المضاعفة واستطاع أن يحصل على أرباح تفوق أرباح الزراعة والتجارة ومن هنا برزت ظواهر خطيرة أصبحت فى نظر الفكر الغربى أساساً وقواعد، هى إعلاء شأن الاقتصاد وإعطائه أهمية مبالغ فيها على حساب الكيان الانسانى المتنوع الأغراض فى مجالات الاجتماع والعقائد والحضارة والقانون، ومن هنا استعمل مفهوم الاقتصاد والتفسير المادى للتاريخ وأصبح مؤثراً على القيم كلها التى أصبحت تخضع له وتسير وراءه وبنفوذه وتوجيهه وخاصة فى مجال الأخلاق والتربية وبناء الأمم والأفراد. وبالجمله فقد اتسم الفكر السياسى الغربى كله من خلال كل مفاهيم (الليبرالية — الديمقراطية، الرأسمالية، الاستعمار) بالرغبة فى الحصول على الربا الفاحش.

ومن خلال هذه المفاهيم أصبح الإنسان خاضعاً للآلة، أو ترسا فى الآلة.

(٧)

وقد حاولت الليبرالية فرض مفاهيمها وقيمتها على مختلف الشعوب التى

(١) التصور الإسلامى — الإنسان بين المادية والروحانية.

وقعت تحت سيطرة الاستعمار كمنهج فسكر وحياة ، يستهدف اقضاء مناهج هذه الأمم ومقوماتها الاصلية عن مجال العمل السياسى والاجتماعى ، واتخذ لذلك من التبشير والاستشراق وحركة التغريب وسائل لاثارة الشبهات حول القيم الاساسية لهذه الأمم وخاصة في العالم الاسلامى حيث يشكل الاسلام منهج الحياة والفكر الاساسى لهذه الأمم ومنه تستمد مقومات مجتمعيها ونظام حياتها وقد جاء هذا العمل من مطلق واضح للاستعمار من حيث يريد إبقاء سيطرته على هذه المناطق واستنزاف خيرات هذه الأمم ، وإيماناً بأن أمة القرآن لن تستكين أو تستذل أو تقبل الضيم مهما كانت في حالة من الضعف أو التخلف ، ولذلك فقد كان الاستعمار حريصاً على أن يريف مقومات هذه الأمم، ومثيراً للشبهات حول فكريها وقيميها ، ودافعها بها عن طريق أساليب كثيرة إلى الانتماء لفكره والانطواء في حضارته جاريأ على خطة احتواء الفكر والأمم وإذابتها في بوتقة الاممية والحضارة العالمية . وكان هدف الاستعمار الاساسى هو استمرار سيطرته على العالم الاسلامى بالاستعمار الفكرى والنقوذ الاقتصادى بعد الاحتلال العسكري ، وقد جرى في ذلك على خطط عديدة كان أقسامها عمليات الاستيطان التى تقوم على تهجير أجناس مختلفة وإحلالهم محل السكان الاصليين وطرد السكان الاصليين أو إبادتهم وتغيير نوعية الأمم وأجناسها هذا بالإضافة إلى استغلال الموارد ثم تطور هذا المنهج حين سقط نفوذ بعض الامبراطوريات وقام نفوذ جديد بهدف وراثه الامبراطوريات القديمة وقيام المناهج الجديدة على أساس الاستعمار الاقتصادى والعكرى . وكان لانقسام العالم بين الرأسمالية الغربية والماركسية الشيوعية ومن وراءهما نفوذ الصهيونية العالمية الخطير الذى يحتوى النظامين ويحركهما المصلحته ويضرب بعضهما ببعض ، ويعتصر الأمم المختلفة والشعوب بين ذفتيها . وفي خلال هذه المرحلة الاخيرة تعمق مفهوم الرأسمالية

والاستعمار إلى حد السيطرة شبه الكاملة على الدول النامية عن طريق المنح والقروض وتصدير رؤوس الأموال الأجنبية مع خفض أسعار منتجاتها من الخامات وبالتالي إلى خفض مستوى المعيشة فيها وزيادة العجز المالي في ميزانياتها وفي ظل هذا النظام تحولت المنافسة الاقتصادية إلى احتكارات لا تخدم سوى مصالح الدول الرأسمالية الكبرى ، وهذا هو ما يطاق عليه « الامبريالية » .

الفصل الثالث

الفلسفة البرجمانية

تمثل الفلسفة البرجمانية الامتداد الطبيعي للفلسفة السياسية الغربية، مرتبطة بالمجتمع الأمريكي، الذي تشكل في القرن السادس عشر من المهاجرين الأوربيين.

والفلسفة البرجمانية: هي فلسفة سياسية اجتماعية تشق طريقها في المجتمع من خلال الفلسفة المادية أصلاً ومن خلال الفلسفات التي تشكلت من خلال الإعلاء بالقوة وامتياز العنصر الأبيض على النحور الذي ساقه ينتشه ومن جاءوا بعده، فهي تقول بأن الحق للقوة، ولا تؤمن بمساواة الضعف العاجز في الحقوق التي للقوى المتمكن. ويرى شارل بيرنز: أحدهم وسمى الفلسفة البرجمانية أن القضاء على الضعف وسيلة جوهرية من وسائل التقدم والرقى، وترى هذه الفلسفة أن احترام الوالدين مثلاً نظام لا تقره الثقافة البرجمانية.

وتقوم الفلسفة البرجمانية على أساس المستوى والمكانة بالدخل المادي وبمسبة النجاح الذي يصيبه المرأ بغض النظر عن الوسائل التي حققها وتعد البرجمانية مسئولية عن رواج أدب اللذة والمجون في أمريكا وسيطرته على الفكر كله. ولما كانت الفلسفة البرجمانية هي نتاج الفكر الصهيوني اليهودي التلودي طرحت أساساً لتشكيل الثقافة والذوق والمزاج النفسى للمجتمع الأمريكى على أساس مستقبل الطموح الصهيوني ودعوته العريضة إلى السيطرة العالمية، فقد قامت البرجمانية على أساس أشد وثاقة بالإلحاد والإباحة من الفكر الغربى نفسه، الذي كانت الفلسفة المسيحية الغربية وخاصة الكاثوليكية، ما تزال تؤثر (٢٠ - الأبدلوجيات والفلسفة)

فيه فالبرجماتية « تعارض الدين والعقائد وتنكر الثبات والخلود واللاهائية وتعارض القانون الأخلاقي وترى أن السلوك الخلقى شيء آخر غير الآداب الاجتماعية القائمة على الدين وأنه يمكن أن يكون المجتمع منظماً دون أن تكون روحه خلقه ، ولا ريب أن هذه هي صميم الأسس التي يقوم عليها الفكر اليهودى التلودى ومنها انبعثت الفلسفة الماسونية والفكرة الصهيونية كما تقوم البرجماتية على « فصل الدين عن التربية ، وهى تخضع كل شيء للعمل ، فالتفكير خاضع للإرادة ، والحقيقة خاضعة للعمل ، ومقياس الحقيقة هو صلاحيتها للعمل ، والمعرفة نوع من العمل ، وهى تنكر وجود القيم النهائية والمطلقة الذاتية التى تقول بها المثالية القائمة على أن هذه القيم صور من طبيعة الوجود كالحق والجمال ، و « سيكولوجية البرجماتية فى اعتمادها على التعبير البيولوجى للحياة فقد اعتمدت على أشياء لم تثبت صحتها بعد ، » (١) . وتمثل الفلسفة البرجماتية من خلال وليم جيمس وجون ديوى وقد دعا وليم جيمس إلى الإيمان بالواقع الحسى المدبوس . والعمل عنده مقدم على المعرفة ويرى أن المشاهر تنبع من الجسد وليست النفس مصدر المشاهر .

دعا جون ديوى إلى فصل الدين عن التربية ودعا إلى تطبيق المنهج التجريبى على أمور الدين والأخلاق والاجتماع . ويرى وليم جيمس أن الحقائق إنما هى وسائل لفهم الدنيا . يقول سلامه موسى : ليست الأخلاق عند ديوى شيئاً مطلقاً ، وليست هناك - أى عنده - أخلاق مثلى دائمة ، وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدى إلى تغيرات أخلاقية ، ويرى جون ديوى أن المعرفة إله ووظيفة فى خدمة مطالب الحياة .

الباب الثالث

الفلسفة العنصرية (فلسفة الاستعمار والأجناس)

(الباب الأول) : فلسفة الاستعمار .

(الباب الثاني) : فلسفة الأجناس .

١ - تقييم النظرية ونقدها .

٢ - معارضة نمو الجنس غير الأبيض .

٣ - الإسلام ووحدة الجنس البشري .

(الحق) ضوء من الإسلام .

الفصل الأول

فلسفة الاستعمار

يمكن القول بأن الفكر الغربي من خلال مفاهيم الليبرالية القائمة على الاستعمار قد استحدث مفهوماً فلسفياً لتبرير هذا الاتجاه الخطير الذي ارتبط بالحضارة الغربية واختلف في طريقته عن الامبراطورية الرومانية وإن لم يختلف في أصوله ومنطلقه .

ويصور هذا الاتجاه جان بول رو في عبارة واضحة : « كان الرومان يقولون : في العالم فئتان : نحن والبرابرة ، لقد تغيرت العبارة وأصبحت أقل فظاظة ، ولكنها لا تزال أقل وضوحاً ، أما معناها فهو هو : الغرب هو مثل كل شيء وطننا . البرابرة في نظرنا أو الشرق ، هو كل آسيا وكل إفريقيا ، وتقوم الفلسفة الاستعمارية على دھوى . حملها عدد من الكتاب والفلاسفة تصف الاستعمار بأنه رسالة عالمية مقدسة : هي رسالة المدنية والحضارة ، وأن الفتح والغزو ليس غاية بل وسيلة لإعلاء شأن البشرية والسمو بها ، في آفاق العزة والحرية والكرامة وقد نشأت دراسات فلسفية مستفيضة حول مفهوم الاستعمار (Colonisation) وأبرز الخطوط التي تقوم عليها هي أن هناك أقوام من أصول عليها أقوام من أصول دنيا وإن من حق الأقوام العليا أن تحكم وتسيطر وقد أطلق على هذه النظرية اسم (تعدد الملشأ) وقد أطلقوا على حملات المبشرين اسم الاستكشاف والوصول إلى المناطق المحمولة في أفريقيا وآسيا كما أطلقت على الاستعمار اسم التجارة وأطلقت على الاحتلال اسم الانتداب والوصاية

وقد أثبتت الوقائع فساد هذا التصور الفلسفي كله وأكدت أنه لم يمكن إلا ستاراً
لحملة ضاربة من حملات القتل والاستقلال والسيطرة .

يقولوا كانتول سميث : وقف الغرب يوجه كل أسلحته الحربية العلمية
والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بغرض إذلاله وتحقيره
وإشعاره بالضعف والخنوع وقد عمد الاستعمار إلى ربط الاستعمار العسكري
والسياسي بالاستعمار الثقافي والحضاري ، وبدأ الاستعمار أولاً باسم التجارة ثم
تحول إلى الفتح والغزو أو انتزاع الأرض من سكان والاستيطان وتهجير
الأجانب وقام الاستعمار أساساً على توظيف ذهب أوروبا الذي طفحت به
خزائن بنوكها في أواخر القرن الماضي وفتح الأسواق لمنتجات الترف الغربية
التي تدر قناطير الذهب على الرأسماليين والمرايين كما اتجه أساساً إلى اقراض
الأمراء وحكوماتهم لتسكيلهم بالنفوذ الغربي ، وعمد في نفس الوقت إلى
السيطرة بالامتياز على استثمار المناجم وأبار البترول وإقراض الفلاحين بالربا
الفاحش وتسخير مواد البلاد لصالح المرايين مع الوقوف في وجه أى تصنيع .
والعمل على أن تظل البلاد أسواقاً مضمونة لتصريف منتجات لانكشير
وبورشكير وإيون وباريس ولندن وفرنسا وقد عمد الاستعمار إلى إدخال قوى
عددية في كثير من المناطق لإضعاف نسبة سكانها الأصليين ، وقسم البلاد إلى
دويلات صغيرة وفرض المعاهدات ذات المواد الناقصة وذلك كله من أجل
تعميق النفوذ الاستعماري .

كما رافقت الاستعمار أساليب من المظالم القاسية التي كانت تصل إلى درجة
الإبادة بالجملة . وتهجير عدد ضخم من الأيدي العاملة لإدارة المرافق ومثال
ذلك مافله المهاجرون الأمريكيون الذين عملوا على إبادة أصحاب البلاد الأصليين
من الهنود الحمر ليحلوا محلهم في أرض القارة ثم استقدموا بضعة ملايين من
زنوج أفريقيا عن طريق القسر والسيطرة ليستخدموهم عبيد في تعمير الأرض

في القارة الجديدة وقد حاول كثير من الكتاب الغربيين أن يصوروا الأجناس الملونة بأنها ليست في عداد البشرية ، وقد وصلت هذه الفكرة الى أعلى مداها في عبارة مونتسكيو في كتابة روح القوانين حين قال . « إن لنا حقاً مكتسباً في أخذ الزوج خدماً وعبداً فها هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قسة الرأس إلى أخمص القدم ولا يمكن أن تتصور أن الله وهو ذو حكمة يضع روحاً طيبة في مثل هذا الجسم الأسود ، كما ظهرت نظرية تعدد المناشىء للأقوام وقال الأوروبيون أن أهل البلاد المستعمرة ليسوا من بني نوعنا . وقد قامت فلسفة الاستعمار على النظام الربوي والمغامرة والتجارة ، واعتبرت أساساً في صلب الحضارة الرأسمالية ، وأطلقت رؤوس الأموال والاحتكارات وأقامت أنظمة الكارتل والترست وغيرها من صور الاحتكار والرهون وبيع الأراضي . وفي مصر وحدها تجربة واضحة خلال عصر إسماعيل في الاقتراض الربوي وما انتهى به إلى الاحتلال البريطاني ، ثم كيف أمكن أن تقع تلك الأراضي المصرية في أيدي المراهبين خلال عشر سنوات من الاحتلال عن طريق القروض والفوائد مما أكد بحق قول القائل بأن الرأسمالية أهلى مراحل الاستعمار .

وقد أشار كتاب بنوك وياشوات وغيره من الأبحاث إلى الامتيازات التي منحتها الدولة الثانية منذ عام ١٥٢٥ للقناصل الفرنسيين والانجليزين وما اتصل بذلك بنظام المضاربات والبورصة وما أدى إليه من مشاريع الرهن والبيع القسري وسرقة أموال البلاد وتهريبها إلى الخارج في حقائب الدبلوماسية لحساب أصحاب البنوك والمراهبين والتجار .

وقد بلغت نسبة الربا في هذه القروض التي حصل عليها الثراء والحكومات إلى الثلث أو يزيد من المبلغ المقرض ، وقد أشار جوستاف لوبون إلى ذلك حين قال : إن الحيل التجارية التي كانت تتم بوقاحة تدل على ضعف الطلاب لدى

رجالنا المتمدنين ، هذا بالإضافة إلى الأموال المهربة إلى الحدود والجزر والبحار والمحسوبة من الغنائم أو التعويضات ، وقد صور نابليون مفهوم الاستعمار حين قال عبارته التاريخية عند احتلال مصر ، علينا أن ننقض كاللصوص على لصوص أقل مناجرة لنصبح المسيطرين على طريق الهند ، . وكان معنى هذا هو تعميق الأسلوب الذي خطه ميكافيل في إنسكار القيمة الخلقية في السياسة . وقد صور لوروب استوارد هذا المعنى حين قال في كتابه حاضر العالم الإسلامي : إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث الفظاعة والخطورة والمضى والمحال فما كان لليونان ورومة من قبل من السيطرة المحدودة على بعض من العالم لا يعد بالإضافة إلى السيطرة الغرب شيئاً مذكوراً ، . وقد عمد الاستعمار في سبيل تركيز وجوده إلى عمل خطر في مجال الفكر ، في العالم الإسلامي وهو محاولة تزييف القيم الإسلامية وإحلال مفاهيم مضللة بدلا منها ، كما عمد إلى إحياء العادات القديمة والأعراف الجاهلية والحضارات البائدة لغزل الأمم عن الإسلام ، وما زال دهاء الغرب يعملون على دفع المسلمين لكي يتنازلوا عن القيم الرئيسية في عقيدتهم وفكرهم وأن يبدلوهمها بمفاهيم أخرى من شأنها أن تدمر كياناتهم وتحول بينهم وبين المقاومة وتدفعهم دفناً في مجال الاحتواء والانصهار في الفكر الأثني ، ومن الحق أن نقول أن الأوربي لم يقد إلى الشرق كمعدن بل المستعمر وأن المسلمين لم يتوقفوا عن مناهضة الاستعمار ومقاومته ومجاهدته بكل الأساليب والوسائل دون توقف ، بقوة السلاح وبالأجساد المتراصة وبالرفض والمعارضة ولم يستطع الاستعمار الانتصار عليهم بأى قوة من القوى المادية بل انتصر عليهم بالخدعة والمؤامرة .

الفصل الثاني

فلسفة الأجناس

(نظرية العنصرية)

لم تكن الفلسفة العنصرية من نتاج « النظام السياسي الغربي والاستعمار » وحده ولكنها كانت دعامة أساسية في الفكر اليهودي التلودي الزائف المسيطر على الفكر الغربي ، والفكر البشري كله .

ذلك أن العنصرية هي أكبر ثمار الانحراف الخطير الذي إنتقلت به اليهودية من مفهوم الأديان المنزلة في طريق الفكر الإنساني إلى مفهوم التسايط والسيطرة عن طريق خلق مفهوم يقوم على الشعب المختار المتميز الموعود بلبوء الأرض الموهودة وهي الامبراطورية اليهودية العالمية .

ومن هنا فقد كانت الفلسفة العنصرية القائمة على الأجناس والدماء والوفاة من أكبر الدعوات التي طرحها عصر التنوير وما بعده في مواجهة روابط الدين والفكر والوحدات السياسية الكبرى التي ربطتها عوامل مختلفة ، ولكن من نتائجها سقوط كثير من الامبراطوريات والدول الكبرى وقيام وحدات إقليمية على أساس اللغات والأجناس تعلى من شأن أعراقها وتتصارع ثم تتقاتل وتظل على عداوة دائمة يحول دون التقاء الأمم في مجموعات كثيرة لمصلحة أهداف اليهودية التلودية .

و تشير كثير من المصادر إلى أن الفكر اليهودي التلمودي الزاحف على الفكر المسيحي الغربي، قد أنشأ أكثر من محور للصراع والتضارب بين الأمم والشعوب وأنه غذى فكرة العنصرية وأقام دعوى الآرية والسامية لتزويق أوروبا عنصرياً، كما طرح فكرة التفسير المادى للتاريخ لتقسيم أوروبا والعالم كله عقائدياً بين الرأسمالية والماركسية. وأنه يستهدف من وراء تحريك هذه الدعوات وإثارة الخلاف بينها إلى هدم القوى الاجتماعية والفكرية جميعاً تمهيداً لسيطرته الكاملة على الفكر البشرى.

(٢)

أبرز الدعوة إلى العنصرية: جوينزورينان ومن هجب أنهما هما فرنسيين قد دعيا إلى إعلاء الجنس الآرى (الألماني) ثم اتسعت الدعوة إلى الأجناس من حد وشملت الجنس الأيضى كله الذى عد فى قسط الباحثين هو الجنس الآرى، فى مقابل الجنس السامى الذى يمثل الأجناس الملونة. وارتبطت الدعوة بالاستعمار الاستعماري فى نفس الوقت الذى أصبحت فى نظر الألمان (الجرمان) دعوة إلى الامتياز بالسيادة والحرية.

وفى ما قبل هذه الدعوة كان المفكرون الألمان (وعلى رأسهم هررد وجوته ونوفاليس) يسمفون آراء القائلين بالفرقة بين الأجناس البيضاء والصفراء والسوداء، ولا ريب أن جوينزورينان كانوا على صلة ضخمة بالاستشراق ومن وراءه بالماسونية ولها كتابات عن اليهود وتاريخهم.

وبالرغم من فساد نظرية الأجناس وظهور أبحاث علمية متعددة تدحضها تماماً فقد استغللت هذه النظرية استغلالاً واسعاً وأصبحت من بعد خطراً من أشد أخطار الفكر السياسى والاجتماعى ومن أبعد الدعوات أثراً فى المجتمع الغربى والمجتمعات الإسلامية على السواء. وليس مرد هذه التحولات الخطيرة التى حدثت نتيجة الدعوات إلى الأجناس إلى مدى أهمية الدعوة نفسها أو قيمتها

العلمية - فقد ثبت بأكبر من دليل زيفها واضطرابها - ولكن بالقوى الخطيرة التي ساندتها ودفعتم إلى الأمام ، وفتحت أمامها آفاق البحث وصبغت بها الدراسات الاجتماعية والسياسية ، ثم إلى الأثر الذي كان للاستعمار والاستشراق في فرضها على الأمم والشعوب ، وإغرائها باعتمادها .

وقد ثبت أن كل الدعاة إلى الطورانية في الدولة العثمانية كانوا من اليهود والدونمة وأن الذين حملوا لواء الدعوة إلى الانفصال بين الترك والعرب وإعلاء الدعوة التركية وردّها إلى أعماق التاريخ القديم السابق للإسلام إنما كانوا من المستشرقين واليهود ودعاة من خارج الدولة العثمانية نفسها .

(٣)

يقول لوثروب ستوارد في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) إن العصية الجذسية هي التيار العجيب الذي بدأ في أوروبا ثم أخذ ينتشر في الأرض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة في الشرق والغرب ، وفي نحو مئتي القرن التاسع عشر تجاوزت العصية الجذسية حدود أوروبا وبلغت الأقطار الإسلامية وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً فنشأت حركة تركيا الفتاة ، وإيران الفتاة ، وحركات وطنية أخرى في أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزائر ومصر والهند ، ثم نشأت الجامعة الطورانية ، والجامعة العربية .

ويمكن أن يقال استكمالاً لذلك تلك النزعات الإقليمية والقومية الضيقة التي انتشرت في العالم الإسلامي والأمة العربية ، والتي قامت على إحياء الماضي القديم السابق للإسلام كالفرهونية والباباية والاشورية وكانت الفينيقية أقوى هذه الدعوات وأعظمها وما تزال آثارها قوية فاعلة .

(٤)

غير أن نزعة الجنس والعناصر قد مرت في الغرب بتاريخ طويل قبل أن

تصل إلى العالم الإسلامي ، وكانت مقدمة لدعوة خطيرة هي القومية اليهودية التي تمطخ بالصيغة الصهيونية وتعل شأن الجنس اليهودي والدعوى إلى فرض تاريخ قديم اندثر منذ ألفي عام وإحياء لغة وجنس استمدا من عناصر أخرى من شعب الخزر وليست هي العناصر اليهودية الأصلية التي عاشت في المنطقة العربية وذابت فيها وانصهرت في داخلها .

(٥)

يرد كثير من الباحثين أول مدخل لكلمة الآرية في الفكر الأوروبي الحديث للمستشرق الانجليزي سير ويليام جونز الذي درس اللغة السنسكريتية وغيرها من اللغات الهندية المقاربة لها ، أيام كان قاضياً في الهند وترجم منها الانجليزية وأشار إلى التشابه بينها وبين كثير من اللغات الأوروبية ، كان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد تابع العلماء أبحاثه وتبين لهم تقارب اللغات السنسكريتية والقهلوية والأرميلية واللاتينية والاعريقية والتيوتونية والسلافية وغيرها وسميت هذه اللغات بالآرية ثم سرى الاسم بالمجاز إلى الأمم التي تتكلمها .

ومن ثم انتشرت فكرة الآرية في ممالك أوروبا ، فكتب الكونت جوزيف دي جوبليو رسالة عن عدم تساوى الأجناس البشرية ، ونادى بتفوق الجنس الآري وكتب مواطنه (لا بوج) كتاب (الآري) فكان أشد إيغالا في الوهم والتعصب وتأثر بالفكرة من أدباء إنجلترا توماس كارليل ، غير أن العلم لم يلبث أن رفض هذه النظرية ودحها بما لم يبق بعد إثارة للشك إذ لم يبق دليل على أن (آريا) هي منشأ الشعوب التي تتكلم هذه اللغات المتشابهة ولا على أن تلك الشعوب ترجع إلى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات على تشابهها تفرعت عن لغة أصيلة واحدة .

ثم جاء رينان فأوغل في التعصب واستمد من الخلاف اللغوي خلافاً عنصرياً وأعلن أن الجنس السامي أدنى من الجنس الآري إذا قورن به ، وكان ذلك خدمة

الاستعمار والنفوذ الاجنبي، وليس أدل على انحيازه أنه اعتبر التوحيد الذي عرفه العرب نقيضه، وقال د التوحيد هو أم خصائصهم وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم، ففخر الساميين في كونهم أول من عرف التوحيد وعندهم أخذ العالم البيانات، ثم عاد يقول أن ميل الساميين إلى التوحيد هو الذي يفسر أنهم لم يكونوا من أصحاب الميثولوجيا، مثل الآريين، كما أنهم العقلة السامية بنقض عقل هو عجزها عن الفكر الفلسفي .

وقال : إن الساميون تنقصهم الدهشة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء . . .

ويبدو من نبرة رينان طابع الاستعلاء بالآريه الانتقاص للشرق لأنه مصدر الأديان ولأنه حامل لواء التوحيد .

* * *

(٦)

يعتبر الباحثون أرثر دى جويندو (١٨١٦ - ١٨٨٢) أول من وضع أصول القومية الحديثة القائمة على الدماء والأعراق فقد كان مقاله عن التفاوت بين الأجناس البشرية مقدمة خطيرة لهذه الدعوة .

قال : إن الدم ذو أهمية عظيمة وأن الناس يتفاوتون في العنصرية، وأن الحضارة لا يمكن أن تستقل من شعب إلى شعب ولذلك فإن الأجناس الحاضرة لا يمكن أن تسمو إلى مستوى رفيع، ، وقال : إن الشعب الألماني هو الشعب المختار إذ العنصرية عنصرية مرهونة ببقاء الدم .

ودعا جوينو إلى عبادة الأسلاف باعتباره الوسيلة الأساسية للحفاظ على بقاء الأجناس الراقية وتمكينها من الاضطلاع برسالتهما في نهضة العالم .

وإذا كان رينان قد تابع جونيرو ، فإن عدداً من الأدباء والفنانين الألمان لم يلبثوا أن حملوا لواء هذه الدعوة من أمثال نيتشه وفاجنر ومهدوا بذلك للخطوة التي جاءت بعد الحرب العالمية الأولى .

(٧)

ومن هنا نشأت الفكرة العنصرية في ألمانيا من خلال أفكار جوينو وعدد من الباحثين الذين نموها من بعده (فاشير دى لا بوج وهوستون تشمبرلين) الذين أجمعوا على أن الجنس الآرى النورديكى هو أرقى جنس وهو الذى خلق المدنية وجرت بعد ذلك محاولات لايجاد البرهان الانثربولوجى على أن الحضارة الأوربية حتى في البلدان اللاتينية والعقلية هي غرس يد المجلس الجرماني ، ويرجع هذا القول إلى سنة ١٩٠٥ .

وقد بلغت هذه الدعوة مداها من بعد الحرب العالمية الأولى حيث بلغت العنصرية أعلى ذراها في القول أن المجلس الآرى هو سيد هذا العالم ، وهو الموكل دون الناس جميعاً بحمل أمانة الحضارة .

وقد وصل أدواف هتلر إلى غايات بعيدة في اعلاء المجلس الجرماني حين قال أن كل ما تراه من الحضارات البشرية يمت بأصل إلى ثمرة النشاط الآرى الخلاق فقد كان الآرى ولم يزل حامل المشعل الإلهي الذى يبين الطريق أمام البشرية ، فشرارة العبقورية الإلهية في جبينه المشرق ، وهو الذى فتح دروب المعرفة أمام الانسان ليجعل منه سيد الكائنات الحية على هذه الأرض فاذا توارى فسيسود الظلام وتنهار الحضارة .

يقول فيشر : تقوم فلسفة النازى على وجهة النظر التي نالت تجميع فاجنر ونيتشه وتأيدهما أو التي بشر بها تشمبرلين قبل الحرب العظمى ، وهو أن الجنس

عماد كل شيء. وأن روائع العالم المجيدة تمت جميعها على أيدي الجنس الآري
وقال - أي تشمبرلين - بأن المسيح ودانتى وتوماس أكويناس كانوا بلا
ريب آريين، وأن القوط الذين انحدروا من نفس هذا الجنس التيوتوني صنعوا
لتقدم الحضارة أكبر مما صنعة الرومان، ويعتقد تشمبرلين أن الجنس الانجلو
ساكسونى قد قدر له أن يكون القوة المسيطرة في تاريخ العالم ومدنيته ،
وكان كبلنج الشاعر على هذا رأى .

وقد حملت أوروبا هذا المفهوم ونمته وعمقته لتجعل منه تبريراً للاستعمار .
ومحاولة إيجاد سند فلسفى للتسلط والسيطرة على البلاد المستعمرة وقد أطلق عليه
هونسون في كتابه الأمبريالية ، الحق الالهى فى القوة ، .

وقد قام مفهوم الاستعلاء العنصرى أساساً مستمداً من فكرة الانتخاب
الطبيعى فى الفلسفة الداروينية ، وقد حاول دعاة العنصرية أن يشبهوا الصراع
بين أجناس البشر بالصراع بين أجناس الحيوان وفق قانون طبيعى يستحق القوى
فيه الضعيف وقد اتخذ الاستعمار منطلقه من القول بأن السعادة لا تكون إلا
للأقوياء وأن الجنس الأبيض بميزته العنصرية هو صاحب الحق فى السيطرة
على العالم بدعوى الوصاية من أجل المدنية أو مهمة الرجل الأبيض
وكأنما جاء حق الأجناس فى العصر الحديث بديلاً لحق الملوك فى العصور
الوسطى (١) .

ومن الحق أن يقال أن نظرية سيادة الأجناس لم تكن مستحدثة فى العصور
الآخيرة وإن كانت لها جذور قديمة فى الفكر اليونانى والامبراطورية الرومانية
ومن أبرز من دعا إليها (أرسطو) الذى برر طموح الإغريق لسيادة العالم

(١) تاريخ أوروبا فى العصر الحديث لفيلسوف عن كتاب: جوانب من قضايا الأمة العربية:

فنادى بأن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد لى تكون صيداً .
وكان الفرس يعتقدون هذا الاعتقاد .

ويقول جوان توماس فى كتابه الأجناس : أن العبودية تحولت منذ
الانقلاب الصناعى فى أوربا فى بداية القرن التاسع عشر إلى نظام مقدس ،
وأنة فى سبيل تأكيد هذا النظام والدفاع عنه ابتكر المفكرون هؤلاء
الاجتماع أسطورة شبه علمية لتبرير حالة مناقضة للمعتقدات الديمقراطية .

ويقول جوان توماس أنه ليس هناك أى أساس علمى لتصنيف المجتمعات
تصنيفاً عاماً هللى أساس من الرقى النسبى .

(٨)

أن طرح الفكر البشرى لفلسفة الأجناس والعنصرية كان يعيد الأثر فى
المجتمع الغربى ، كما مد آثاره إلى المجتمع الإسلامى فأحدث به أبعد الأثر . وقد
اصطبغت فكرة الأجناس والعنصرية بصورة شتى منها القومية والإقليمية .

ويرى هانس كهن : أن البروتستانتية هى مصدر الحركة القومية
الأوربية :

يقول : كانت البروتستانتية فى الأصل حركة دينية عالمية ، شأنها فى ذلك
شأن الكاثوليكية ، ولكن حقيقة وجودها قضت على فكرة العالمية الدينية
التي سادت العصور الوسطى ، إذ أن مطالبها يرجع الفرد إلى ضميره هيا الأسباب
لتعدد الفرق والمذاهب الدينية ، كما أن مطالبها بوجوب تلاوة الكتاب المقدس
ووجوب الموعظة كركن أساسى من أركان العبادة شذمن أزر اللغات الوطنية .
ثم أن ترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغات رفع من شأنها . لقد كانت هذه
الترجمة نقطة البداية التي انطلقت منها اللغات فى الآداب القومية فى طريق التطور
والرقى ، وبالجمله فان هانس كهن يرى أن حركة الإصلاح الدينى ساعدت على

تعدد المذاهب الدينية واللغات القومية في العصور الحديثة وتقرر أن الثورة الفرنسية التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام ألقت بأوروبا في أنوار حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أى حرب مضت منذ عهد الحروب الدينية ، وإنه نتيجة لها قد ظهرت الزعامات القومية لأول مرة في أيرلندا وروسيا وأسبانيا وإيطاليا والنرويج .

* * *

ويقول إنه لما كانت الثورة الفرنسية هي ثمرة المخططات التي طرحها اليهودية التلودية في الفلسفة الماسونية عرفنا إلى أى هدف كانت تجرى الأمور .

حتى ليصف بعض المؤرخين هذا العصر (بعصر القوميات المشتم في أوروبا) وإنه كان تهدف إلى العمل على انهيار الكنيسة اللاتينية ، فلما فقدت النصرانية سلطانها على النفوس كانت خطوة الأجناس والعنصرية باسم القوميات هي البديل الدناق فقد دفعت القوميات أوروبا إلى الحرب والصراع بين لا تيلية وأنجلو سكسونية ، وسلافية وجرمانية وآرية وسامية وطورانية وبلغانية واشتعلت بينها نيران الاستعلاء ، وكانت اليهودية التلودية وراء أسطورة الدم والمخططات السلالات والتميز العنصري لتطرح دعوى تفوق الجنس اليهودي على أوسع نطاق وابتكار حملة اللاسامية لضرب كل القوى المعارضة للاتجاه اليهودي التلودي الذي كان نواة الصهيونية العالمية .

* * *

وقد كان للدعوة العنصرية أثرها في استعلاء اللهجات الإقليمية التي أصبحت لغات موحدة أخذت تحمل محل اللاتينية ، وأصبحت فكرة الدولة القومية بديلاً للجمع الإمبراطوري ، ونهاية المثل الأعلى لعالم مسيحي واحد تتمثل (م ٦ - الإيديولوجيات والفلسفة)

وحدته في سلطة الكنيسة الروحية وقيام مثل أعلى جديد قوامه الدولة القومية . ومن ثم استقرت فكرة الوطنية ، لتكون مقابلاً للحق الإلهي للملك ورداً على سلطة أمراء الاقطاع ، ومن ثم أصبح الحكم هلمانياً وليس ديلياً ، وقد ظهر ذلك بوضوح في كتابات لوك وهوبز ، ومن قبل في العقد الاجتماعي لجان جاك روسو .

.....

ولقد وضعت بعض الأبحاث : دعوة العنصرية والأجناس بأنها الثورة العالمية ، انطلاقاً من أن اليهودية التلمودية هي التي دفعت القومية إلى أعلى ذراها لإسقاط الكنيسة وتحرير اليهود . كما جرت الأبحاث للفرقة بين العنصرية والأجناس *Racialism* وبين القومية *nationalism* .

ويرى بعض العلماء الألمان إن الجليسية هي الفارق بين شعب وسعب ، ومن هنا فقد قسموا أوربا إلى صقالبة وتوتون ولاتين . وقد صادم هذه النظرية وطارضها حقيقة أساسية هي إنه ليس في العالم أمة مجبولة من عنصر واحد ، وإنه لم يتح لعنصر واحد أن يضم في أمة واحدة كل الشعوب التي أصلها إليه .

وجرى البحث عن التعارض بين القومية والعنصرية ومن ثم خلت الفوارق العنصرية أو الجنسية محل الفوارق الديلية ، وقلم الصراع بين الأجناس والأديان .

(٩)

الجنس الأبيض والأجناس الملونة

تركزت الدعوة إلى العنصرية والأجناس عدة أهداف أساسية :
الأول : إعلاء الجنس الأبيض في محاولة لتبرير استعمار الأوربيين للأجناس الملونة في أفريقيا وآسيا .

الثاني : إثارة الدعوى إلى الأجتناس لإحلالها محل الأديان ولخلق صراع بين الأجتناس المختلفة ولهدف أكبر من ذلك هو الدعوة إلى خلق فكرة المجلس اليهودى .

الثالث : محاولة تمزيق الوحدة التى فرضها الدين أو المذهب ومحاولة تمزيق أوروبا للمرة الثانية بعد أن مزقها صراع الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية وإخراج أوروبا من الوحدة الدينية كلية .

* * *

ولقد انطلقت الدعوة إلى العنصرية من نظرية دارون كما انطلقت النظرية المادية ، ونظرية التطور ، واعتمدت على فرضية دارون القائلة بأن « البقاء للإصلح » ، فاعتبرت قضية تؤيد الاستعمار والتوسع وتبرر العدوان والسيطرة للشعوب المختلفة .

« اعتقد الأبيض إن استعباد أو إفناء المجموعات البشرية المنحطة بواسطة الرصاص الأوربى ليس إلا تنفيذاً للنظرية استبدال مجتمعات راقية بأخرى منحطة » ، بل إن سيادة الرجل الأبيض وجدت تبريراً مما هو أبعد فى التاريخ من نظرية دارون . فقد اعتمدت ما أورده أرسطو من إعلاء الجنس الإغريقى والدعوة إلى أنه سيد العالم وإليه زعامته . وقوله إن هناك جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد عبيداً ، وقد تجددت هذه النظرية مرة أخرى فى القرن الخامس عشر مع انطلاق حركات الاستعمار من قلب أوروبا لتطويق عالم الإسلام والدوران حول أفريقيا .

وكما أدخل سبنسر إلى نظرية دارون البيولوجية فكرة بقاء الأصلى فى علم الاجتماع وجاء نيتشه فتحدث عن الإنسان والإنسان الأعلى (السوبرمان) وعلى أسسها اعتمدت أصول نظرية استعلاء الجنس والعنصرية .

وقد جاءت كتابات دعاة الاستعلاء باللون الأبيض من منطق وجداني فقه كان كتابها من أمثال جوينتو وتشمبرلن إنما كانوا يتحدثون عن مشاعر تملء الجوانح بالفخر والازدهاء .

ولقد كانت قضية الأجناس في أساسها قضية لغوية تقوم على أساس وجود أوجه الشبه بين اللغات الهندية باللغات الأوروبية ، غير أن القضية سرعان ما اتخذت ذريعة لمخلق صراع بين الأجناس ، وبعد ماكس مولر اليهودي أول من استعمل لفظ الآرية وأول من روج لاتخاذ الأساس اللغوي أساساً للعناصر والأجناس . يقول الدكتور محمد عبد المنعم الشرفاوي في بحثه عن الأجناس الآرية : لم تكن تعرف إشارة (يوب) إلى أوجه الشبه العديدة بين عدد عظيم من اللغات الأوروبية وبعض اللغات الآسيوية حتى أعقبها ظهور روح جديد قوامها فرض أن أصل الأجناس التي تتكلم هذه اللغات المشابهة لا بد أنه واحد .

واتخذت وحدة اللغة أو ما يشابهها وحدة بين هذه الأجناس ، وكان ماكس مولر أول من روج لهذه الفكرة ، ومعنى هذا أن اليهود تلفة قوا الفكرة لمصلحتهم ، وقد استخدمت النظرية أساليب كثيرة في سبيل الترويج لإعلاء الجنس الأبيض في محاولة تبرير الغزو والسيطرة والسيادة التي تخص سلالة أو طبقة معينة من السلالات البيضاء . وقد امتدت نظرية التفوق العنصري إلى شعوب أوروبا فظمرت نظرية تفوق العنصر الروماني في ألمانيا ، والعنصر الأنجلو سكسوني التي نشأت في بريطانيا وأمريكا ونظرية تفوق الكلت في فرنسا وعزيت إلى هذا الجنس صفات جسدية تجعل منه جليساً متفوقاً عن بقية الأجناس البيضاء ، كما جرت المحاولة لإدخال كبار الشخصيات التاريخية في

(١) راجع أبحاث جوان كومانس (خرافات عن الأجناس) وفصل الأجناس في كتاب التطور للدكتور السيد محمد بدوي .

النظرية الأوربية من أمثال داتى وورفيل ومايكل انجلو وشكسبير . بل
أنها تعدت ذلك الى الادعاء بأن بولس الرسول ويسوع المسيح من
الأريين .

واقعد ذهبت النظرية الداعية الى اعلاء الجنس الأييين: التوتونى الأوربى
الى الصاق كل أسباب الضعف والتخلف بالجنس الآسيوى الملون . وربطت
الجنس الأييين بالروح الهليلية المتكبرة المتعالية التى تتصف بالسيادة ، بينما
ربطت الأجناس الآسيوية الملونة بفكرة التسامح الدينى الضعيفة المشوبة
بالرحمة . وحين دعا نيتشه الى السوبرمان (الإنسان الأعلى) وقف نظريته
على اهلاك الأجناس الضعيفة وابقاء الأجناس القوية وعرض بما تحمله
المسيحية من دعوة الى الرحمة ورعاية الفقير والضعيف والمريض . وحين
فلسف روزنبرج نظرية الاستعلاء الجنسى الألمانى أشار الى التنازع بين
الروح الشمالية المتكبرة المتعالية والروح الآسيوية المتسامحة المتخاذلة ، وقال
ان تاريخ التنازع بين هاتين الفصيلتين يرجع الى ما يقرب من ألفى عام ، فقد
أرادت الكنائس ولاسيما الكنيسة الكاثوليكية أن تسيطر بالحلب على حين
أراد الأوربيون الشماليون أن يعيشوا وأن يموتوا أحراراً وقدند روزنبرج
بالمسيحية وما وصفه بمساوئها التى جرتها على أوربا حين دعا الى « المحبة » التى
سرعان ما انقلبت الى معنى الذل والخضوع والزهد ، ويرى أن المسيحية فى
دعوتها الى المحبة قد استغلت هذه العاطفة بغية التحكم والسيطرة ، وقد ابتعدت
عن شخصية مؤسستها حين استبدلت به فكرة البكنيسة وأفسحت المجال لسيطرة
الأكليروس خفرت بين المسيح والإنسان هوة سحيقة بل جعلت بينهما وسطاء
من رجال الدين .

تقييم النظرية ونقدها

(١)

أولاً : تنطلق النظرية أساساً من معارضة أساسية لحقيقة أكدتها الأدبان السماوية والأبحاث المنصفة وهي وحدة الجنس البشري . .

ثانياً : إعلاء جنس واحد على باقي الأجناس : هو الجنس الأبيض الذي لا يزيد على ثلث سكان العالم ، ومحاولة انتقاص الأجناس الأخرى ، ونسبة كل عوامل القوة والذكاء للجنس الأبيض ونسبة كل عوامل الضعف والتخلف للأجناس الأخرى .

(١) أكد العلماء انتماء الإنسان إلى أصل واحد أو أصول متعددة وحنحوا إلى تأييد نظرية الأصل الواحد وفي ضوء هذه الحقيقة العلمية تبدو النزعة العنصرية فرضاً ليس ما يسوغه أو يدعمه (١) .

(٢) أما عن الوراثة فإن الإنسان لا يرث الاستعدادات أولية تماماً تنمو بتأثير البيئة والتربية .

(٣) ثبت استحالة فكرة البقاء الجنسي التي يتحدث عنها بعض العنصريين الأوروبيين كما اتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة .

(٤) تأكد أن الفروق العقلية والنفسية ما هي إلا نتيجة لظروف بيئية منها أن فرصة التعليم قد أتاحت لأفراد جماعة دون أخرى .

(١) أوجين بيثار : العالم الأنثروبولوجي في جامعة جنيف .

(٢) السلالات البشرية دكتوريسري عبد الرازق .

(٥) أثبتت التجارب التي أجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة :
إن المستوى العقلي للتلاميذ زواج الولايات المتحدة يفوق مستوى نظائهم في
الولايات الجنوبية مما أكد مفهوم أن التميز ليست مسألة جنس بل مسألة
بيئة وفرض مختلفة ومستوى ثقافي .

(٦) ثبت أنه ليس هناك ثمة ارتباط بين حضارة معينة والتكوين
الجنسي لسلالة من السلالات وإن الحضارات القديمة التي ازدهرت في حوض
البحر المتوسط في حوالى الألف الثانية قبل الميلاد نمت في بلاد تميز سكانها
بالاختلاط لا بالنقاء الجنسى فضلاً عن أن الحضارة في الوقت الحاضر ليست
قاصرة على المجموعة البيضاء فقد دخلتها اليابان والصين .

(٧) القائلين بأن الجنس الآرى أرقى فروع الجنس الأبيض لم يستطيعوا
أن يحددوا هذا العنصر الآرى تمام التحديد ولم يدينوا أصله ولم يثبتوا على وجه
التحقيق أنه هو الذى أنشأ الحضارات كلها .

(٨) لم يثبت تاريخياً أن الأوروبيين الشماليين هم الذين أنشأوا الحضارة
البشرية ، وقد شاركوا فيها متأخرين جداً ، وكانت البشرية قد توصلت قبلهم
بمثلة في أقوامها المختلفة إلى معرفة الزراعة واستئناس الحيوان واستخدام المعادن
وأقاموا صرح مدنات عريقة كل ذلك قبل أن تعرف الشعوب الشمالية معنى
الحضارة بل لقد كان فلاسفة اليونان يلقبون هذه الشعوب التى تعيش في شمال
أوروبا بالمتوحشين .

(٩) ليس هناك صلاحية لجنس ما للقيام بأنواع معينة من الأعمال والحرب
وأن جميع الأجناس بل جميع الأفراد بإمكانهم القيام بنفس العمل إذا أتيحت
لهم فرص متكافئة في التعليم والمران .

(١٠) ليس هناك في الواقع جنس بريطاني ولكن يوجد شعب بريطاني .

ولا يوجد جنس فرغى ولكن لكل لغة فراسية ، ولا يوجد جنس آرى ولكن
ولكن لغات آريه ، وليس هناك جنس لاتينى ولكن هناك حضارة
لاتينية (١) .

(١١) فساد نظرية أوصاف الجنس وخصائص القوام والرأس وخصائص
الدم ، نظراً لاختلاط هذه الخصائص فى النوع البشرى بدرجة تجعل من العسير
جداً تحديد نماذج تقوم على هذا الأساس .

(١٢) إن الإحساس بوحدة الفكر والهدف هى التى تربط الناس بروابط
مدنية : على أساس أن الذين يؤمنون بمثل علينا واحدة يجب أن تقوم
بينهم قرابة .

(١٣) إن نتائج قياس الملامح الجنسية فى تقرير تفوق جنس على جنس
لم تات بنتائج جاسمة .

(١٤) لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية وأن سكان أوربا
متعددوا الأصول .

(٢)

هناك حقيقتان أساسيتان : تتقضان فلسفة الأجناس من الأساس .

الأول : أن الجنس البشرى واحد الأصل وإن أخوة بنى الإنسان هى
الأساس الذى قامت عليه الأديان ، وهى لا تقم أهمية كبيرة لاختلافات الجسم
أو الدم أو اللون وتعد الناس جميعاً أخوة متساوين .

(١) اوجين ييتار : العالم الأثرى بواوحي فى جامعة جنيف

(٢) الدكتور يصرى عبد الرازق : السلالات البشرية .

الثاني : إن المجموعات البشرية قد اختلطت إختلاطاً عميقاً منذ عصور ما قبل التاريخ بالهجرة والامتزاج الواسع والحرب إلى درجة أنه لم يعد في الإمكان القول بأن هناك عرق واحد لا يزال نقياً بقاءً تاماً .

ثالثاً : إن نظرية الأجناس قامت على الأسس المادية وحدها على أساس الدم واللون وبذلك فقد تجاهلت عاملاً هاماً في وحدة الأجناس وامتزاجها وهو عامل الالتقاء الفكري والتماذج الروحي والنفسي ، هناك المؤمنون بمثل عليا واحدة هي بمثابة قرابة وأن الزواج والاختلاط والانتشار عوامل هامة حطمت عزلته ومن العبث القول بأن اختلاط الأجناس يهدد البشرية بالتفقر والتدهور ، ذلك لأن عمله الاختلاط هي عملية مستمرة لم تتوقف منذ وجود الإنسان على الأرض . فالهجرة قديمة قدم السلالة البشرية والهجرة تعني اختلاط الجماعات تلقائياً ، ويشير التاريخ أن جميع الحضارات قد تمت عمليات غزو لها من جماعات البدو الرحل انتهت بانتهيار التقسيم الطبقي وتكوين خليط جديد السكان .

(٣)

لا ريب أن الأديان السماوية قامت على أساس وحدة الأجناس وعلى أساس الأخوة بين الناس ، وأن تفاضل الجماعات ليس بالأعراق والدماء ولكن بالعقل النافع وقد جاء هذا الأساس في اليهودية والمسيحية والإسلام غير أن التحريمات الذي وقع في التوراة - حين زيفها القائلون إليها - استحدثت مفهوماً جديداً معارضاً لمفهوم الأديان المنزلة فقد قام أساساً على العنصرية وعلى إعلاء مجلس معين هو اليهود ، ويشمل سفر التكوين على عبارات تفترض فيما يبدو انحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها ، مثال ذلك : ملعون كنعان : عبد العبيد يكون لأخوته ، هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق البيولوجي قد تضمنه

التأكيد بأن (يهوه Jeherah) قد عقد عهداً مع إبراهيم ونسله،^(١) ومن هنا يبدأ التعارض واضحاً في دقة الكتاب المقدس بين هذا الذي يورده العهد القديم وبين ما يورده العهد الجديد، ومن هنا فقد ظهرت نظريتين : نظرية انقسام الناس على أساس الدين ونظرية انقسام الناس على أساس العنصر .

يقول جوان كوماس : الحقيقة أن انقسام الناس على أساس ديني أكثر إنسانية لأنه في الإمكان عبور الهوة التي تفضل وتفرق بين الأديان . أما الهوة البيولوجية التي تفضل بين الأجناس فلا يمكن عبورها ، و « الأديان لا تبالي الاختلافات الجسدية الفردية وتعد الناس جميعاً أخوة متساوين في نظر الله ، والأديان تعارض التفرقة العنصرية منذ البداية » .

ومن الواضح المؤكد تاريخياً أن اليهود والإغريق هم حملة لواء الدعوة إلى العنصرية في التاريخ القديم ، وأنهم ادعوا لانقسامهم أنهم شعب الله المختار ، كما اعتبر الإغريق أنفسهم سادة العالم وكل من عداهم برابرة .

وقد برر أرسطو هذه النظرية واليهودية التلمودية في العصر الحديث هي التي أعادت نظرية العنصرية مرة أخرى إلى الحياة وحركتها في عنف وخلقت لها دهاء ومفكرين ، وأجرت الأبحاث على النحو الذي يحقق لهم غايات واضحة وقديمة ، هي ضرب الأجناس بعضها ببعض والقضاء على مقرر أساسي فطري أقرته الأديان وأكدته أبحاث العلم وحقائق التاريخ وهو وحدة الجنس البشري وانصهار الأجناس بالغرب والهجرة على النحو الذي لم يبق معه عنصر واحد في نقاء يستطيع أن يقول معه إنه قائم بذاته . ولقد اتخذت هذه النظرية وسيلة لفرض خرافة الجنس اليهودي من ناحية ولتحقيق هدف تبرير الاستعمار وسيادة الرجل الأبيض ودعم النظام الربوي الذي يتحرك خلف الزخوف الاستعمارية وتسيطر على الاقتصاد والبنوك والتجارة .

(٤)

لم يبق أى دليل أو برهان على أن اللغة وحدة اللغات هى نفسها وحدة
الأجناس أو أن مذهباً الشعوب التى تتكلم اللغات المتشابهة أو أن تلك الشعوب
ترجع إلى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات تشابهها تفرعت منه لغة أصيلة
واحدة ولم يثبت أن كل مجموعة إنسانية متفقة فى اللغة متفقة أيضاً فى الصفات
الأنثروبولوجية .

(١) ثبت أن الجنس واللغة مفهومان مختلفان اختلافاً تاماً .

وقد أنكر ماكس مولر : الذى استعمل لفظ الجنس الأدبى أى معنى
بيولوجى لهذا اللفظ وأكد أن مقومات هذا الجنس الأدبى ليست إلا مقومات
لغوية فقط .

(٢) أثبت كثير من علماء اللغات والأجناس : أن اللغة تنتشر وتنتقل من شعب
إلى آخر بواسطة عوامل الهجرة أو الغزو أو التبادل التجارى دون أن يعنى ذلك
الإنتشار اللغوى ضرورة إتياء من يتكلمون بها إلى أصل بيولوجى واحد ، أو
تسكنوا من جنس بيولوجى واحد .

(٣) ثبت استحالة فكرة النقاء الجسمى الذى يتحدث عنها بعض العنصريين
الأوربيين كما اتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن
أن يرجع إلى لون البشرة .

(٥)

الجنس الأبيض الذى لا يزيد على ثلث سكان العالم ، وهو الذى حاول

الاستعلاء الجنسي وكرهية الأجناس الملوثة واضطهادها وأن النظرية لم تقم على أساس علمي وكل الافتراضات التي حاول دعائها أن يؤكد بها وجودها كحقيقة تساقطت كأوراق الخريف أمام ضوء العلم .

ولم تثبت صحة أحد منها وتأكد أن أصل النظرية سياسي وأنها سلاح استعمل لإذلال الشعوب المسلوطة وتبرير قتلها . يقول جوان كوماس في كتابه خرافات عن الأجناس (ترجمة الدكتور محمد رياض) :

« لقد جاءت اللحظة التي بدأ فيها أصحاب أسطورة الجنس الآري يحسون بالتدريج أن هذا الجنس الذي أضفوا عليه صفات التفوق والقوة ، والسلالات الأخرى غير الآرية المنمطة ، كل هذا لم يكن له وجود إلا في أوهامهم » .

وقد إنهدمت النظرية من مختلف وجوه البحث العلمي أما علماء الاجتماع ففروا أن أجناس البشر على اختلاف ألوانها متساوية في قواها العقابية وليس الجنس الأبيض هو أرقى هذه الأجناس .

(٦)

قامت الأديان السماوية على : (١) وحدة الجنس البشري (٢) الأخوة الإنسانية (٣) توحيد الناس بالمثل الأعلى والفكر . وإن الناس تتفاضل بالعمل ، وأن مجموعات ووحدات من الناس يشكلها الامتزاج النفسي والفكري من دين أو مفهوم .

وقد قالت هذا اليهودية والمسيحية وجملة الإسلام في أفصح منهج . غير أن اليهود حرفوا هذا المفهوم القائم على الوحدة والإخاء وغلبوا مفهوم العنصرية والاستعلاء وتعدد الأجناس .

ويقول الدكتور يسرى عبد الرازق : أن اليهود بعد سقوطه اشتور ظهر

بينهم مبدأ التفرقة العنصرية فجاء (يهود بنى عزرا) ونادوا بمنع اختلاط اليهود
بغيرهم وأعتبروا جميع أطفال اليهود من زوجات يهوديات أقل شأنًا من سائر
الأطفال ولذلك كانت مملكة إسرائيل القديمة مهد العنصرية ، ولا يزال اليهود
حتى الوقت الحاضر جماعات منعزلة لا يختلط بعضها بغيرها وتعتبر نفسها أو
تدهى أنها شعب الله المختار وأن غير اليهود أقل اليهود شأنًا ، وتعصبوا لكل
ما هو يهودي وأحتقروا كل ما لا ينتمى إلى ملتهم .

« وعلى الرغم من تعاليم المسيح ، ظلوا زمناً طويلاً لا يعدون الرقيق من
الجنس البشرى » .

« وكان الدين بدلاً من المجلس هو معركة العنصرية وإنعكاساً لها ، وخاصة
إذا صاحب الاختلاف في الدين اختلاف في البشرة أو الجنس أو اللغة .

« وفوق ذلك رغبهم في الاستئثار بالأراضي المكتشفة حديثاً وخاصة
أرض الرق في افريقية إذ صور هؤلاء الفاتحون أهالي البلاد الذين لم يرحبوا
بهم ولم يكرمهم وقادتهم في صور أشد قسوة وأعظم خطراً من الفاتحين أنفسهم
وقد مموهم آكلى اللحوم في البحر الكاريبي » .

* * *

ويتساءل الباحثون عن الصفات التي يمكن أن تميز الجنس اليهودي عن
غيره من تعدد السلالات يقول R. N. Salman : إن نقاوة السلالة اليهودية
ما هي إلا أوهام وأن أكثر التعبيرات والاختلافات بين السلالات توجد
بين اليهود .

ويقول فيشبرج : أن مزاعم اليهود وإدعائهم عن نقاوة سلالتهم
عبي مجرد عن كل أساس : وأن اليهود الذين هاجروا من موطنهم الأصلي كانوا

عبارة عن خليط من السلالات وتتفاوت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة ومن الأدلة التي يوردها بعض المؤرخين أن قوانين كثيرة صدرت في روما وطيطة وغيرها تحرم المسيحية من الزواج من اليهود ولا شك أن الحاجة إلى إصدار هذه القوانين تؤكد كثرة التزاوج بين المسيحيين واليهود .

كما ثبت أن سلالة اليهود المهاجرين القدماء من فلسطين قد انقرضت ، وإن أغلب اليهود في العالم هي يهود بالديانة فقط ، وسيكون هذا النوع غالباً من أفراد سلالة أخرى أعتقوا الديانة اليهودية . وخاصة ما يتعلق بيهود الخزر الذين دخلوا اليهودية مع ملكهم بولان عام ٧٤٠ م وما يزال أعداد كبيرة من اليهود في بولندا وجنوب روسيا تنتمي إلى سلالة مجموعة الخزر هذه ولا ريب أن هؤلاء اليهود بالدين ، ليس هناك ما يربطهم أصلاً من الناحية الأنثروبولوجية بيهود فلسطين القدماء .

(٨)

في الوقت الذي استعلت فيه الدعوة الآرية والجنس الأبيض المتفوق ، ظهرت حركة السامية واللاسامية أيضاً من خلال صراع الأجناس في أوروبا .

وقد ارتبطت السامية في أوروبا باليهود ، من خلال احتضانهم لعمليات الربا وسيطرتهم على أسواق التجارة والاقتصاد ، وما يتصل بذلك من إثارة الأحقاد في المجتمع كله . ومن هنا كانت الدعوة إلى التخلص منهم حتى قال هيجل : أن العناصر الغريبة في المجتمع يجب أن تهضم أو يجب إبادتها .

ومن هنا بدأت حملة الجرمان على الدماء الغريبة : وتابع هيجل : فاخته وفاجر ونيشته ، وما زاد في اضطهاد اليهود ، دعواهم بالتفوق العرق وأنهم شعب الله المختار .

وقال هيوستن سيتوارت تشمبرلين في كتابه (أسس القرن التاسع عشر)

أن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية وأن روحه لا تلائم روحها ، وعندما تفيض له فإنه يتحكم فيها وقد يقضى عليها حقداً . وكذلك اليهودية فإن فيها عنفاً وقسوة وجموداً ، وهى على نقيض المسيحية الرحومة المحبة التى أعطت البشرية فكرة (أبوية الله) . (مع ملاحظة أن الاسلام لا يقر هذا المعنى) .

وقد حاول تشمرلين أن يدل على أن شخصية المسيح وبواص الرسول ليسا من العرق اليهودى . ومن هنا قامت حركة « اللاسامية » التى يرجعها الباحثون إلى :

(١) الكنيسة (٢) الجيتو (٣) المذاهب السياسية والعرفية
غير أن أغلب الباحثين يرى أن اليهود هم الذين صنعوها ليتوجهوا بها دائماً دعوة أنهم مضطهدين ، ويقولون « أن اليهودى نفسه له نصيباً وافراً فى نشوتها ، فهو يشكل أينما حل أقلية عرقية ودينية ولغوية ، ويبدو من غير المرغوب فيه ، ومن ذلك « نفور اليهودى الأوروبى من أعمال الفلاحة وميله إلى السكن فى المدن وتعاطى الربا ، وإحتكار رؤوس الأموال المتداولة » .

كما أقترن باسم اليهودى فى الأرباح غير المشروعة مما جعل الناس يشكون فى الأمانة اليهودية . وقد خلد شكسبير (اليهودى) فى رواية تاجر البندقية .

* * *

فاللاسامية فى أوروبا معناها كره اليهود وهو شعور عداوة مرده إن عوامل اقتصادية واجتماعية^(١) حتى يرى بعض الفلاسفة « أنه على الروح الأوربية لى يبقى لها نشاطها وحيويتها أن تتخلص من الوقوع تحت تأثير الفلسفة الشرقية المتجسم باليهودية وإلى حد كبير بالمسيحية والإسلام ، ويرون أن هذه الفلسفة

(١) راجع بحث الدكتور أنيس فريجة « مجلة الأبحاث »

أنتهم غاوية محاولة القضاء على الروح الإغريقية الوثنية البسيطة التي هي أسس من أسس الحضارة الأوربية .

ولاشك أن هذه المحاولة لتحرير الروح الأوربية من الأثر اليهودي قد فأت أو أنها جاءت بعد أن غزت الفلسفة اليهودية التلمودية جميع فروع الفكر : السياسة والإقتصادية والإجتماع والنفوس والأخلاق والتربية نتيجة لنظريات فلاسفة اليهود وأتباعهم : دوركايم وليفى بريل وماركس وسارتر .

أما المسيحية التي تأثر بها الروح الأوربي فهي مسيحية يهودية : بولس الذى عمد إلى تدمير المسيحية المنزلة من الداخل وإخراجها من أصولها السماوية الربانية .

أما الإسلام فلا غرو أنه صاحب الأثر الأكبر الذى أعطى الحضارة الغربية والمجتمع الأوربي الحديث خير ما فيه : من المنهج العلمى للتجريبى إلى مقررات علم الإجتماع والنفوس والتربية . وإذا كان المؤرخون قد سجلوا صورا قاسية لاضطهاد المسيحية لليهود وأن اليهود كانوا ينظرون إلى المسيحيين على أنهم يهود مرتدين فإن اضطهاد المسيحية لليهود دفع اليهود إلى إقتحام المسيحية من الداخل ومحاولة تدميرها .

ومن ثم منع المسيحيون اليهود من أن يعيدوا عيد الفصح فى نفس اليوم الذى يقع فى عيد القيامة . وأخذوا الأحاد بدلا من السبت وما قبل من أن اليهود يذبحون أطفال النصارى قربانا ، فإن كل ذلك كان عاملا فى قيام الجيتو وانفصال اليهود بعد سنة ١٥١٦ فى أحيائهم الخاصة ، وقد فرضت عليهم أحكام قاسية ، فلم يكن يسمح لليهودى أن يقتنى أرضا ولا أن يتعاطى بعض المهن ، ومن هنا كانت الثورة الفرنسية هي حركتهم التي حققوا بها الإنطلاق إلى المشاركة بعد إسقاط جميع تلك النظم

وقد كانت حركتهم فيما بعد قوية فقد عمدوا منذ اليوم الأول إلى السيطرة على الفكر الأوربي كله واحتكروا التمثيل والموسيقى والصحافة والمحاماة والطب والشر حتى كادوا يسيطرون على ذلك كله سيطرة تامة فخالوا دون نشر ما يتعارض مع مفاهيمهم ، ثم نفذوا إلى كل دوائر المعارف والموسوعات بتفاصيل فكرهم ودعواهم ودحض الحقائق العامة ومن اللاسامية انطلقت اليهودية والصهيونية الحديثة باسم الإضطهاد الذي صوروه للعالم على أنه جرم وقع عليهم وأقاموا له أدلة ودعوى .

(٨)

معارضة نمو الجنس غير الأبيض

فيما يتصل بفلسفة استعلاء الجنس الأبيض تجيء قضية معارضة نمو الأجناس الملونة وذلك للمحافظة على مستوى الرفاهية في الغرب ومن خلال هذه المقايضة الخطيرة تلمح دعوى الانفجار السكاني . ويتصل هذا الاتجاه بمفاهيم « عالم الربا » وسيطرة أصحاب رؤوس الأموال على العالم كله ذلك أن معارضة نمو الجنس غير الأبيض إنما تطالِق عدة أسس هامة . أولا : تزايد نسبة سكان البلاد الملونة وخاصة بلاد العالم الإسلامي مما يؤدي إلى التأثير في قيادة الغرب ونفوذه وسيادته السياسية التي يفرضها على العالم منذ القرون الخمسة الماضية بتفوقه العلمي والفني ، هذا التفوق الذي استطاع به أن يقيم احتكاره السياسي في العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه .

ثانيا : تعرض سكان البلاد الغربية إلى التناقص بعد أن ظهرت بوادر الانحطاط والافول في قوتها السياسية بعد الحرب العالمية الثانية حيث تبدل أوربا الغربية جهودا مضنية الآن في سبيل زيادة عدد سكانها وخاصة فرنسا وإنجلترا والسويد وألمانيا وإيطاليا .

غير أن تقدير الغرب أن زيادة عدد سكانه لن يمكنه من أن يحتفظ بمكانته السياسية وبقائه متربعا على كرسى القيادة العالمية .

ثالثاً : نمو سكان الشرق والعالم الإسلامى نمواً مضطرباً من شأنه أن يزيد القوة العددية التي تواجه الغرب من ناحية والتي تستوعب أكبر قدر من الثروة التي تصل إلى الغرب .

ومن هنا انطلقت الدعوة التي ينفق فيها الغرب مبالغ طائلة في البلاد النامية في آسيا وأفريقيا لإيقاف هذا النمو وتحديدته تحت اسم الوالدية أو ضبط النسل أو تحديدته ، ويكشف (الدكتور : خورشيد الباحث بجامعة كراتشي) عما أسماه (سوء نية الأوربيين والتخطيط الإقتصادي لادامة إحتلال الدول المتقدمة للشعوب النامية) وأن ذلك يجري على ضوء تنازل خطط نمو السكان في أوروبا وتزايد خطط السكان في آسيا وأفريقيا ، على نحو يخيّف الغرب من قوة العالم الملون النامية التي تهدد بالخطر نفوذه وسيطرته السياسية ، ويؤكد الباحثون في مقدمتهم الدكتور خورشيد أن ما كان يحول دون سيطرة عالم آسيا وأفريقيا حتى اليوم هو حرمانه من العلوم التكنولوجية وامتلاكه أدواتها الفنية وهو ما يتزايد اليوم في الشرق .

وفلا إمكان إذن لبقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بعد تدريجها على الآلات الميكانيكية وتضلعها في العلوم الفنية بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة بسائق المفطرة أن تفقد سيادة الغرب على الشرق آخر أيام حياتها وأن تبرز القيادة العالمية في أماكن فيها زيادة السكان ولها في الوقت نفسه خبرة فنية وتكتيك وحرية .

ومن هنا فإن كل ما يفعله الغرب اليوم للاحتفاظ بسيادته العالمية إنما هي محاولة للحد من زيادة السكان في الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل ووضع العراقيل في سبيل رواج المعلومات الفنية في أقطاره .

وقد أشارت عشرات الوثائق إلى إرهابات هذا الخطر ، وتوجس زيادة السكان في آسيا والعالم الإسلامي في النصف الثاني من هذا القرن على نحو يفقد الغرب نفوذه وسيطرته السياسية ، وقد أشارت إلى هذا تقارير رسمية عن الشؤون الخارجية على نحو مما أورده فرائك نونتشين في مجلة أمريكا الشهيرة : الشؤون الخارجية حيث تقول :

« إذن لا إمكان الآن لشعب في أوروبا الشوقية أو الغربية أو الوسطى أن تتحدى العالم مرة أخرى وأن ألمانيا كشعوب أوروبا الأخرى قد اجتازت المرحلة التي كان لها فيها أن تبسط نفوذها وتصير قوة عالية في العالم .

ذلك أن التقدم الفنى والعلمى قد وصل أيضاً إلى البلاد التي يتزايد سكانها بسرعة فائقة ، ويشير أرثر كورماك^(١) . إلى هذه الظاهرة فيقول : أنه لما يعجب الناس في البلاد المتقدمة إعجاباً فطرياً أن يقل عدد السكان في البلاد غير المتقدمة وذلك أنهم يرون في زيادتهم المطردة خطراً داهماً على مستوهم الرفيع للمعيشة وعلى سلامتهم السياسية ، ويصل باحث آخر من المعلقين السياسيين هو « ديك كارل » ، إلى مصدر الخوف فيقول : أن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلاً حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ثم لا يفتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولا سيما الأمم السوداء إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها ويقول أرنولد جرين : أن عدد السكان في العالم قد بلغ ضعفه في العشرين سنة الماضية ولأجله قد تعرض التوازن في القوة الاقتصادية والسياسة في الدنيا لعبء شديد .

(١) قلنا هذه النصوص عن بحث مستفيض للاملة هلال الفاسى في كتابه « طائفا

(٩)

وقد أشار الفياسوف المسلم محمد إقبال إلى هذا الخطر الذي يواجهه عالم الإسلام منذ سنوات طوال وقارن بين محاولة الغرب المستميتة إلى زيادة نسله وسكانه بينما هو يدعو في البلاد النامية والمملونة إلى إنقاص السكان . وسجل ظاهرة تناقص عدد سكان أوروبا وتدهوره الشديد نتيجة محاولتها تحديد النسل فيما قبل الحرب العالمية الثانية مما كان له أبعاد الأثر في نتائج الحرب العالمية حيث ظهر ضرر ممارسة هذه الدعوة من الوجهتين السياسية والاجتماعية ، ومن ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العظيمة شيئاً فشيئاً ، وأعلن الماريشال بيتان عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الرئيسية والأساسية التي عملت على توهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية : قلة عدد الأطفال والسكان .

ومن ثم فلم تلبث أوروبا أن عدلت عن هذه الخطة إلى خطة مختلفة تمام الاختلاف وهي العمل على زيادة السكان بأقصى قدر ممكن ، حتى إن البابا وهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية العالمية أعلن أنه لا يوافق على إبداء التخطيط العائلي وكذلك أعلنت الكنيسة البروتستانتية ذلك أيضاً . وجاء فيما أثر عن البابا قوله: إن بتهوفن كان الولد الثامن من أولاد أبويه فلو أنه والديه حبيداً للنسل أ كان سيولد بتهوفن وفنه العظيم .

(١٠)

طرح الفلاسفات الغربية ، وخاصة الفلاسفات المستمدة من الأصول اليهودية التلمودية نظرية مالتوس لتكون كآساس له طابع على قى ونقطة انطلاق للدعوة إلى تقيص الأجناس غير البيضاء ، وذلك تمكيباً للسيطرة اليهودية الربوية عليها .

غير أن العالم الغربي لم يلبث أن استفاق بعد أن تنبه لمدى أخطار الدعوة التي فرضتها اليهودية النبودية ، وقامت أبحاث علمية صحيحة تنقصر ما ذهب إليه مالتوس .

يقول القس مالتوس أساساً : إن السكان يزيدون زيادة هندسية بينما المواد الغذائية تزيد زيادة حسابية ، ولذلك فإنه لا بد أن يحىء يوم يبلغ فيه عدد سكان الأرض عدداً لا تكفي مواردها لتغذيته . وقد احتضنت الثورة الفرنسية آراء مالتوس ، يحسبان أنها منطلق الفلسفة الماسونية ومن ثم تناقص مواليد فرنسا . غير أن مفهوم مالتوس لم يلبث أن انقلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية التي وضعت مقاييس جديدة للنمو الصناعي أساسها أن زيادة عدد السكان هو العامل الأساسي في زيادة الثروة .

فقد أثبت الإحصاء الدقيق أن الازدهار المادى كان مرافقاً للنمو الإنسانى فى الغرب . وإن زيادة الإنتاج القومى فى فرنسا وأمريكا والسويد وإنجلترا إنما جاءت مع زيادة عدد السكان لا بالرغم منها .

وإن ازدياد السكان فى أوروبا هو الذى رفع الزيادة فى إنتاجها الاقتصادى ، ومن أقواله عديد من الباحثين أمثال : برنال ، وإيرك رول وتشارلس جاير : أثبتت : أن زيادة السكان نافعة اقتصادياً لأن الإنسان لا يولد بيطن وفم فقط ولكن يدين ورجلين وذهن .

* * *

وقد تبين أن مالتوس إنما بنى نظريته على أسس قاصرة على عصره ، ومنها اعتماد تصميماته التى لم تكن تصلح لعصر آخر . فقد كتب رسالته فى أثناء حرب نابليون التى كانت سبباً فى كثير من عوامل الفقر والجوع .

وقد عد مالتوس من المنشائين لأنه افترض أن زيادة السكان ستؤدي إلى الحروب والمجاعات والفقر وتدهور الآداب ودعا إلى تأخير سن الزواج^(١). وقد تبعه عدد من المفكرين التلوديين الذين أسموا أنفسهم بمجدي الملتوسية : منهم درز ديل وروز وجه ومنهم هافلوك اليس وولز دمرى والدكتور ماري ستويس . وقد أثبتت النظرية بعد زمن قليل أنها غير صالحة للتطبيق العالمى ، وواجهت أهف معارضة ونقد ، ذلك أن مالتوس نظر إلى العالم نظرة جمود وحسبه كيئاناً لا يتغير ولا يتطور ، وفاته أن البشر يتطورون فى حياتهم العقلية وجميع مظاهرهم الاجتماعية ، بذاتهم ولباسهم وقوانينهم وتقاليدهم ومقدرتهم فى التغلب على المحيط وإخضاعه لراحتهم وسعادتهم .

هذا فضلاً عما أهلى الإنسان من قدرة على تنمية وسائل العيش ، من حيوان ونبات ، والسيطرة على عوامل الطبيعة التى تحد الموارد وتزيد بها فى البر والبحر .

(١١)

إن القاء نظرة سريعة الى العالم الإسلامى يكشف عن أن موارده الغنية الثرة تستطيع أن تستوعب أكبر قدر ممكن من السكان ، وإن أغلب هذه الثروات إنما تنقل الى أوربا ويحرم منها أهلها . وفى نفس الوقت الذى تنقل هذه الثروات ، تهجر الى العالم الإسلامى مجموعات غريبة من السكان تحاول أن تسيطر على مقدرات هذه المناطق . ولا ريب أن نمو هذه المناطق واتساع مخططاتها الاقتصادية من شأنه أن يفرض مزيداً من النمو على أهلها طبقاً للقاعدة التى تربط زيادة الإنتاج بزيادة السكان .

هذا فضلا عن أن التحديات التي تواجه المسلمين والعرب اليوم تحتاج منهم الى حشد قوى لمقاومة الأخطار . وقد أثبت عديد من الباحثين المثقفين أمثال لوركينز وهانس وكولين كلارك وكول من أقطاب الاقتصاد في الغرب ، أن الزيادة المضطردة في السكان مما لاغنى عنه للحفاظ على التقدم والتوسع في طاب المنتجات حتى لا ينجم قرن الكساد في الاقتصاد المتقدم .

ويشير الباحثون الى أن زيادة عدد السكان في العالم الثاني في آسيا وأفريقيا انما يترتب عليه نتائج هامة . واذ لا مكان بعد ذلك لبقاء شعوب الشرق بحكومة مغلوطة على أمرها ، بعد تدريبها على الآلات الميكانيكية وتضلها في العلوم الفنية، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة بسائق الفطرة أن تفقد سيادة الغرب على الشرق آخر أيام حياتها وأن تبرز القيادة العالمية في أماكن زيادة السكان ولها في الوقت نفسه خبرة فنية وتكتيكية حربية .

يقول ميك كارل الباحث الاقتصادي :

« إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلا حتى يطلعوا على حقيقة ما يراد بهم ، ثم لا يغفروا لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف الى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء الى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها . وإن القوة الغالبة لا تكون في المستقبل الا للبلاد التي تتمتع بزيادة السكان وتحل في نفس الوقت بالعلوم الفنية .

* * *

ويشير العلامة علال الفاسي في بحث مستفيض عن الوالدية : الى أهمية أساسية هي « أن أكبر الخطر أن تدرس هذه الحركة منفصلة عن سياقها السياسي والتاريخي ، ، فإذا أضفنا الى هذا الخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن الشرق الأوسط وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود اليه . وخلق حركات

داخل كل بلد عربي وإسلامي من الأقليات التي يصل بها التعب أحياناً إلى المطالبة بالانفصال عن الوطن الولد عرفنا أن التقيص في عدد المواليد لا يخدم المصلحة الاستعمارية والصهيونية.

وقد دعت الشريعة الإسلامية إلى إعداد القوى التي تحافظ على الكيان ومواجهة التحديات الخارجية وتقديم عدد من أبناء المسلمين للعمل على صفوف خط النار والجهاد وحماية الثغور بما يفرض الخوف والحذر على خصومهم من غزوم.

(١٢)

الإسلام ووحدة الجنس البشري

جاء الإسلام الحنيف يعلن الأخوة الإنسانية ويبشر بالدعوة إلى العالمية ويبطل كل عصبية فقد قرر وحدة الجنس والنسب للبشر جميعاً ، فالناس لآدم ولا فضل لعربي على عجمي ولا لاسود على أحر إلا بالتقوى ، وحكمة التقسيم إلى شعوب وقبائل إنما هي التعارف لا التخالف والتعاون لا التخاذل والتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة التي تعود بالخير على المجموع والأفراد والله رب الجميع يرب هذه الأخوة ويرعاها ويطالب عباده جميعاً بتقريبها ورعايتها والشعور بحقوقها والسير في حدودها . يعلن القرآن الكريم هذه المعاني جميعاً في بيان ووضوح فيقول : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تسامون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ،^(١) ويقول : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله

أنقاكم إن الله عليم خبير^(١) ، ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد : الناس لآدم وآدم من تراب ، لأفضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحر إلا بالتقوى ، ويقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية ، وبهذا التقرير قضى الإسلام تماماً على التعصب للأجناس أو الألوان في الوقت الذي لا تزال فيه الأمم المتحضرة من أوروبا وأمريكا تقيم كل وزن لذلك ، وتخصص أماكن يشاها البيض ويحرم منها السود حتى في معابد الله ، وتضع القوائم الطويلة للتفريق بين الأجناس الآرية والسامية وتدعى كل أمة أن جلسها فوق الجميع^(٢) .

(١٣)

لقد كانت العنصرية من أبرز الركائز التي اتخذها الفكر البشري أداة لمعارضة الفكر الإنساني وهي د عملة قديمة عرفت في الحضارة الرومانية والفكر اليوناني وكانت مصدراً أساسياً من مصادر انهيارهما ، ثم حمت الحضارة الغربية نفس النظرية : نظرية تفوق الأجناس على نفس المفاهيم والأسس التي هاجمها به الإسلام وإن كانت قد نمتها بصورة أشد قوة وعنفاً ، أما الإسلام فقد قرر وحدة الجنس البشري ، وأقام الوحدة على أساس الفكر لا على أساس الدم ولقد اعتبر الاختلافات في الصفات الجسمية من شكل الجمجمة أو الوجه أو الأيدي أو غيرها اختلافات فرعية كما اعتبر اختلافات الأمم والقبائل والأوطان اختلافات يسيرة لا تحول دون الحقيقة الأساسية وهو أن الإنسان البشري في كل زمان ومكان وعصر وبينه هو الإنسان بتركيبه الكامل : روحاً ونفساً وعقلاً وجسماً وإن محاولة أخذ الإنسان من جانب واحد من هذه

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) صاحب الشهاب (ربيع الأول ١٣٦٢) .

الجوانب دون النظرية الكلية لا يحقق صدق الحكم عليه وقد قرر الإسلام وحدة الجنس البشرى أساساً للتعامل حتى لا يستعلى مذهب من مذاهب الألوان أو الأنساب والأديان ، وفي نطاق الإسلام أقام الإسلام وحدة العقيدة والفكر بديلاً عن نظام القبيلة وربط المجتمع الإسلامى بين الفارسى والرومى والحشى والعربى جميعاً « أمة واحدة من دون الناس » ، وكشف رسول الإسلام عن حقيقة أساسية فى هذا النطاق هى : « من تكلم العربية فهو عربى » وبذلك أصبحت العربية هى مصدر وحدة الفكر وقد اتجه الفكر الإسلامى هذا الاتجاه وعمقه فأقر الفقه الإسلامى كفاية الأعجمى للعربى فتصاهر المسلمون فى الأقطار المفتوحة واختلطوا أو امتزجوا أو امتزجوا كلياً ولا كذلك فعل الرومان أو المستعمرون فى العصر الحديث .

ومن مفهوم القرآن فى نفى العنصرية نفياً صريحاً واعترافه بوحدة الإنسانية وبأنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل . وأنه لا تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم أو ألوانهم أو أنسابهم إتجه التاريخ الإسلامى وجهة واضحة عمقت هذا المفهوم وأكدت ، فتقاربت الأجناس الإسلامية وتداخلت بالزواج المختلط أو التوليد حيث أقبل الخلفاء والعرب على الزواج بغير العربيات من فارسيات وروميات وصقليات وصيديات وهنديات ، ونشأ عن هذا الاختلاط جيل جديد من المولودين يحوى عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلطة التى ولدته من جثمانية وعقلية وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لامة واحدة ، لا لشعوب مختلفة ، تدين بدين واحد وتكلم لغة واحدة .

وقد كان هذا الاتحاد هو مصدر تلك النهضة العلمية التى امتدت من قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وهى نهضة عامة شملت كل نواحي التفكير الإنسانى من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وطب ورياضيات وتاريخ وجغرافيا وهى إحدى النهضات العلمية الكبرى المعدودة فى تاريخ

الحضارة على الإطلاق ، وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التي شملت الشعوب الإسلامية وإخلاص العناصر غير العربية للدين الإسلامي واللغة العربية . ولا سيما بالنسبة للعقائد التي كانوا يلتحلونها من قبل من حيائية ومجوسية وهندية وغير ذلك ، كما بهرتهم الثانية (أى اللغة) بغزارة مادتها وروعة أدبها وأنها قبل كل شيء : لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد جرحهم في النهاية هذا الإعجاب بالدين الإسلامي واللغة العربية إلى الإعجاب بالعرب أنفسهم فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأعظم مادة تغذى قلوبهم وأذهانهم فتغيرت الحال عما كانت عليه من قبل فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحيزة للعرب على غير العرب ولا كراهية من الموالى لنفوذ العرب السياسى بل لقد جر هذا الإعجاب كثيراً من الموالى والأعاجم إلى انتحال النسب العربى أشرفاً به وتعظيماً ، بل أن بعض الشعوب غير العربية أخذت تمد أصولها إلى العرب كما قبل في البربر اذ نسبهم إلى قيس عيلان ، (١) .

(١٤)

ومن الحق أن نظرية العنصرية قد استخدمت في العالم الإسلامى في مرحلة الاستعمار استعمالاً خطيراً :

(أولاً) فقد حيل بها بين العرب والمسلمين باسم الأجناس ففى التى أشاعت الاضطراب فى العلاقة الجذرية القائمة بين العروبة والإسلام ، وثانياً : بين العرب أنفسهم بالدهوة إلى الإقليمية والوطنية . وإثارة الفروق المتصلة بالواقع الجغرافية وقد طرحت نظرية العنصرية فى العالم الإسلامى من أجل : فكرة الرابطة وحل العروة وكان لأساليب التعلم التى أنشأتها الإرساليات والأنظمة

(١) راجع للرحوم عبد الحميد المهادى فى بحره القيم عن الاسلام والمشكلة العنصرية

السياسية والفكرية الوافدة أثرها في اعلاء الإقليمية والقومية الضيقة ، فقد وضعت الوطنية المجردة والإقليمية الضعيفة في مواجهة الوحدة . وكانت عاملاً هاماً في تمزيق تلك الحزام الرابط . ومن ثم غلبت مفاهيم الفيليقية في لبنان والأشورية والكلدانية في العراق والفرعونية في مصر والبربرية في المغرب والزنجية في أفريقيا أما البدائل الجديدة من الوطنية والقومية فإنها قد عجزت عن أن تحقق شيئاً لأنها قامت على مفهوم مفرغ من القيم الروحية والنفسية والأخلاقية التي هي لحة الرابطة الفكرية الكبرى وسداها ، كما قامت بمجرده من العقيدة القرآنية معتمدة على المادة المحسوسة لا غير وبيننا ، العقيدة الإسلامية توحى الاعتقاد بالأمل والثقة في الغد ، وبيننا العقيدة الوطنية المجردة لا تنظر إلا إلى المحسوس فقط ، ولا تجد أمامها شيئاً توحى به من قدرة على مصارعة الأوبى لأن المحسوس مخالف لذلك ،^(١) وفارق بين عطله المحسوس وعطائه الإيمان ، وكذلك الأمر في القومية بعد الوطنية ذلك أن الفكرة الوطنية أو القومية المجردة التي لا ترتبط في حقائق متصلة مع وحدة الفكر ، هذه الفكرة :

(أولاً) لا تحول دون الاندماج أو الذوبان في الغرب ، أما وحدة الفكر فإنها تحول .

(ثانياً) لا تحول دون انحلال الخلق التي هي من أدهائم الأمم أما وحدة الفكر فإنها تحول .

(ثالثاً) لا تبعث الآمال في غد أحسن وإنما الوحدة الفكرية هي التي تبعث الأمل .

(رابعاً) لا تزرع في مسدور أهلها عزه النفس والاعتماد على الله والاستعلاء بالذاتية والكرامة ولكن وحدة الفكر هي التي تزرع .

(خامسا) العقيدة الوطنية المتحررة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط بما يفقد قوة لاعتراض لهم عنها .

(سادسا) لاتروع الاستعمار والنفوذ الاجنبي وحده غير الوحدة القاعة على الفكر وهي ما يخطاها ويعمل جهده للحيلولة دون قيامها .

(١٥)

يقول أرنولد توينبي : « إن دعاة التعصب العنصرى فى تزايد وإذا قدر لحركتهم هذه أن تطفئ فان ذلك سيؤدى إلى وقوع كارثة عامة » .

ثم يعود فيقول : « المعقول أن يكون روح الإسلام هى تلك القوة المدخلة التى قد تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام ، ومن هنا ينكشف بوضوح أصالة مفهوم الإسلام فى مواجهة العنصرية ومعارضها يقول توينبي : « إن انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين يعتبر ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية فى الإسلام » .

« وفى العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ومع أن التاريخ يظهر عموما أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة بل حالة شاذة فى طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة ، فإن من سينت الالة الحاضرة أن يكون هذا الشعور بارزا وبارزا بشدة لدى الشعوب القوية التى استطاعت أن تقطع لنفسها - ولو مؤقتا على الأقل - حق الأسد من ميراث الأرض - خلال التنافس الذى قامت به الدول الغربية فى القرون الأربعة الأخيرة ، أ . هـ .

* * *

ولاريب أن النفوذ الاجنبي قد كان له أثر كبير فى تعزيز رابطة الأخوة

الإسلامية التي كانت قائمة قبيل جائحة الاحتلال والاستعمار الحديث وأبرز الأخطار قد ركزت على الدولة العثمانية بالذات باعتبارها الوحدة الكبرى للمسلمين ومن خلالها أثبتت الدعوة العنصرية على نحو غاية في العنف والحدة فمن طريق المستشرقين ودعاة ليسوا من الأتراك بدأت الدعوة إلى الطورانية لتضرب في كل سبيل ، التاريخ والوحدة والإسلام والعرب وتثير الحفاظ وتقلب الأرض وترد الأتراك المسلمين منذ مئات السنين إلى طوران وإلى تاريخ قديم عفى عليه الزمن . وتمزق الوحدة القائمة تحت ظل الخلافة والدولة العثمانية بين العرب والترك . ثم ظهرت دعوات إعلاء العنصرية في الهند وفارس وأندونيسيا وكل المناطق الإسلامية بالدعوة إلى العودة التاريخية إلى الإسلام ، وقد جاء ذلك بأسماء مختلفة منها الوطنية والقومية الضيقة ، فنشأت عوامل الصراع والتفرقة وجرت محاولات التفكك التي تمحول دون الالتقاء على أسلوب واحد من العمل بين جماعة موحدة تربطها وحدة فكر أصيل وعميق الجذور .

غير أن فشل العنصرية في أوروبا نفسها قد فتح الأبصار على حقائق كثيرة أهمها :

١ - استحالة عودة المسلمين إلى الجذور القديمة قبل الإسلام تخطيطاً للواقع القريب الذي شكل الذاتية والمزاج على نحو من العسير نزعه أو تغييره .

٢ - لما كانت الإلحامية والعنصرية القومية ترتبط باللايدلية أو تلغى أثر الدين في الفكر والمجتمع فإن العالم الإسلامي يرفض هذه القاعدة أساساً .

حيث يرى أن الإسلام أساس مكين في الثقافة والتاريخ واللغة والوجود الاجتماعي نفسه .

٣ - كان لظهور الصراع في الغرب بين الإلحامية والعنصرية ، وبين فكرة

الشعب في الديمقراطية وفكرة العرق في العنصرية وفكرة الطبقة الماركسية
أثر بعيد في الفكر الإسلامي الحديث فقد عاد الفكر الغربي إلى الدعوة إلى
الوحدة عن طريق الفكر، كالدعوة التي يقودها الفكر الليبرالي إلى عالمية
الثقافة أو الفكر الماركسي إلى وحدة الطبقة .

كل هذا يكشف عن أصالة الفكر الإسلامي في إيمانه بالوحدة البشرية
أصلاً قائمة على أساس أن الناس جميعاً من آدم ولا فضل لأبيض على أسود
إلا بالعمل .

الحق : ضوء من الإسلام

يقول ابن خلكان : «إن البشرة السوداء لا تقال من شرف النفس الطاهرة ولا تنقص من علم العالم ولا من سمو المفكر» .

ولا ريب أن الإسلام يؤكد أهمية الإنسان وقيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وديانته كما يبنى العدالة الاجتماعية على أساس :

● الحرية الكاملة في العبادة .

● المساواة التامة بين جميع الناس .

● المسؤولية الدائمة والمتبادلة للمجتمع .

ولقد أقام الإسلام فكرة الفرد في إطار المجتمع . ولم يذهب مذهب من أعطوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما أنه لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد في المجتمع ، ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه في نفس الوقت وكلهم تجمعهم دعوة الله فإن وحدة الهدف أمر طبيعي حيث يتم الترابط بين المؤمنين ويتصرفون في أعمالهم تلقائياً ، تصرف رجل واحد . وقد انفرد الإسلام بأن رعى الفرد وكرمه في إطار الجماعة فيما ركز به على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسئولية ارتقاء سلم الكمال .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) - (كل امرئ بما كسب رهين) ، ولا ريب أن البناء الإسلامي مصبوب في لبنات قوية في تكوينها الداخلي مترابطة في تجمعها بلا اختلاف ، كما هو شأن الجدار المرسوم .

ومسئولية الإنسان الفردية هي أساس الإيمان بالجزاء والبعث والآخرة ،

فقد اعتبر الاسلام الانسان صاحب إرادة كاملة ، وعده مسئولاً عن كل فعل من أفعاله وعن كل سكتة من سكتاته .

[ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] .

وبذلك أقر قانون المسؤولية الفردية : وأنكر الاسلام مفهوم وحدة الوجود ومفهوم الخطيئة كلاهما لأنه يؤدي إلى نزع هذه المسؤولية ورأى أن لا يفدى الانسان سوى عمله وليس التضحية من نبي أو رسول وأن خطأ أى إنسان مرتبط به وحده .

(٢)

ومن ناحية أخرى فإن الاسلام فى نظامه المتكامل : ديناً ودولة ، وفى تطبيقه لهذا النظام لم يعرف (الدولة الثيوقراطية) التى عرفتها أوربا فى القرون الوسطى عندما سيطرت طبقة من رجال الدين على السياسة العليا .

وهذا مما لا يقره الاسلام أو يعترف به فضلاً عن أن الاسلام لا يعترف بنظام السكّانة ولا يقر وجود طبقة ممتازة تدعى رجال الدين ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخصاً ما ، يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً . والنظام الاسلامى الاجتماعى نظام خاص يختلف من وجوه عدة عن الأنظمة التى عرفها الغرب ولذلك فالقول بأن الدولة الاسلامية دولة ثيوقراطية ، قول باطل ، ذلك أن النظام الاسلامى هو نظام شامل للأمة جميعاً يستمد مصادره الأولى من القرآن الكريم ، ويفسح الطريق إلى الاجتهاد فى الفروع ، وفيما لم يرد فيه نص ويقوم على إشارات واسعة مرنة ، قادرة على استيعاب قضايا المصور وأمور البيئات المختلفة ومواجهتها دون أن يكون الاسلام فى ذلك مطية لأهواء المجتمعات .

والشريع الاسلامي لا يقر مذهباً يفرض مفهوماً مادياً خالصاً ، أو روحياً خالصاً ، على المجتمعات ، أو مفهوماً يقدم الاقتصاد على الأخلاق أو العقائد ، أو يفترض نسبية الأخلاق أو الهبوط بالانسان إلى تجارب الحيوان أو التسليم بالإباحية المطلقة أو التطور المطلق ، خارجاً في مفهومه عن ضوابط المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي . كما أنه يقيم الحركة والتطور من داخل دائرة الشبّات .

الباب الرابع

الفلسفة الاجتماعية

الفصل الأول : نظرية النفس والجلس (النظرية الجنسية : فرويد)

(٢) مصادر فرويد

(٣) نظرية الكظم في الإسلام

الفصل الثاني : (١) نظرية النسبية الأخلاقية

(٢) الأخلاق في ضوء الإسلام

الفصل الثالث : (١) الفلسفة الاجتماعية

(٢) فلسفة المرأة في الفكر الغربي

الفصل الرابع : فلسفة الأدب المكشوف .

الفصل الخامس : الفلسفة الوجودية .

الفصل السادس : الفلسفة الهيكلية .

الفصل السابع : فلسفة وحدة الحضارة (أو الحضارة الواحدة) .

الفصل الثامن : الفلسفة الروحية الحديثة .

الفصل التاسع : الثيوصوفية .

الفصل العاشر : الفلسفة البهائية .

الفصل الحادي عشر : فلسفة التربية .

لحق : ضوء من الإسلام .

الفصل الأول

نظرية النفس والجنس

النظرية الجنسية (فرويد)

(أولا) مضامين النظرية :

كانت نظريات علم النفس الحديث القائمة على أساس النظرية المادية بمثابة رد فعل على المفاهيم التي أقامها الفسك الأوربي المسيحي القائمة على كبح الشهوات والرهبانية وإعزال الحياة وكبت النزاع الفطرية . بيد أن نظرية فرويد جاوزت هذا الحد حيث وصلت إلى أقصى حدود التطرف بإتخاذ الجنس ، وحده مصدراً لكل التصرفات والنزاع ، وهو تحول خطير من طرف الجود الذي لا تقبله النفس الإنسانية ولا تقره الفطرة إلى طرف الإباحية الذي ترفضه النفس الإنسانية ويحافى الفطرة وهو موقف لم يقر فرويد عليه زميائه أدلر ويونج اللذين عارضوا إقراره كمصدر وحيد والتسا إلى جواره وسائل أخرى .

ولم تكن المسيحية في مصادرها الأساسية عاملاً من عوامل نشر التزمت أو الرهبانية أو دعوة إلى الزهادة جملة ، ولكنها كانت مكملة لدين بني إسرائيل مصححة لإنحرافهم إلى المادية ، غير أن مفاهيمها لم تلبث أن أدخل إليها بعض النظريات الوثنية والفلسفات المعددة ، فدفعت طبيعتها الربانية السمحة ، إلى الغلو في إنكار الدنيا ومخافاتنا على النحر الذي عارض الفطرة والطبيعة الإنسانية في محاولة قاسية للضغط على الجسد البشري وتحمله ما لا يطيق من الانصراف عن طبيات الحياة بما أحل له ، إلى نوع من الزهادة والحرمان والتعذيب

ومجافاة قسوانه الطبيعية إلى الطعام والزواج ، والافضاء عن مطالب الغرائز وإعتبارها نوع من الدنس الذى يحرم تليته وبالغت فى ذلك حتى عدت مثل هذه المجافاة دليل سمو وقربى إلى الله ، وأنها كلما ازدادت قوة كانت أقرب إلى منازل القديسين والمقربين وكان من الطبيعى بعد أن عبر الفكر الإسلامى إلى أوربا بمفاهيمه الربانية الأصلية ومقرراته الجارية مع الفطرة ، الدافعة إلى مقارفة الحياة والاستجابة لطبيعة الإنسان وغرائزه فى إطار من الحكمة ، وفى حدود ضوابط تنظم تلك الاستجابة وتجعلها فى وضع كريم بعيداً عن الاباحية والزنا كان طبعياً أن يهتز الفكر الغربى الذى قام على تلك المفاهيم وأن يتحرك لتحرير نفسه من قيود قاسية تأبأها الطبيعة البشرية ، قد فرضتها قوى عابثة وأسرفت فى دفع الناس إليها ، على نحو يفسد النفس الانسانية ويرزى بها .

ومن هنا بدأت مفاهيم الاسلام فى النفس والأخلاق والاجتماع تنفذ إلى الفكر الأوربى وتحطم قيود الجحود وتخلق صراعاً ضخماً بين مفاهيم الفطرة ومفاهيم القسر والاعتات .

غير أن إستعلاء النظرية المادية من بعد ومحاولتها السيطرة على كل القيم والمفاهيم فى مختلف المجالات قد مضت تحت تأثير الغلطات التى تجرى إليها إلى تفرغ القيم من مضامينها وإتخاذها وجهاً واحداً ، وإنكار الوجه الآخر المرتبط به فالتطور هو تطور مطلق لا يقر وجود قوى الثبات .

والحياة مادة لا تقر وجود عالم الغيب والفكر حسى يقف عند حدود ما يرى ويسمع ولا بدخل فى حسابه الروح أو العاطفة أو البصيرة .

والعقل هو مصدر المعرفة دون أى مصدر آخر من وحى أو غيره .
والإنسان سيد مطلق للكون لا يخضع لأى مقررات .

وليس هناك قيود أو ضوابط أو حدود يقف عنها السلوك .

والأخلاق قيم متغيرة ترتبط بالمجتمعات والبيئات وهكذا فقد جرى الفسك
الغربي شوطاً بعيداً في الخروج من القيود وتحطيم الضوابط ، وإمتهان القيم التي
عرفتها البشرية منذ بعيد مستمدة إياها من الأديان والوحى والتوحيد والايان
ثم التمس لنفسه طريقاً آخر أخذ به ينش عن حقريات الوثنيات القديمة وفي
مقدمتها الهلينية والغنوصية ويحدد الأساطير والخرافات والأوهام والسحر
وأصول الأعداد وما عرفته المجوسية والفرعونية والبوذية من أفكار ومفاهيم
ليبعثها من جديد في قالب علمي ويضعها في إطار عقلي ، متخذاً من كل
قيم الأديان والتوحيد أساساً معارضاً ، وطريقاً مخالفاً ومنهجاً عكسياً .

ومن هنا جاءت نظرية فرويد في إعلاء الجنس وإعثاره مصدراً أساسياً
وواحداً لكل نوازع الانسان وتصرفاته متسقاً مع هذا التحدى الخطير الذي
واجه به الفكر الغربي في مرحلته الأخيرة للمسيحية وللدين عامة نتيجة لمفاهيم
دخيلة لم تكن من المسيحية المنزلة أصلاً . وإنما كانت مجموعة من الزيوف
أضاعوا الفلسفات والمذاهب خلال الأجيال الطويلة .

(٢)

تقوم نظرية فرويد على أسس خمسة :

(أولاً) أن الحياة النفسية للانسان ليست حيوانية لحسب ، ولكنها
تتبع كلها من الجنس المسيطر على كل أفعال الانسان وأن مرد السلوك الانساني
إلى الغريزة الجنسية .

(ثانياً) إن غرائز الانسان هي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه وأن الجانب
المسمى بالروح لا وجود له على الإطلاق .

(ثالثاً) الدين والأخلاق ليسا قيميا أصيلة في الحياة البشرية .

(رابعاً) الكبت الجنسي يصيب النفس بالعقد والاضطرابات ، وأن المرض العصبي ينشأ من الأمور الجنسية المكبوتة .

(خامساً) القيم العليا في نظر فرويد كلها خرافة وكذلك دهوات الرسل والأنبياء والمصلحين .

ولا ريب أن هذه الأسس الخمسة لنظرية فرويد إنما تمثل معاوضة كاملة للفطرة الانسانية .

(٣)

وقد اختلف مع فرويد زملائه الذين وضعوا معه نظرية التحليل النفسي (أدلر ويونج) في نقطة رد النوازع كلها إلى الجنس وانفصلوا عنه .

وتتلخص نظرية أدلر في النقاط الآتية :

أن الدافع هو الرغبة الملحة في التفوق .

أن الغريزة السائدة في الإنسان هي الرغبة في التفوق والسيادة وليس الحب إلا وسيلة لتحقيق هذه السيادة ، وهناك وسائل أخرى تتحقق بها هذه السيادة أيضاً لا علاقة لها بالحب الجنسي .

وإن لكل إنسان قصداً في الحياة وأن لكل إنسان تقريباً نقصاً جسيماً أو اجتماعياً هو الذي يدفعه إلى أن يعتاض عنه بكفاية أخرى إذا لم يستطع تصحيحه وأن العواطف لا تسوق الإنسان وإنما الإنسان هو الذي يخترع العواطف .

وعند أدلر أن الشعور بالنقص أهم في الأمراض العصبية من الأمور الجنسية التي بالغ فرويد في خطورتها . فالشعور بالنقص هو مصدر الأمراض العصبية .

ويقول أدلر : أن حافز توكيد الذات وليس الدافع الجلسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة . فهو يتعرض للتثبيط من قبل المحيط ، ومن قبل حساسية الفرد الخاصة ، وهكذا يكون هذا الحافز منبع كل إنتاج من جهة كما يكون مصدر السلوك الخاطئ . وعدم التلاؤم من جهة أخرى ^(١) .

(٤)

أما يونج فانه ينكر أن تكون اللبيد (الطاقة) جنسياً بكنيته ، فهو يتبدى مرة في شكل رغبة جنسية وأخرى في شكل ميل الى التفوق ، وعنده أن فرويد ميز شكلاً واحداً وميز أدلر شكلاً آخر ، وأن اللبيد يحدد مقتنفه الأول عند الطفل في أعمال التغذية ، إن مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء هو اللبيد ، ولكن يجب ألا يوصف بأنه وجسدي ، أبداً هل اعتبار أن الدافع الجلسي لم يميز نفسه بعد عن الميل الابتدائي للحياة . يقول يونج : كان فرويد يرجع سبب وجود العقل الباطن إلى كبت عنويات العقل الواعي غير المقبولة ، وهو بذلك يجعل الباطن بمجرد مستقر للذكريات المكبوتة والجنسية . وعند فرويد أن مسألة الجنس هي صناعة المتاهب .

ويرى يونج أنه لا توجد قاعدة واحدة تصلح للتطبيق في جميع الحالات النفسية .

وأن لكل نفس بشرية قاعدتها التي يصلح لمعالجتها ولا يلتقي اثنان في حالة واحدة وأن ظهر للنظرة الاولى أن الأعراض بينهما متشابهة والآقوال متماثلة وجملة رأى يونج : أن الجلس ليس إلا دافئاً واحداً من دوافع عديدة

• • •

وهكذا اختلف أدلر ويونج مع فرويد في نظريته في الجنس : ورفضا رأيه في العزيمة الجنسية في الطفولة وعمدة أوديب . فقد نسب أدلر أهمية العزيمة الجنسية للبذلة حيث أرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العقلية إلى مجرد الرغبة في القوة ودافع الإنسان إلى التعويض عن نقص في كيانه .

(٥)

وهناك تحفظات أخرى كثيرة على نظرية فرويد ومفهومه للجنس أوردها الكثيرون من العلماء . والبعض يرى أن نقطة الضعف الأساسية في فرويد كعالم هي أنه أخذ من دراسة نفسه وطفوانه قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة ، وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه ، وعن حياته ما ثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه كيهودى في النمسا المتعصبة ضد اليهود - قاعدة كل تصميماته ^(١) ويرى البعض بأن تخلقه ليس خلق العلماء ، أنه أشبه بمثلثي منه بعالم .

وهو من غير شك مخترع للفرضيات أكثر منه مجربا لها (وقد وجهت هذه الشبهة إلى ماركس أيضا) وقد أكدت الدراسات العلمية أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى : كالدافع إلى الهواء والشراب والطعام .

ثم تبين أن الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمرا ليس ممكنا لحسب بل ضروريا . وقد نظمت مسائل تصريف الشهوة

وضوابطها بحيث تستطيع كثير من الوسائل الروحية أو الرياضية أو الشعرية أو الموسيقى تنظيمها .

(٦)

راجع العلماء رأى فرويد فى أن القول بأن ضرب الطفل أو إرهابه مما يؤدى إلى كراهية الدرس أو كراهية الأهل ورددوا هذا الرأى ، وأكدوا بالبحث الميدانى أن ما قاله فرويد من أن معارضة رغبات الطفل فى صغره ومحاولة الأهل فى أن يوضوه على النظام وأصول السلوك المتعارف عليه يؤثر فى تصرفاته إذا ما كبر . وخرج العلماء بعد دراسات طويلة بمعارضة هذه الآراء وبعدها عن الواقع ، وقد أجرى الدكتور اسكندر توماس عدداً من البحوث بمعرفة فريق من الاطباء النفسيين انتهى فيها إلى : أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة ، .

ويقول العلماء فى تقريرهم أنهم درسوا أحوال (١٥٨ طفلاً) فتيين أن الأولاد نشأوا أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود العكسية التى فرضت عليهم ، ودل ذلك على أن مساك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل وأن ما يوصف بالقهر عند فرويد لم يكن له أى أثر فى حياتهم ، وقد أقر أحد العلماء الأمريكيين بعد دراسات طويلة ضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل .

(٧)

إن دعوى فرويد الاساسية هى أن العصاب (المرض العصبي) ينشأ عن أمور جنسية طفولية مكبوتة قد رد عليها بعض العلماء بأن الامور الجنسية الطفولية المكبوتة ليست وقفا على الذين أصيبوا بعصاب فى وقت ما فى حياتهم ولكنها موجودة عند كل إنسان وتشكل عاملاً هاماً فى حياته وقد تبين من الدراسات العلمية أن « الكبت » ليس هو بالصورة العنيفة الذى يصوره بها

فرويد . وأن الاديان والاخلاق دعنا إلى كبت الغرائز وضبطها وتوجيهها
كما دعنا إلى معارضة كل النزوات والشهوات والمحرمات . .

وأن فرويد إنما يقصد بآثاره تلك المشاعر المتفجرة الواهمة حول الكبت
إلى معارضة تعاليم الدين والاخلاق التي أقرت منذ القديم سلامة كظم الشعور
ومعارضة الشرور ولم تؤيد أبحاث الاطباء والعلماء ماذهب إليه فرويد من
امتناع الإنسان عن إشباع الشهوة الجنسية أيصيبه بالمستيريا . أو أنه إذا صد
عن المرأة فإنه يتحول إلى الأم كما جاء في أسطورة أوديب أو إلى حب النفس
على نحو ما جاء في أسطورة (نارسيس) .

وقد ثبت على التاريخ أن كثيرين لم يحققوا المطلب الجنسي ومع ذلك فانهم
لم يصابوا بالعصاب أو المستيريا .

(٨)

من الاعمدة التي قامت عليها نظرية فرويد مسألة الكبت ، ،
وقد قال العلماء أن الكبت ، أمر عادي عند كل انسان . فنحن نكبت
كل حين ، ولا نستطيع أن نتطلق وراء كل نزوة وتتبع كل رغبة ،
ولكن هناك استعدادات خاصة وبنيات مهيأة ، لكبت مرضى ، ولا يمكن
للكبت أن يحدث رجة في الكيان إلا إذا كان الامر المكبوت جديما وكانت
البنية مستعدة .

(٩)

ويقول فلوجل^(١) في مواجهة التحول الخطير الذي أحدثه فرويد في مهمة

(١) جون كارل فلوجل في كتابه : الانسان والأخلاق والمجتمع .

علم النفس : « إن موقف علم النفس الآن أشبه بموقف الطبيب شهد مريضاً بين الموت والحياة دون أن يستطيع تشخيص الداء عن غير طريق الحدس والتخمين .

« إن مكتشفات التحليل النفسى ونظرياته فى ميدان الغريزة الجنسية ، قد صدمت شعور كثير من الناس ، فعلماء النفس يحاولون فهم البواعث التى ترتكز عليها القيم الخلقية والدينية والجمالية وإنهم فى خلال المحاولة قد يحطمون هذه القيم حينها بل لعلهم يعملون فعلاً على تحطيمها . فالحذر من النتائج وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد القديمة المقدسة وقيل أن علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين بتلك العقدة التى يحاولهم الحديث عنها ولذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبة بالهوى قائمة على معرفة مبسرة .

« وعلم النفس علم مهمته مقصورة على وصف حقائق الحياة العقلية وتصنيفها فلا شأن له بالقيم ذاتها ، .

(١٠)

أثبت العلماء أن ظاهرة « عقدة أوديب » والعقد الأخرى ليست طبيعية المنشأ وأنها ظاهرة اجتماعية قد تكون فى مجتمع وتنعدم فى آخر ، وقد أثار مالىنوفسكى إلى أنه لم يجد لعقدة أوديب أثراً يشير بوجودها فى قبائل جزر تروبريانند أو جزر الميلاينزيا .

(١١)

أعلن العلماء خطأ افتراض فرويد أن الإنسان فى جوهره حيوان كغيره من الحيوانات أو أن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى الأساس المادى الصلب لسلوكه فى الحياة .

كما أعلن العلماء خطأ محاولة فرويد في إثبات أن الإنسان عبد نزواته وغرائزه الجنسية أو أن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان .

(١٢)

تعددت وجهات النظر التي ترفض افتراض فرويد إن للغريزة الجنسية المنزلة الأولى ، وحد تلاميذه من افتراضه بتسمية هذه الطاقة : « اللبىد » التي دعاها الطاقة الجنسية فسموها بأسماء مختلفة : منها قوة الحياة ، أو الدافع الحيوى ، كما سماها برجون « إرادة القوة » ، وأعظم ما وجهت به نظرية فرويد من معارضة : إن الحضارة قد عملت بالسعى المنظم على مدى العصور لتحديد الغريزة الجنسية وضبطها والإفادة منها .

وقد كشف العلماء عن أن هناك غرائز ثلاث أخرى أقوى من الغريزة الجنسية هي البغض والتعدي والتحدى وهي تسبب بتوترها جميع الاضطرابات العقلية في العالم .

(١٣)

أعلن إيفان بافلوف أن البيئة هي المسئول الأول عما يصيب الإنسان من انحراف نفسى أو عقلى . وقال إن نظرية العالم اليهودى « فرويد » التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحثة : هذه النظرية ليست سوى معول هدام لعقول الشباب ومخدر يميت لنفوس الناس وقد أعلن الدكتور ناتان كلاين الأمريكى هذا فى مؤتمر قدمه إلى أكاديمية العلوم الأمريكية .

ثانيا : مصادر فرويد

ما هي المصادر التي اعتمد عليها فرويد فى فروضه وبنواته :

ولماذا ركزت الدعايات على آراء فرويد وحده دون غيره .

لكنني نستكشف هذه الجوانب علينا أن نعرف أن فرويد كان يعيش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في مجتمع النساء وهو مجتمع مسيحي متعصب يكره اليهود ويحتقرهم وقد أقام فرويد أكثر من سبعين عاماً في مدينة فيينا لا يخالدها (وسكن في منزل واحد أربعون سنة) ودخل منها بعد ما ضمت ألمانيا النمسا إليها وفرض النازيون في هذه البلاد سلطتهم على اليهود وقيد عاش حياة صارمة انفصل فيها عن كل الناس فلم يعاشر سوى مرضاه كما انفصل عنه كل من اتصل به من العلماء بعد قليل من الزمن لأنه كان صارماً لا يقبل مراجعة آرائه ولا يهتدي في تفكيره إلا بآرائه الخاصة^(١).

وقد أشار كثيرون إلى أن يهودية فرويد كان لها دخل كبير في صليخة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليقاته، ذلك لأنه كان ينتمي إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب والطمع نعين القومية والدين والمصالح الاقتصادية والحنين إلى الماضي، فإذا أضفنا إلى هذا الأمر الواضح في فكره أنه سلخ خمسين عاماً من حياته لا يقابل فيها غير مرضاه ولا يعرف من الإنسانية غير أفرادها المضطربين الناعسين، عرفنا من ثم كيف نظر إلى الحياة نظرة مليئة بالتشاوم، أما شخصية فرويد نفسها فإنها لا تثبت لما يثبت له شخصيات العلماء المنجردون للعلم حتى وصف بأنه كان مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة ولم يستطع أن يشفي عقله الباطن من هذه العقد النفسية إلى آخر حياته، كان ينسى الأسماء ومنها اسم أحد معارفه الدكتور فرويد، وكان يتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فحرقها وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى فمات في بداية الحرب العالمية الثانية، وكان يدخن عشرين سيجارة في النهار ليهدى من سوراته العصبية.

(١) صديق شيبوب • بحثه عن فرويد (الرسالة ١٩٤٠)

(٢) دكتور فاخر عاقر في بحثه عن فرويد

وكان عرضة للاغماء على أثر بعض المفاجئات ، وكانت مرارة طابعه خلة ملازمة له في علاقاته مع غيره ، وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى دلائلها في سريره الباطنة ، وكان له ضروب من القلق تتم على باعث من بواهب الحيرة المستكومة ، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب التشبث بالعقائد الدينية والعادات الخلقية ولكنه يتشبث بالنفسير الجنسي للعقائد والعادات تشبثاً يربى في حرارة إيمانه وشدة على تعصب المتعصب للدود لمذهبه ودينه : ومن قوله ليونج : عدنى أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية غير أن يونج لم يلبث أن تزحزح تفكيره شيئاً فشيئاً من ذلك الإغراق في المصيبة الجنسية التي تحيط بكل حله وتتغلغل وراء الأسرار في أعماق كل طوية وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما عاينه يونج ، (١) .

(٢)

كان إصرار فرويد على توجيه نقده المر وخصومته العنيفة لكل ما يتصل بالفطرة الإنسانية هو مصدر الشبهة التي دفعت العلماء إلى البحث وراء خلفيات ودوافع نظرياته التي حاول أن يصوغها صياغة علمية براقية وخاصة حملته على الأخلاق : حيث قرر في عنف وعناد أن الأخلاق تقسم بطابع القسوة حتى في صورتها العاذية ، وهي محاولة تضع الإنسان في درجة الحيوان من حيث غرائزه وميوله وحاجاته المضوية .

وقد بلغ ذلك بأقرب الناس إليه إلى الانصراف عنه : أدلر ويونج وفي مصر قال تلميذه الأول سلامة موسى عنه : إن ماتعلناه من فرويد لا يمكن أن يسمى علماً ، وإنما أكثره فلسفة وأقله علم . وقد وجه كلا بارن (العالم النفسى المعروف) انتقاداً لآراء فرويد في التحليل النفسى وشبه قائمها واتباعه باليوم لأنهم لا يرون

(١) من نصوص الاستاذ عباس عمود العقاد في كتابه (يوميات) .

الا ما شتمل عليه كهوف اللا شعور. ووصف هذا أحد الباحثين أصدق ووصف حين قال : « هناك الكتاب الذين تملكهم فكرة الجنس ويندفعون فيها إلى حد بعيد، وهناك الكتاب المرضى بأعصابهم فيصورون لنا عالماً شاذاً ليس فيه شيء سليم ، ومن الحق أن فرويد في كتابه : مستقبل وهم وعلة المدنية حاول أن يفسر منهجه في فهم كل القيم والأخلاق من منطلق مادي صرف .

وقد رسم من خلال كتاباته صورة قائمة للبشرية : حين افترض أن الإنسانية مثلت أباه الأول ليستمتع الأولاد بأهم في شهوة وجنس ودفن مسعور ، ولكن ما كادوا يصنعون ذلك ويرون إياهم جثة هامدة حتى اعتراهم الندم على فعلتهم الآثمة . ثم نظروا الأبناء فيما بينهم فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه وحده ، إلا إذا قتل الآخرين ، ومن ثم نشبت معركة عنيفة لا تؤدي إلى تحقيق المصالحة المنشودة فانفقوا فيما بينهم على أن يتركوا أمهم .. الخ .

وقد كانت هذه إحدى نقاط الضعف في فرويد : . اعتياده على الأساطير الإغريقية في محاولة تصوير واقع مجتمع بعد خمسة آلاف من السنين . وقد أخذ العلماء عليه ذلك وأخذوا عليه أنه كعالم قد اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة .

« وقد عارض يونج مكذوَجُل نظرية فرويد في العقل الباطن وأثبت أنه ليس إلا خرافة . وقد نوقش فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما أخيراً . وان آراءه في التحليل النفسي والأرواح والرؤيا كانت مثار اضطراب حتى في نفسه هو ، .

(٣)

كانت هناك محاولات علمية في البحث المقارن تحاول أن تربط فرويد

(٩٠ - الأيدولوجيات والفلسفات)

باليهودية التهودية وأهدافها البعيدة . ولكن هذه المحاولات لم تكن تجد من الدليل الحتمى ، ما يؤكد دعواها ، غير أنها كانت تجد من « القرائن » ما يؤكد ذلك ، غير أن الوثائق التى تسربت فى السنوات التالية للنصف الثانى من هذا القرن قد كشفت هذه العلاقة وأكدتها .

وكانت القرينة الأولى لهذه العلاقة ما جاء فى بروتوكولات صهيون :

« يجب أن نعمل انتهاز الأخلاق فى كل مكان فيسهل سيطرتنا . إن « فرويد » منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس السكى لا يبق فى نظر الشباب شئ مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه . ومن هنا ظهر أن فرويد يهدف فى طريق مخطط الصهيونية العالمية إلى القضاء على الدين والأخلاق مكملًا حلقة واسعة :

× ماركس فى مجال التاريخ والاقتصاد .

× دوركايم فى مجال الاجتماع .

× لينى بريل فى مجال الأخلاق .

× فرويد فى مجال النفس .

وفريد هو الذى قال أن التسامى نوع من الشذوذ وأن الأخلاق تنسم بالقسوة وهو الذى أثار شبهة انطلقت كالقذيفة : هل الأخلاق تعوق التطور أو النهضة أو الحضارة .

وقد صور خلفية أهداف نظرية فرويد عالمًا من كبار العلماء فقال :

« ولما كان من أهداف الصهيونية القضاء على النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيادة على العالم والسيطرة عليه وتسخيرها ، لابد من تخريب العالم أولاً قبل السيطرة عليه عن طريق الجمعيات السرية المسماة الماسونية ، وكذلك

السيطرة على الفكر الغربي واحتوائه وتوجيهه إلى أهداف الفكر الصهيوني وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الإنسانية واستغلال الثقافة والحضارة في تحقيق هذه الأهداف .

« وذلك بمحاربة الأديان جميعاً والكثلكة بنوع خاص والعمل المنظم على بث روح الإلحاد في العالم .

« وتنظيم جماعة من الناس يرونهم أحراراً لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نوادي العراة من أجل هذا تتخذ الماسونية من المدنية المسيحية موقفاً عدائياً ، وترى أن المسيحية تقف في وجهاً عائقاً أخلاقياً يحول دون نجاح دعوتهم فعندما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال وتعلمهم مبادئ تقديس أعضائهم التناسلية ووقفت آداب المسيحية في وجههم ، صنعوا برجال الدين المسيحيين الأفاضل من قتل وتخويف .

« وجعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقاً وأسلوب عمل يهدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقي ويحوّلها إلى حياة مرحلة سحيقة من التخلف .

ويقول الأستاذ محمد خليفة التونسي في مقدمة كتابه عن بروتوكولات صهيون :

« مهدت الصهيونية لاستيعاب الرأي العام المسيحي ابتداء من ظهور الكتللكة منذ ٤٥٢ سنة واستخدمت الصهيونية أسلحتها الدعائية في أعقاب حركة الإصلاح الديني بالعالم الغربي الحديث . ووقفت وراء الزعامات العلمية، ووراء عالم الطبيعيات دارون ونقلت مذهبه إلى تشكيل المجتمع الإنساني في طبيعة « الخلق » كما وقفت وراء رأى فرويد في نظرية الجنس ووراء إدوركيم الذي يقول ان توازن نظام الأسرة نظام مصطنع .

ووراء نيتشه وهو ينادى بسيادة القوة واللارحمة . وكان مهمم السيطرة على الفلسفة والفكر ، فالأغلبية الساحقة من هيئات التدريس من اليهود . والعمل على السيطرة على الفكر العالمى عن طريق التعاليم والاعلام ، والقضاء على كل فكر سليم وزرع الشك والريبة للوصول بالفكر البشرى إلى مرحلة الحيرة .

ومن يتابع تاريخ الفلسفة يرى دور اليهود فى ذلك :

« لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه نحن الذين ربناهم من قبل ، » .

ومن يتابع تاريخ الفلسفة يرى دور اليهود (واضحاً) فى ذلك فهم ينشرون الفلسفات التى تحطم وتدمر القيم الإنسانية .

« وسيجموند فرويد : هذا الرجل أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطياً كاملاً ، ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ خطأ يهودياً جباراً حين أراد أن يصم الجنس البشرى بأنه جنس متحلل ينطوى على أسوأ وأخس الرغبات حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد أن يقتل أباه وبني فلسفته ومذهبه على هذه القاعدة الرئيسية حتى جعل الناس جميعاً يشكون فى كل فضيلة وكل أمر وكل عاطفة رقيقة . »

(٤)

إذا كانت محاولات ربط فرويد والفكر الفرويدى باليهودية التلويديّة فى أول أمرها قرائن فانها فى سنوات ما بعد ١٩٤٨ قد أصبحت «حقائق» فقد كشفت كتابات كثيرة بعد ذلك عن هذه الرابطة بأكثر من وثيقة وسند ودليل وبرهان .

من أبرز هؤلاء «دافيد باكان» الذى كشف عن الفكر الفرويدى من

أثار التراث اليهودي الصهيوني ، مما كان بداية أساسية لتأكيد هذه الصلة ، ثم جاء كتاب (ترود وايز روز مارين) « البقاء اليهودي » ، مصوراً للأسلوب التي حاولت به اليهودية الصهيونية احتواء العقل الغربي .

ومن هنا ظهر بوضوح الصلة العضوية بين فكر فرويد وأهداف نظريته وبين المخطط الذي رسمته بروتوكولات صهيون .

يقول الدكتور صبرى جرجس فى كتابه (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدى) .

« وإذا خشى فرويد ما قد يؤدى إليه مفاهيم النظرية الحديثة من اضطدام بالصورة التى ألفها الناس عن أنفسهم فقد أسرع يعلن عن موضوعيته السكاملة وتجرده من أى ميل أو انحياز دينى أو حضارى ، بل هو خروجاً على أصول اليهودية التقليدية ، قد أعلن عن إلحاده وعدم إيمانه بالله والدين ، إمعاناً منه فى التدليل على موضوعيته وتحرره من جميع المؤثرات الارغبة البحث عن الحقيقة والحقيقة وحدها .

« وقد يكون فرويد أراد الموضوعية حقاً ، ولكن مع الافتراض بأنه أرادها ، فإن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : هل كان بوسعه أن يحققها ؟

هل كان من اليسور له ، وهو يخطط للإنسان شخصية ويرسم له طريق حياته ، أن يتحرر من يهوديته ومن أثر التراث اليهودي الصهيوني الذى كان سائداً على نحو قوى فى البيئة التى نشأ وعاش فيها ، هل كان مستطيعاً وهو ينقد الأسس الدينية والاجتماعية والخلقية التى قامت عليها حضارة الغرب وهى التى تسمى أحيانا الحضارة المسيحية أن ينسأخ عن التراث اليهودي الصهيوني الذى نضح على الفكر اليهودي فى مختلف العصور .

ثم يقول : إن يهودية فرويد كانت أقوى بكثير من رغبته في الموضوعية أو على الأقل قدرته عليها ، لأن حركة التحليل النفسي التي أنشأها إنما استمدت جذورها من التراث اليهودي الصهيوني . بل إنه يرجو أيضاً أن يبين أن المفاهيم الرئيسية لهذه الحركة إنما استقت من نفس النبع الذي استقت منه الحركة الصهيونية طاقتها وتوجيهها . وإن الحركتين سارتا بعد ذلك جنباً إلى جنب لكي تصلا آخر الأمر إلى غاية واحدة : الالتقاء بشعب الله المختار على أرض الميعاد .

ويقول : إن كثيراً من مفاهيم التحليل النفسي وإن عزيت إلى فرويد في الاعتقاد الشائع فإنما هي قد استمدت منابعها من الفكر اليهودي الصهيوني . ويقول : أما أنا وقد تجمعت لدى هذه الحقائق مركزة غير مخففة فقد جذبت انتباهي حقيقتها الكبرى : تلك هي العلاقة الوثيقة بين فرويد رجـل العلم والتحليل النفسي : الفكر العلمي من ناحية وبين التراث اليهودي الصهيوني والصهيونية : العمل السياسي الديني العنصري من ناحية أخرى . وهي كما تبدو لي ، ليست علاقة مصادفة ولكنها هي علاقة أصل ومسار وهدف .

ثم قال : كيف لم ينتبه أحد وقد ناهز عمر التحليل الفرويدي سبعين عاماً : كيف لم ينتبه أحد إلى هذا الأمر من قبل . كيف فانت هذه العلاقة بين الفكر التحليلي والفكر الصهيوني جميع من شغلهم التحليل ثم حاول الإجابة على هذا السؤال فقال : لما بدأت مفاهيم التحليل في الظهور في أواخر ذلك القرن وأوائل القرن العشرين ، كان الإطار الذي قدمت فيه لإطاراً علمانياً له صورة الموضوعية العلمية ، ثم ما لبثت الأبواق الخفية والمقنعة للدعاية اليهودية الصهيونية أن أحاطت بهذا الفكر وصاحبه بهالة من النزاهة الفكرية منعت حتى أعنف معارضته من أن يستريبوا في أصـوله وإن أنكروا مفاهيمه . ومن ثم انصب النقد لمفاهيم التحليل عليها من حيث إنها مفاهيم «علمية» تخضع

لقواعد النقاش الموضوعي . وعلى الرغم مما تسرب من كتابات فرويد وأصحاب فكره من عبارات تكشف عن يهودية صهيونية واضحة التعصب .

وكان خليفاً أن تستثير الريبة فيما تخفى وراءها ، فقد فات مدلول هذه العبارات الأكثرين من الناس ، حتى رفعت الصهيونية العالمية كل الأقنعة التي كانت تستر وراءها وظهرت واضحة لاخفاء فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ثم يشير الدكتور صبرى جرجس إلى أن هدف الفكر الفرويدي المنبعث أصلاً من التراث اليهودي الصهيوني والمتجه إليها هو : تقويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغرب ، .

ثم يقول إنه إنما أراد أن يكشف حقيقة أساسية هي أن التحليل النفسى الذى يعرفه العالم أجمع ، علماء ولا شئ غير العلم ، لا يكشف مفاهيمه الجوهرية كلها رجل واحد هو فرويد ، إنما هو فى مضمونه الحقيقى ، داخل الإطار اليهودي الصهيوني الممتد مساراً عبر الأجيال ، . ثم يشير الدكتور صبرى جرجس إلى حقيقة أخرى هي أن هرتزل وفرويد كانا صديقان وإنهما طالما تلاقيا فى مجال الفكر والعمل ، وإنهما عاشا فى عصر واحد .

ويحاول الكاتب أن يربط بين دور فرويد فى مخطط هرتزل بما يوحى بأن مخطط فرويد كان حقيقة هنصراً أساسياً فى العملية كلها .

(٥)

لم تكن مدرسة التحليل النفسى هي المدرسة الوحيدة فى علم النفس المعاصر . بل هي واحدة من خمس مدارس . (هي مدرسة التأمل الباطنى

وللمدرسة السلوكية والجشطلت (مدرسة الشكل) والمدرسة الغائية ومدرسة التحليل النفسى) . ولم يكن فرويد هو كل شيء . فى مدرسة التحليل النفسى فقد ظهر الى جواره ادلر ويونج وغيرهم . وهى نظريات متعددة متضاربة تذهب الى كل بعد من الأبعاد ؛ فلماذا هذا الاهتمام البالغ بأراء فرويد وحدها ، ولماذا هذا التركيز عليها وإذاعتها ونشرها مع أنها أبعد الآراء عن الفطرة وأعقدها وادعائها لإثارة الطبايع الإنسانية وإفسادها .

ذلك هو الهدف من المخطط الذى يدفع هذه الآراء ويفرضها على الآداب والفنون والمجتمعات ومناهج الدراسة . ومع ذلك فقد وجدت آراء فرويد معارضة واثمة ، وكشفت أبحاث العلماء المتخصصين فى نفس الميدان الى أنه يعيق الطبايع ويعارض أبسط بسائط النفوس ويخوض بالشرية طريقاً مظلاً قاسياً الى السكوف والمفاوز .

وقد شهد د فرويد هذه المعارضة فى حياته ثم لم تلبث نظريته مع الزمن أن فقدت لمعانها الخاطف ، وتكشفت الحقائق التى تعارضها سواء عن طريق عمليات التجريب والإحصاء ، أو عن طريق العلم نفسه . ومن أبرز هذه المثل د أن الأطباء الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد فى مدينة شيكاغو وعدتهم نحو أربعة آلاف طبيب قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه . يتولاها رجل مسئول عن مركزه العلمى والرسمى هو الدكتور برسيغال بيلى مدير معهد النفسيات بولاية إلينوا .

وخلصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها وإن آرائه لا تعنيف شيئاً الى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسانية الى أغوار الباطن . ويهمل جانبها المنطقى الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتفوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة وأنه لمن العجيب أن يكون الدكتور أرنست

جورنس تلميذه الوحيد من غير اليهود،^(١) .

* * *

كما ألقى العالم النفسى (أبيليوت سليتر) عام ١٩٧٠ فى المحاضرة السنوية للجمعية الطبية النفسانية فى انكارا فى لندن بحثاً كان بمثابة تحول خطير فى نظرة السيكولوجين إلى فرويد ومفاهيمه .

قال : ان التحليل النفسى ليس علماً بل أسطورة (مثنولوجيا) ولدت فى رحم خصب من الاعلانية ، وهو الرحم الذى ترعرعت فيه كل فروع العلوم .

وأشار الى أن علم الأمراض العقلية كمثل العلوم الطبية الأخرى يتطور كعلم وليكنه سيميش كفن . ودعا الى الملاحظ الصادقة العلمية للظواهر الحقيقية من أجل علم نفسى دقيق مثلاً دعا ما يؤثر من قبل الى نبذ الملاحظات الدقيقة التى يمارسها أتباع فرويد فى تحليلاتهم للمجهول وغير المرئى .

وهاجم سليتر التحليل النفسى الفرويدى قائلاً : انه سوف لن يكون له مستقبل ولئى يكون له مكان حتى فى الحلم الذى يراود العلماء وهو التوصل الى انصهار جميع علوم الحياة فى علم واحد .

* * *

وفى الحلقة الدراسية التى نظمتها أكاديمية العلوم فى نيويورك وضمت ١٨ فيلسوفاً استتنت الحلقة علم التحليل النفسى لفرويد من ميدان العلوم .

وكانت وكانت وجهة النظر أن نظرية خلاصة كنظرية فرويد برزت قبل نصف قرن ، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكاتسه وأسسها ، ولكنها لا تزال تدعو للنجل والرائه لأنها لم تتعد حدود النظرية . هذا بالإضافة الى هجمات (ايزنك الشهيرة) وهجمات (ميداوار) على الفرويدية ، فإن (رنسور) الذى كان من أتباع فرويد المخلصين خرج مؤخراً بأن التحليل النفسى لا يمكن أن يعتبر علماً وانه مجرد نشاط استنباطى وتأويل .

وقال ستيلر : ان نظرية فرويد مزقت علماء النفس ، وان علم الأمراض النفسية يعانى من جرح عميق أحدثه جسم غريب هو نظرية فرويد وهو جسم غريب لسببين :

الأول : انه لا يمت للعلم بصلة .

الثانى : لأن ما يقدمه ويحققه للمريض يختلف عما يحققه العلم الطبى فى أى فرع من فروعها ، فإزالة هذا الجسم الغريب كقيل باندمال جرح العلوم النفسية .

وبالجملة فإننا مع الأستاذ نغرى الديباغ الذى استعرض هذه الآراء فى مقاله : الفرويدية وهل قاربت الزوال : حيث يقول :

من كل ما تقدم نرى أن ما يؤخذ على نظرية فرويد هو أنها غير علمية ، ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة ، وانها أحدثت الفقرة والنزاع من علماء النفس وانما أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والاتباع والمعالجون على طريقتها .

وقد اعترف فرويد فى مناسبات عديدة أنه لم يكمل البحث ولم يدع أن نظريته كاملة مكيفة بذاتها .

لومن الطبيعي ألا تتوقع بقاء نظرية أسطورية خرافية كما قال مهاجموها
طيلة هذه السنين دون تصدع أو إنحدار أو تدهور .

(٢)

ثالثاً : نظرية الكظم في الاسلام

تحاول نظرية فرويد في علم النفس أن تصور « الكظم » بأنه أخطر
الامراض النفسية التي يتعرض لها الانسان والتي تؤدي به إلى أمراض
النورستانيا والجنون ويحيط فرويد هذه القضية بتحويل كبير ويعزو إليها
خواف كثيرة من وراء الوصول إلى القول بإطلاق الغرائز وإطلاق التربية من
جميع قيود التوجيه والعقوبة والزجر والتخويف .

وهدف فرويد واضح ومعروف وقد تحققت نتائجه في ظاهرة التفريط
الواضحة التي تأثر بها كثير من الأسر والآباء في مواجهة الأبناء خوفاً من
خطر غير محقق وقد أطلق فرويد على الكظم اصطلاح « الكبت » وقد دعا
الاسلام إلى الكظم ولكنه لم يعرف الكبت بمفهوم فرويد ذلك أن الكبت
نفسه مضاد لفكرة الاسلام عن الانسان جملة ، فالاسلام يعترف بالانسان
على حقيقة ، ويعترف بغرائزه ورغباته ولا يحرمه من تحقيقها ولكنه ينظمها
على نحو يحفظ للانسان وجوده ويحول بينه وبين أن يقتل نفسه أو يقتحم
حق غيره .

وإذا كانت رغائب الانسان هي لذة الطعام ولذة الجلوس ولذة البقاء
وغرائزه ولا تعدو هذا فإن الاسلام قد قبل هذا وأقره ووضع له الضوابط
والمعايير وأباح له التحرك من داخلها ، ولذلك فليس في الاسلام « كبت »
يحمى من ناحية ، وإنما جاء الكبت في نظرية النفس الحديثة وفي رأى فلاسفة
الغرب مصدر الفكر المسيحي الأوربي الذي كان مسيطراً على المجتمع الغربي

والذى أزرقه مفاهيم حادة لا تقبل المعارضة أو المناقشة أو الخروج عنها :
تلك هى مفاهيم الرهبانية والعزوف عن الطعام والجنس والبقاء .

وقد حملت حقائق التاريخ صوراً غريبة غاية الغرابة فى سريان هذا التيار
واستشرافه وإتساعه حتى أصبح ظاهرة خطيرة غاية الخطورة ، على المجتمع كله
غير أن النظرة العقلية والعلمية لم تلبث أن واجهت هذا الاتجاه واكتشفت أنه
ليس من الفطرة أو مما تقبله النفس الانسانية .

ومن هنا كان الهجوم عليه ومعارضته ، بعد أن أُلقيت إلى الفكر الأوربي
حقائق الاسلام ومفاهيمه ، فلقد فهم الاسلام حقيقة الكائن البشرى ولم
يطلب منه ما هو فوق مستطاع طبيعته وتكوينه الخلقى ، بل دعاه إلى ترويض
الوحش المكامن فيه ، ومن هنا كانت دعوة الاسلام إلى الكظم .

ولما كانت النفس الانسانية قادرة على أن تدافع أهوائها وأن ترد
بعض رغائبها من خلال إيمانها بالله وخشيته ومن خلال إيمانها بالمسئولية
والمحاسبة والالتزام الأخلاقى ، وتقدير الجزاء الآخر فى يوم البعث والحساب
فإن الاسلام يلقيها دائماً إلى هذا ويدعوها إلى أن تتحقق من غلواء إندفاعها
وراء مطالبها .

ويرى الباحثون أن تهذيب طبيعة الكائن الانسانى طريقين :

أحدهما : كبت نوازعه ، وهو ما عرفته الفلسفة المسيحية الأوربية أو
إعطاء هذه النوازع فرصة الممارسة مع تمكينها من الفضيلة وإشراجها إياها وهو
ما طبقه الاسلام^(٢) .

(١) الاتمان بين المادية والاسلام .

(٢) يتصرف نفس المفسر .

(٢)

وحين دعا الاسلام إلا الزواج إنما كان يضع الأساس الممكن لضبط
الغريزة الجنسية والحيلولة بينها وبين الكبت ، فهو الأسلوب الواقعي في
مواجهة طبيعة الانسان وغرائزه على نحو منظم نقي . بما يحقق دفعة الجسد
المتجددة ، ويرفع النفس الانسانية عن البحث حول تصريف الطاقة بأسلوب أو
بآخر بما لا يرقى إلى مستوى الزواج .

ولقد رفض الاسلام في صراحة أسلوب إخماد شهوة الجسد ، أو القضاء
عليها وضرب الرسول المثل بنفسه فقال أنه ينام ويأكل ويتزوج النساء وأنه
بسلكه هذا يرسم للمسلمين الصورة المعارضة لكل مفهوم الانقطاع أو الرهبانية
أو الزهادة التي تضاد الطبيعة البشرية والتي توجد مقاومتها الصراع ، أو
الكبت وما ذهبت إليه الفلسفة المسيحية في هذا المجال لم يكن هو الدين الحق
المنزل ، وإنما كان التفسير البشري والتحول التي طرأ على المفاهيم فنقلها من
الفطرة الخالصة إلى تعقيدات المضادة للنفس البشرية .

د أن نظرة الاسلام إلى النفس البشرية هي النظرة التي ستبقي مع الطبيعة البشرية
وتسايرها ، والاسلام يعترف بالكائن البشري كما هو بنوازه وميوله الفطرية
ولكنه يهذبها ويضع لها الحدود في الدائرة التي تحقق مصالح المجتمع ومصالح
الفرد ، ثم هو يطلب من النفوس أن تتسامى وتدفع ولا يفرض ذلك فرضاً
بل يفرض إلى الحد الأدنى الذي لا تصلح الحياة بدونه ويترك المجال بعد
ذلك للسمو والتطهير تطوعاً لا فرضاً ،^(١)

* * *

والاسلام على هذا النحو لا يتعرض لمفهوم الكبت التي تفرضه الرهبانية

أو عدم إباحة الطلاق ، أو وقع الجسد وقهر الشهوات على نحو لا تقبله النفس البشرية ولا تستريح إليه .

والمسلم حين يعترف بالطاقة الجنسية يتحرر من الكبت ، ولكنه حين يكظمها لظرف أو لآخر فإنه لا يتعرض لخطر ما ، وقد دعا الاسلام إلى الكظم في حالات عدم القدرة على الزواج ، أو غيرها ، ولقد أثبت العلم الحديث أن هذه الطاقة - بخلاف طاقة الطعام - يمكن تأجيلها ويمكن صرف النظر عنها ، فترة ما أو طيلة الحياة . ولقد دعا الاسلام إلى احتمال الكظم بالأعلاء والتسامي ، وفي مقدمة الإعلاء الصوم . فالاسلام يقرر حقيقة وجود الطاقة ، ويقرر قدرة الانسان على تأجيلها حتى تتاح له الظروف الملائمة ، وينظر إلى إطلاق الطاقة إلى غير الطريق الطبيعي - الذي هو الزواج - عمل مجرم ، ومخالف لحدود الله ومن ثم فإن الايمان قادر على أن يكسب المسلم الصبر عليه والكظم عنه .

ولا تكون الطاقة رجس من عمل الشيطان إلا في حالة الخروج بها عن الأسلوب الصحيح الذي قرره الاسلام ، إلى أسلوب آخر يخرج عن حدود الله .

وحيث يؤمن الانسان في عمق نفسه أن هذه الطاقة حقيقة وأن كظمها مستطاع وطبيعي فإنه لا يحس بمقعدة ما أو بخطر ما . وحين يعترف الاسلام بواقع النفس البشرية وطبيعتها يفسح لها المجال الحقيقي للحركة ، عن الطريق المشروع ، وليست تلك الضوابط قيوداً بقدر ما عليه خطط للمحافظة على النفس وعلى الغرض وعلى المجتمع نفسه من اضطرابه بمحظروا حق له أثره البعيد في تكوين الأفراد وتشكيل المجتمعات وهو الزنا الذي حرمه الاسلام تحريماً قاطعاً ولم يجعل في أي نص من نصوصه أي بادرة إلى تقبله ، وشأنه في ذلك شأن الربا في المعاملات الاقتصادية .

وقد نظر الاسلام في هذه المحرمات والضوابط إلى مصالح الفرد من حيث

هو فرد له طابعه الأصيل في المحافظة على كيانه وأن نظرة إلى المجتمعات التي
تفاوتت تحت تأثير خطأ التحريم والمنع ، وخطأ الإباحة والإنطلاق لتكشف
بوضوح عمق أسلوب الإسلام ، ومنهجه في بناء المجتمع السليم القادر على
الحياة ومغالبة التحديات والاستعلاء على مفاهيم الحيوان في نفس الوقت الذي
يستعمل فيه على مفاهيم الزهادة والرهابية .

ولقد حرص الإسلام بهذا التنظيم وهذه الضوابط على حماية الجسم
الإنساني من التدمير الذي يجرى . بنتيجة الإندفاع وراء الأشباع الدائم ، وفتح
باب التفرغ للطاقة الحيوية ، فهي في إطلاقها والاسراف في إنفاقها تفسد العقل
وتجعل الفرد عرضة للانهار ثم هي في نفس الوقت تحافظ على كيان المجتمع
وتماسكه وقدرته على مغالبة الأحداث .

ولا شك أن لشهوة المجلس غاية هي تجدد المجتمعات بالنسل وليست هي
غاية في ذاتها ، وحفظ النوع البشري . ومن هنا كانت عملية الكظم والاهلام
والضبط التي تحفظ للفرد كيانه وللمجتمع بقاءه .

الفصل الثاني

نظرية النسبية الأخلاقية

تطورت الفلسفة الأخلاقية في الفكر الغربي والمجتمع الأوروبي على مرحلتين كبيرتين:

المرحلة الأولى : مرحلة الخروج من الفكر المسيحي الأوروبي إلى مفاهيم العلم : وذلك بخلق ذاتية خاصة للأخلاق مستمدة من العقل والحياة لا من الدين .

المرحلة الثانية : مرحلة الخروج من كل القيم والمفاهيم الثابتة القطرية الإنسانية الطابع إلى التحرر الكامل والدعوة إلى نسبة ربط الأخلاق بالمجتمعات والصور من ناحية التطور والتغير وعدم الثبات وقد بدأت الدعوة بفصل الأخلاق عن الدين ، بعد أن تعرض الدين في الغرب إلى حملات عنصرية. وبعد أن عجز الدين فعلا عن أن يعطي البشرية زادها في مرحلة التحول الخطيرة التي مرت بها أوروبا منذ عصر النهضة ولقد كان للأخلاق السلبية التي عرضتها أوروبا عن المسيحية (منفصلة عن أصولها وجذورها) أثرها في أنها أعطت صورة الإسلام والرهانية وكرهية الدنيا وللغزوف عنها والحروب في المغاور والكهوف ، كان لهذه الأخلاق أثرها في رد الفعل الخطير الذي بدأ بصيحة « نيتشه » بالدعوة إلى العودة لأخلاق الإغريق والرومان وبلغت ذروتها بدعوات « لين بربيل » ودوركايم وفرويد وسارتر في أن الأخلاق ليست فطرة وأنها في أقل صورها قاسية .

وأنها مسألة نسبية تتشكل في كل عصر وأمه من خلال الظروف والعوامل الاجتماعية، وهذا هو قوة رد الفعل، وقوة الانحراف. وقد هاجم الفكر الغربي [في تطوره من الفكر المسيحي إلى الفكر الوثني الهليني، إلى الفكر المادى الخالص] كل القيم التي عرفتها الأديان جرياً وراء الخروج من قيود الأديان تحت ضغط عوامل متعددة أهمها السيطرة الربوية وما يتبعها من محاولات لتعزيز أسبابه من حيث أن الأخلاق هي أكبر عوامل معارضته أو القضاء على الحاجة إليها.

ومن هنا فقد كان على اليهودية التلودية دفع المجتمعات في طريق الربا بدفعها إلى الأهواء والامراف والترف والحرب وكلها من معارضات الأخلاق.

ثم جاءت مرحلة أعلاء حيوانية الإنسان ومادية البشر.

فكانت تلك النظريات الملتصبة التي حصرت الفكر الغربي في إطار لا يفلت منه: مادية العيش، ونسبية الأخلاق، وإعلاء الجنس، وسيطرة العنصرية.

(٢)

أن الأخلاق التي أقامتها المسيحية في الغرب وتشكلت في إطار الفكر الغربي كانت قاصرة عن أن تمنح الناس القدرة على مقارفة الحياة، لسليتها ومعارضتها لاقتحام الحياة والعمل والكشف عن مقدراتها وثرواتها، وهذا هو الجانب الذى دخل على الدين من الفلسفات القديمة الوثنية والجبرية، غير أنه في الوقت نفسه كانت هناك بقايا من المفاهيم الأصلية التي جاء بها الدين من عند الله.

وقد تدافعت هذه القيم والمفاهيم إلى أوروبا بعد الاسلام من خلال منافذ أسبانيا وجزيرة قبرص وغيرها، وقد أكسبت هذه المفاهيم - لانبعائها من

الفطره - تقيلاً كان عاملاً من عوامل النجاح الذي عرفه المجتمع الأوربي في مجال العمل وحسن التعامل .

ولاريب أن النظرة الإيجابية للحياة والانطلاق إلى مجال الكشف والبحث كان من معطيات الاسلام أساساً غير أن نتائجه إلى تحول إليها من بعد ، حين فصل بين الأخلاق والدين ، وفصل بين مفاهيم الاسلام في الأخلاق والعلم وبين الحياة الاجتماعية التي تشكلت على أساس الوثنية الاغريقية ، هذا التحول له عوامله وتحدياته التي كانت المسيحية الغربية إحداها وكانت محاولة عصر التنوير والفكر اليهودي التلودي أبعد الأثر فيه .

وهنا بدأت عملية الانحراف بفصل الأخلاق عن أصلها الاصيل بالدين ، إلى الارتباط بمفهوم التطور الذي نقلها من مفهوم الثبات ودفعها إلى مفهوم جديد هو قوة الخطر الذي واجهته الفلسفة الأخلاقية المعاصرة : تلك هي الدعوى : بأن الأخلاق تختلف باختلاف العصور وأن الخير والشر والطيب والخبيث يتباين ويختلف مع تباين المجتمعات والبيئات . وأن ما يعد أخلاقاً في مجتمع لا يعد كذلك بالنسبة لمجتمع آخر .

ولاريب كان أثر الفكر اليوناني الوثني كبيراً في هذا التحول الذي واجهه المجتمع الأوربي والفكر الغربي تحولاً من الفكر المسيحي الغربي إلى الفكر الإسلامي ، ثم العودة السريعة إلى الفكر الهليني والاستقرار عنده . وكان لنظرية دارون : والتطور الاجتماعي الذي شكله سبنسر وغيره ، والنظرية المادية كلها أكبر مصادر هذا التحول الذي استقر على هذه الصورة من النسبية الأخلاقية التي تحاول أن تفصل مفهوم الأخلاق عن الإنسان .

ويتصل هذا المفهوم أساساً بالأيديولوجية اليهودية التلودية التي تعمل على دفع المجتمع البشري إلى الإباحة والكشف واعلاء الجنس . وهذه النظرية في

بمجموعها جزء مكمل لنظرية ماركس في التفسير المادى للتاريخ والإنتاج ومكمل
لنظرية فرويد في التفسير الجلىسى للإنسان ومكمل لنظرية العنصریات والأجناس
البشرية ، وكلها تسير فى طريق واحد وتستهدف غاية واحدة .

(٣)

فى أوائل النهضة وفى ظل التحول فى الفكر الغربى من مفاهيم المسيحية إلى
مفاهيم النظرية المادية ، وضعت أول نظرية للأخلاق على أنها دراسة الخير
الاسمى للإنسان .

وجرى البحث عن مقومات الخير وشروطه عند الناس باعتبارهم أفراداً
كما جرى البحث عن طبيعة الفضيلة أو اللذة ، وتحديد مبادئ الواجب أو القانون
الخالق ، وكان هذا أول تحول من الأخلاق المسيحية إلى الأخلاق العقلية وكان
ينتشره قد حكم على الأخلاق المسيحية بأنها أخلاق العبيد وأنها من صنع الإنسان .
وهنا اتجه الرأى إلى التحرر من علاقة الأخلاق بالدين ، وإقامة أخلاق مستقلة
ولم يكن أمام الفكر الغربى إلا اقتباس النظرية الإغريقية الوثنية : وهى فكرة
بناء قواعد الأخلاق على أساس السعادة أو اللذة أو العقل ومع ذلك فقد رأى
الفلاسفة أن قوانين الأخلاق عامة لا تتأثر بمحدود الزمان أو المكان . وقد توزعت
مناهج الفلسفة حول مذهب السعادة ومذهب الواجب ومذهب اللقانة وكلها
مذاهب تفصل الأخلاق عن العقائد . وتقيمها على مفاهيم عقاية محضة فذهب
الواجب الذى يقول به كانت : يقول : اعمل ما يجب أن يكون قانوناً عاماً ،
ومذهب السعادة يرى أن هدف الأخلاق هو تحقيق السعادة الشخصية : ومذهب
اللقانة يرى أن الخير خير فى ذاته والشر شر فى ذاته ثم جاء سبنسر فقال أن
غريزة حفظ النوع هى أساس الأخلاق وجاء ينتشره ليقول بمذهب القوة الذى
يعتقد أن الأخلاق اخترعها الضعفاء ليقيدوا بها الأقوياء .

وكانت هناك الفلسفة الغيرية : التى تقول (عيش من أجل غيرك) وقد

غلب على الفلسفة الأخلاقية في هذه المرحلة مفهوم اليونان : فما قال به أفلاطون وسقراط وأرسطو وهو (لا يخرج عن دائرة السعادة التي هي راحة النفس والضمير وسرور الفرد وغبطة الجماعة، ولقد كانت الفلسفة اليونانية في الإخلاق تقوم على أن الخير هو وسط بين شرين ، وأن الأخلاق نظرية وبمجموعة من المبادئ والمثل دون أن يكون هناك إلزام في التطبيق . وجاءت النظرية الغربية تجرد الأخلاق من فكرة الإلزام ثم لم تلبث أن ظهرت دعوة تقول أن الأمم ليست بحاجة إلى الأديان ولكنها بحاجة إلى الأخلاق . وكان ذلك علامة على فصل الدين على الأخلاق وقيام أخلاق مستقلة منفصلة وقالت الفلسفة الغربية: إن الأخلاق تختلف عن الدين ، وليس من الضروري أن كل من يعتقد في دين أن يصبح أخلاقياً ، كما أنه ليس من الضروري أن يكون كل ملحد لا أخلاق له .

* * *

وكان هذا التحول خروجاً من مفاهيم الكنيسة التي استقرت في أوروبا ألف سنة والتي كانت مزيجاً من مبادئ الإغريق والرومان والعهدين القديم والجديد .

(٤)

عندما فصل الفكر الغربي الأخلاق عن الدين واستقلت واستمدت مفهومها من العقل وحده بدأ انقسامها في مذهبين أساسيين :

أحدهما يجعل الخير أمراً مطلقاً لا يتغير بتغير الزمان والمكان والآخر يجعله أمراً نسبياً يختلف باختلاف الظروف القائمة ويرى أصحاب الرأي الأول أن الواجب الخلقى معروض بحكم العقل لا بدافع العواطف ولذلك فهو واجب على كل إنسان مهما تكن ظروفه ويرى الآخرون أن خيرية الخير

مرهونة بغايته ، فالخير هو ما يؤدي إلى السعادة وإلى اللذة وإلى المنفعة ثم برز من خلال ذلك المثاليون والتجريبيون : المثاليون يقولون بالواجب وهو عندهم مبدأ عام مطلق ينبغي أن يلتزم به كل إنسان في كل زمان ومكان أما التجريبيون أو الواقعيون فيرون أن الأخلاق نسبية « تتغير بتغير الزمان والمكان وتختلف باختلاف الظروف والأحوال ولا تكون قط غاية في ذاتها وإنما هي وسائل لتحقيق غايات : هي تحقيق المنافع ودفع المضار ،^(١) .

ثم جاء تحول خطير : هو قصر الدراسات الأخلاقية على الظواهر الخلقية ، ومهمة هذه المدرسة أن تصنف هذه المثل وتقرر حالتها دون أن تتجاوز مرحلة الوصف التقريرى إلى إصدار أحكام تفويجية كأن تقول هذا خير وذاك شر أو حسن ورديء ونحو ذلك مما يخرج الباحث من نطاق العلم . فهم يرفضون البحث فيما ينبغي أن يكون لأنه غير كائن بالفعل ، « وجاء ليفي بريل (اليهودى) وانتهى إلى رفض الأخلاق علماً معيارياً يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنسانى وأكد الأخلاق علماً واقعياً وضعياً وبهذا ينصرف من التشريع المثالى إلى دراسة الحقائق الخلقية دراسة وضعية تقريرية وبهذا تتلاشى الأخلاق النظرية وتبقى الأخلاق العملية^(٢) .

* * *

ومن حق أن يقال أن المنهج الاجتماعى أو المدرسة الاجتماعية قد أحدثت تحولاً خطيراً فى مفاهيم الأخلاق ، وهو تحول جرى بتوقيت منظم واضح مع دعوات العنصرية والتفسير المادى للتاريخ ونظرية الجلس الفرويدية وكلها نظريات سيطر عليها الفلاسفة الجدد « فلاسفة البروتوكولات » ، فى مجال التعبير الذى فرضته اليهودية التلمودية على الفكر البشرى واحتواء الفكر العربى كله

(١) دكتور توفيق الطويل : المثل الأعلى فى فلسفة الأخلاق .

(٢) راجع كتاب الفلسفة الخلقية : تشابهاً وتطورها للدكتور توفيق الطويل .

بفلسفة متكاملة في جميع الجوانب : الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والنفس
والاخلاق [مستمدة جميعها من النظرية المادية ، ومحاولة وضع الإنسان في صورة
التجربة التي تتم على الأجناس غير البشرية (أى الحيوان) مع إعلاء الجنس واللذة
والشهوات ومن هنا فقد كان منهج الاخلاق في ظل مفاهيم المسيحية ، وفي مرحلة فصل
الاخلاق عن الدين ، إنما يستهدف السمو بالنفس الإنسانية وإقامة « أسلوب ،
واضح وكيان » ثابت ، يفصل بين الخير والشر ، ويعلى شأن الخير وإن استمد
مفاهيمه من العقل وحده . أما مدرسة المنهج الاجتماعى فقد عمدت إلى ضرب
هذه الحلقة الباقية لدفع منظومة الاخلاق إلى الانفراط الكامل . وقد بدأ ذلك
حين طرح (لينى بريل) اليهودى نظريته فى كتابه « الاخلاق وعلم الظواهر
الاخلاقية » ، فقد هاجم بريل المفهوم القديم للأخلاق وطرح منهاجاً للفصل بين
المعرفة النظرية والتقدير العلية . وأعلن أن البحث الجديد للأخلاق يقتصر
على دراسة الظواهر الخلقية ومعنى ذلك هو أن يتلاشى مفهوم فلسفة الاخلاق
بمعنى التوجيه أو إلقاء الضوء على الخير والشر أو إقامة مثل أعلى للمجتمع . وهذا
هو أخطر ما عمدت إليه اليهودية التلمودية لتحطيم الاخلاق فى المجتمعات وقد
أشار الباحثون إلى أن هذه النظرية قد ووجهت منذ اللحظة الأولى بعواصف من
النقد والاستهجان^(١) فقد وجدوا فيها أساساً بقدرسية الاخلاق : وكان رأيهم
أن دراسة النظم الأخلاقية بطريقة العلوم الوضعية من شأنه أن يقضى على ما تكنه
النفس البشرية من احترام وتقديس لفكرة الاخلاق وكان معنى هذا أن علم
الاخلاق بعد علم النفس قد سقط فى متاحف المذاهب المادية وتحت سيطرتها ،
ولما كانت غاية الاخلاق « إعلاء القيم التى تسمو على عالم الحس ، أى القيم
الروحية ، وهى « غالباً ما تتعارض مع القيم الحسية ، فإن خضوع مثل هذا
العلم للنظرية المادية من شأنه أن يحطمه نهائياً وأن يدفع إلى التحلل من كما يفسح

(١) السيد محمد بدوى : كتابه المتطور .

المجال واسماً أمام تبرير الشهوات واعمال الغرائز . ولقد كان أخطر ما طرعه المنهج الاجتماعى فى هذا الصدد هو : نسبية الأخلاق إلى المجتمعات والعصور ومحاولة إيجاد مبررات من التاريخ والحفريات وغيرها للقول بأن الأخلاق تختلف بين العصور وبين البيئات .

* * *

ولا ريب أن النظرية التى حمل لوائها « ليني بريل » قد مرت فى حلقات متعددة ، منها نظرية التطور التى وجهها سبنسر إلى التطور الاجتماعى ، وعمل على ربط « فكرة الضمير الأخلاقى » بالفكرة العامة التى تسيطر على مبدأ التطور وهى فكرة بقاء الأصلح . ووفقاً لهذا التفسير المادى يرون أن التغيرات النافعة إلى الأخلاق الخيرة التى تعود فائدتها على الأجناس البشرية فإنها تصبح استعدادات وراثية فى سلالتهم ، فالضمير الأخلاقى فى نظر أصحاب مذهب التطور قد نشأ من التغيرات التى اعترت الجنس بمحض الصدفة وتأصلت فى طريق الوراثة .

ومن ثم فقد جرى تفسير (الضمير الأخلاقى) بالرجوع إلى الحالات الجسمانية للإنسان .

ومن خلال مفهوم يقول : إن الغرائز هى الجذور التى تنفجر منها الأخلاق وهذه الغرائز وراثية كشكل الجسم سواء بسواء .

* * *

ومن هنا فقد أصبحت الأخلاق جبرية ، ووضعية فى نفس الوقت : يعنى أنها نسبية (تنظر إلى الإنسان كما هو كائن بالفعل لا كما يتصور أن يكون) . يقول الدكتور : السيد محمد بدوى فى معرض تصوير هذه المرحلة « ما لبثت

هذه الفكرة الجريئة أن أزعجت كثيراً من العقول التي رأت فيها انحذاراً نحو
نقي الأخلاق برمتها فيما أن يكون الخير مطلقاً وحسب ما يتصورون .

ولما أن ينعدم التمييز بين الخير والشر وليس هناك حل وسط ،

وكان لا ريب ، للذاهب التطورية والبيولوجية أكبر الأثر في الجنوح بهذا
التفكير نحو الغلو والشطط في تفسير النزعة الأخلاقية .

* * *

وقد عارض ليفي بريل القول بأن الطبيعة البشرية هي دائماً لا تتغير بتغير
الزمان والمكان ، وادعى أن التفكير العلمي الحديث (وهو يقصد بالعلمي هنا
الفلسفات المادية) لا يقبل أن يكون الإنسان المعاصر هو الإنسان الذي يمثل الإنسان
كله تمثيلاً صحيحاً ، ويرى العكس من ذلك : أنه إنسان من جلس خاص وفي
عصر معين . وهو (أي الكاتب) بذلك يسبح ضد التيار ، وضد الفطرة دون تقدير لأي
مفهوم عقلي أو أسلوب علمي صحيح : متجاهلاً حقيقة كبرى لا سيديل إلى تجاوزها
هي : أن جميع أفراد الجنس البشري توجد معهم صفات نفسية وخلقية عامة
وأن الاختلاف بالزيادة والنقصان لا يكون إلا في الصفات العرضية أما الصفات
الجوهرية أو الطبيعية الأفراد فانها ثابتة (١)

وكان من نتيجة ذلك أن أخذت هذه الفلسفة تبرر واقع المجتمعات ، وتبرر
الجريمة وتزين الشر بصورة الخير ، وتزخرف الإباحة وتحرض على قبولها
دون حرج أو خوف .

ولقد عارض الباحثون المنصفون والعلماء من غير طائفة الفلسفة المادية
واتباع اليهودية التلمودية خطأ القول : بنظام خاقي لكل عصر .

ولاريب أن الهدف واضح من وراء هذا التيار : هو هدم الأخلاق الدينية ودفع البشرية إلى طريق التحرر نهائياً من كل قيم الخير والفضيلة والحياة والغيرية وبذلك تتجه الفلسفة الأخلاقية للدراسة الاجتماعية إلى هدم القانون الأخلاقي نهائياً واستباحة كل محرم .

ولاريب أن هذا هو نهاية مرحلة بدأت منذ تحولت نظرية التطور البيولوجية إلى نظرية اجتماعية، فقد استهدفت تحرير الأخلاق من جذورها الدينية ، أو إبعادها عما يتصل بتعاليم الكنيسة وإقامتها على ما اصطلاح على تسميته بالقاعدة المستقلة . ويرى البعض أن التطوريون لم يفعلوا أكثر من استبدال « تبعية » بتبعية فقد استبدلوا علم الحياة باللاهوت كأساس للأخلاق ، وأن ذلك كان جرماً وراء صيحة نبثشة في دعوته إلى أخلاق الأقوياء وأخلاق السادة ، في مواجهة ما أطلق عليه « أخلاق العبيد » ، غير أن عدداً من علماء التاريخ الطبيعي عارضوا أن يكون « التطور » مصدراً للأخلاق وفي مقدمتهم الدكتور ماتيزو الذي قال أنه لخطأ يفضى إلى كارثة أن ندعى أن العلم الطبيعي يستطيع أن يحل مشكلة الأخلاق (وقد تابعه في ذلك العالم آر كيث) وإذا كانت المسيحية تقول أن هدف وجود الإنسان في هذا العالم وفي الحياة هو تمجيد الله وتأمل حكمته فإن اليهود رجال التطور يقولون : إن كل جماعة انصرفت إلى هذا الغرض وحده تلاشت من على ظهر الأرض ومن الطبيعي أن نظرة المسيحية ليست سليمة تماماً على الوجه الأصيل لمفهوم الدين الحق وليس تفسير التطوريون اليهود صحيحاً على إطلاقه .

ويشير التطوريون إلى أن مادها إليه القديس أوغسطين من أن هدف الدين (المسيحية) هو إقامة مدينة الله وإرساء السلام الدائم ، أن هذا الهدف وقد مضى عليه ألفي سنة في محاولة الكنيسة المسيحية فانه لم يتحقق . ويجب اليهود دعاة التطور : أن القوانين الإنسانية يجب أن تكون ملائمة للطبيعة البشرية وقد عارض العلماء أس الأساس في البحث كله هو أن العلم (أى

العلم المادى) وحده لا يستطيع الاجابة على سؤال : لماذا وجد الإنسان على ظهر الأرض .

وأن الذين يتخذون العلم وحده أسلوباً للمعرفة لا يستطيعون أن يصلوا إلى شىء فى هذا الصدد ويقول العالم البيولوجى ليونارد دارون (حفيد دارون الجد) أنى أشعر أن العالم يصبح مشروعا عديم الجدوى إذا كانت جهودنا المضنية لفعل الخير لا تخفى شيئاً وراءها ، أن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك وإذا كانت هناك إرادة حرة فلا بد أن يكون هناك شىء خارج العلم .

(٢)

الأخلاق فى ضوء الاسلام

ينطلق مفهوم الأخلاق فى الاسلام من قيم ثابتة أساسية ترتبط بالإنسان أساساً وهى قيم لا تتغير فى أصولها لأنها ترتبط بالنفس الانسانية التى تنطلق من معتقدها فى الايمان بالله إلى التقوى والايمان والعمل ، فالأخلاق هى طابعت السلوك كله وبمجموع التصرفات فى مختلف المجالات ، تقوم على العطاء والعفو والسماحة والرحمة فلا تختلف من جيل إلى جيل أو من عصر إلى عصر أو من بيئة إلى بيئة وإنما تتماثل لأنها ترتبط بالنفس الانسانية فى علاقتها بالله :

وليس فى مفهوم الاسلام أن تتطور الأخلاق أو تتغير تبعاً للأحوال الاقتصادية أو ظروف المجتمعات . وإنما الذى يتغير هى العادات وهناك تفرقة واضحة وعيقة فى الاسلام بين الأخلاق والعادات وبين القيم الاخلاقية المرتبطة بالعقيدة وأصولها الثابتة الباقية على مدى الزمن والمرتبطة بالإنسان من حيث هو مخلوق من روح ومادة وجسد ونفس ومن حيث دوافعه وخصائصه وأشواقه ، معرفة بكل ما يتصل بغيرته ورغباته محبة لها فى إطار الأخلاق ، وفى دائرة واسعة مرنة تكفل للنفس تأكيد

مطامحها دون أن يجرها ذلك إلى الإباحة أو التحلل أو يوقفها عند الحرم أو الكبت .

والاسلام أساساً يبنى النفس الانسانية على الايمان ومخافه الله ، وعلى اليسر والتوسط ، ويحول بينها وبين أن تتعدى حقوقها وحرياتها ثم يحقق مطامحها في كل مجالات الرغبة على النحو الذى لا يجاوز بها إلى الفساد والتدمير ، وبغير أن يحملها على الزهادة أو الحرمان أو المنع أو كراهية الغرائز والمطالب الجسدية « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى خالصة للذين آمنوا يوم القيامة » فهو أولاً يعترف بالمطالب المادية أو الغريزية ثم هو ثانياً يحققها ويكره أن ينصرف الناس عن تحقيقها بالزهادة فيها ثم هو ثالثاً يضع لها ضوابط تقى الشخصية الانسانية شر التدمير والتخليم ويحول بينها وبين الترف .

ومن هنا فان أزمة ما مما يسمى أزمت القلق أو التزق لا يمكن أن تقع فى نطاق مفهوم الاسلام وتطبيقه الصحيح ومرد الاضطراب التى وقع فيه الفكر الغربى أنه انفصل عن الدين أساساً ولكنه انفصل تحت ضغط مفهوم خاطئ أضيف عليه بالزهادة وكراهية الاحاسيس الطبيعية ، ثم هو لم يعالج الأمر بالحكمة ولكنه اندفع إلى طريق أشد عنفاً ، حين انتقل من المنع المقدس إلى الإباحة المطلقة .

وقد ذكره الاسلام الرهينة ودعا إلى التقوى ، والتقوى لإباحة فى إطار الضوابط التى تحفظ النفس الانسانية من التدمير فالاسلام لا يسكب الغرائز ولكنه يضبطها ويجعل من الاسلوب الكريم وهو الزواج منطلقاً مفتوحاً وإطاراً سليماً ولكنه يدعو إلى التزكية والترويض والتصعيد والسمو بالنفس دون أن يقيمها أو يحطم فيها واحداً من أصول تركيب الإنسان ولا ريب أن فكرة تصعيد الغرائز على النحو الذى عرفته الفلسفات الحديثة مستفاد من القرآن الكريم « ونفس ماسواها فآلهما فجورها وتقواها ، قد أفاح من زكاها وقد خاب من دساها » .

والأخلاق في الإسلام : لا تنفصل عن العقيدة ، فإذا انفصلت فقدت قيمتها الحقيقية وفقدت عورها الأصيل . وقد جرى بعض الباحثين المتابعين للفكر الغربي وراء القول بالحاجة إلى الأخلاق دون الحاجة إلى الدين . أو بالأخلاق منفصلة عن الدين وتلك شبهة باطلة وفدت مع المفهوم الغربي الذي أقام أخلاقاً وضعية .

أما في الإسلام فالأخلاق قاسم مشترك على المجتمع والقانون والاقتصاد والاجتماع . وهي ليست أخلاق شعادة كمفهوم الفلسفة اليونانية ولكنها دعوة إلى بلوغ شعادة النفس بالتقوى والجمع بين العمل للدنيا والتماس الجزاء في الآخرة ومبدأ الأخلاق الإسلامي قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطهير النفس وأساسه الإرادة والمسئولية والجزاء . فالأخلاق اختيار وإرادة ، وقد أطلق عليها الإسلام : الكسب والاختيار وجعلها مناهج التكليف . ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلق متصفا بالطوعية ويكون صادراً عن إرادة تحب الخير . ويقرر الإسلام إن العقيدة مهما صحت وقويت فهي شيء عديم القيمة إذ لم تصبح دافعاً إلى السلوك والخلق ، ومن هنا كانت العبادات مصدراً للتهذيب الخلق وقد وصفت الصلاة في القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ولقد كان الإنسان موضع عناية رسالات السماء والكتب المنزلة ، وما يقال من أن الكتب السماوية لم تتم به لا ينطبق على الإسلام وهو بالتالي لا يمكن الإقرار به لأن واحداً من الكتب السماوية الأخرى ليس موجوداً على صورته الأصلية . وإذا كانت الفلسفات قد عنيت بالإنسان ، فإنها قد عجزت عن استيعاب أمره فهي أما نظرت إليه نظرة مادية صرفة وحاكته إلى تجارب الحيوان والحشرات وإما إنها حاربت أهواءه وحاولت أن تدفعه إلى تحطيم ضوابطه وقيمه .

(٣)

يقرر العلماء المسلمون أن الأخلاق قواعد ثابتة لا يحددها زمان أو مكان لا تخضع لظروف ولا تغيرها أوضاع فجوهرها هو جوهر الكون، وهو أزلي وقاعدة أساسية، بل هي القاعدة الأساسية لنظام الكون الكبير فجوهر الأخلاق في الاسلام ثابت غير قابل للخضوع لآى عامل إقتصادى أو اجتماعى أو سياسى. « وكل عقيدة لا ترتفع بمفهومها الأخلاقى إلى المستوى الكونى تسقط وتتهار وتعجز عن أن تتولد حضارة تقترب بالإنسان إلى جوهر الوجود للكون^(١) .

« إن الانسان لا يستطيع إلا عن طريق الأخلاق والأخلاق وحدها أن ينفذ إلى الايمان بالله، وبالأحرى أن يربط وجوده بوجود الكون، ويوفق بين سلوكه ونظام الكون. ولذلك فإن كل عقيدة أصيلة ثابتة الجوهر لا يمكن أن تنافى الدين أو تتعارض معه أو تنبذ الايمان بالله.

* * *

وقد صور الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى الأخلاق الاسلامية فقال: إنها أخلاق تقوى بكل ما تحمل التقوى من معان سلبية وإيجابية : أى تجنب الحرام والاقبال على الحلال: والإيثار والتقوى هما لمة الأخلاق الاسلامية وسداها وأن هذا شيء لم يفتن له الذين ألفوا فى الأخلاق الاسلامية، ووازنوا بينها وبين الأخلاق اليونانية أو الأخلاق المسيحية وكلاهما يختلف اختلافًا أساسيا عن الأخلاق الاسلامية.

ذلك أن الأساس الذى تعتمد عليه الأخلاق الأفلاطونية مختلف عن

أساس الأخلاق الإسلامية. فالأخلاق الإسلامية ليست أخلاق سعادة وهي بغية اليونانية ولكنها أخلاق تقوى لأنها أخلاق دينية .

إن المصدر الأساسي للأخلاق الإسلامية هو القرآن والتطبيق العملي هو حياة الرسول .

وأخلاق القرآن أخلاق اجتماعية لا أخلاق فردية والقرآن ينظر إلى الفرد في ضوء مصلحة المجتمع فإذا تضاربت المصلحتان يؤثر الفرد مصلحة المجتمع ويضحى بنفسه في سبيله وأخلاق القرآن أخلاق تقوى .

ويختلف مفهوم الاسلام عن الزهد : ذلك لأن الاسلام لم يته عن الدنيا ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها والزهد فيها ولم يحرم زينة الله .

وليس معنى ضوابط الاسلام الأخلاق أن نفسرها في إطارات ضيقة تجعلها جامدة تحول دون الحركة أو العمل بل رجة متسعة حتى تضمن الحرية الشخصية وتحقيق الجهود الفردية التي لو انمحت لصارت حياة الأمم متائلة جامدة لا روح فيها ولا حياة .

« والقواعد الأخلاقية الإسلامية تقيم حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشر عامة، وتبقى مرنة لكي تترك للأجيال المتعاقبة إختيار الصور التي توفق فيها بين المثل القرآنية الحازمة التي لا تقبل التزلزل، والحالات التي تقدمها الحياة عن طريق التجارب المتوالية، والأحداث الزمنية المتعاقبة لكي تسمح للأمم تحقيق تطوراتها من أساليب التقدم على أتم ما تكون الحرية الفكرية، والتعبير عنها بالعبارات التي لا تلائمها دون إهمال أى جانب من جوانب المبادئ الإسلامية . »

وتقوم الأخلاق في الإسلام على أساس الالتزام الخلقى :

والالزام هو معقد بالمسؤولية التى تتمثل فى الحساب والجزاء فى الحياة الآخرة ، فاسقاط الالزام الخلقى انما يرتبط أساسا بالدعوة المادية التى تنسكركم البعث والجزاء والتى ترى أن الحياة الدنيا هى نهاية كل حى .

ولذلك فان الدعاة إلى وحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد أو من ينكرون الغيبيات وأهمها اليوم الآخر ، إنما يحاولون هدم القاعدة الاخلاقية الاساسية وهى المسؤولية المترتبة على الالتزام الخلقى فى الحياة الدنيا .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : «الالزام هو العنصر الاساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الاخلاقية . وزوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها ، فاذا عدم الالزام عدمت المسؤولية وإذا عدمت المسؤولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه وإقامة أسس العدالة .

« والخير الاخلاقى يتصف بتلك السلطة الملزمة التى يتقيد بها الجميع وتلك الضرورة التى يشعر بها المرء من وجوب تنفيذ أوامر محددة ، » (١) .

* * *

(١)

ويقرر القرآن الالتزام الخلقى انطلاقاً من قاعدة ثابتة :

إن النفس الانسانية ليست شريرة فى أصلها وإن هناك قوى ومواهب إذا استخدمها الانسان وضعته فى مجال التزكية والسكالم .

(١) أخلاق القرآن رسالة دكتوراه بالفرنسية عام ١٩٣٦
Lo Morale du Koran

(قد أفلح من زكأها وقد غاب من دساها)

وإن النفس الإنسانية قد عرفت في تكوينا الأول معنى الخير والشر :
« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، .

وإذا كانت الطبيعة الإنسانية قد تندفع نحو الشر فإن الإنسان قادر من خلال
الإيمان والتقوى والمطلع إلى رضا الله وإلى كمال الشخصية أن يكبح جماح
شهواته . وهناك نداء في أعماق النفس ينهى ويأمر ، وقوة كامنة هي بمثابة
قوة كاشفة .

والقرآن يدعونا إلى أن نزن الأمور بميزانها الصحيح قبل أن نحكم على
قيمتها ومن خير هذه القوى : قوة الأسوة الحسنة الممثلة في الرسول صلى الله
عليه وسلم « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وقد أقر الإسلام في هذا طابع المجاهدة : والنفس اللوامة ، وفتح باب
المغفرة للخطأ ، ودعا إلى التيسير في الأمر فأذن للنفس بقدر طاقتها ، ولم يكلفها
إلا وسعها ، وقبل منها الخطأ والاضطرار ، الخطأ دون أن يكون متعمداً
والاضطرار إذا لم يكن منه بد .

* * *

ويرى الدكتور دزار أنه إذا كان القانون الأخلاقي عاماً تعين أن تكون
قواعد السلوك التي يفرضها علينا ثابتة لا تتغير .

والالتزام الأخلاقي في الإسلام يقوم على مراعاة حقيقة هامة تختلف عن
نظريات الفلاسفة في بناء قواعد الأخلاق التي يقيمونها على مبدأ وحيد هو
السعادة (اللذة) أو العقل . بينما لا يتحقق للأخلاق إيجابيتها إلا أن تقوم على

التوفيق بين مثال أعلى يأتينا من مصدر علوى ، وبين الحقيقة الواقعية التى يعيشها الناس ، أى بين المثالى والواقعى ، وبين المطلق والنسبى بحيث يتحقق للفعل الأخلاقى الثبات الذى يميز كل قانون عام ، والتنوع الذى يلائم ظروف الحياة ويشعر الإنسان بذاتيته وبحريته فى التصرف .

والالتزام الخلقى فى القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة (١) .
فالقرآن يقرر : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

أى اعملوا ما يترى لكم إنه الأحسن بحسب وحى الساعة .

« ليس فى الصيغة صفة الأمر الصارم الذى لا يقبل استثناءً ولا تعديلاً ، فلا يحدد تحديداً صارماً ولا يترك الحبل على الغارب ، ومع ذلك فقد جمعت بين الانجهاين .

« من هذه الكلمات الموجزة يدعونا القرآن إلى توجيه أنظارنا نحو الله وأن نطيع أوامره وأن نعمل ما فى وسعنا للتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الحقيقة الواقعة . ومن ذلك سيحقق : (١) اتصال الحقائق . (٢) تحقيق الارتفاع نحو المثال الأعلى مع مراعاة ما تقتضيه الطبيعة الإنسانية . (٣) تحقق الخضوع للقانون وحرية الإرادة .

« إن ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم بأفعال غير مشروعة إلا إذا كان أمام ضرورة لا يحصى عنها ، وفى هذه الحال لا يؤاخذ بما فعل ، كما أن الله يصفح عنه إذا أخطأ عن غير عمد .

« وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، « هناك أشياء لم تفصل تفصيلاً واضحاً وفى هذه الحالة قد نخطئ فى تفسيرها أو تعريفها .

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : أخلاق القرآن .

« وهذا الاحتمال هو نتيجة طبيعية لانسانيتنا ولحرية الاختيار والتصرف التي منحناها ، وواجب المؤمن هو أن يحاول في حال الشك أن يتبين بإخلاص ما يتق من أوامر الله ، فإذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب ما دام قد بذل الجهد الضروري الذي وسعه . « على أن الأمور إذا اشتبهت علينا فمن الخير أن نتق الشبهات .

« ولما سئل الرسول عن تعريف الخير والشر قال : استفت قلبك واستفت نفسك : البر ما أطمانت إليه النفس وأطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك .

« هذا هو موقف القرآن من الالتزام الخلقى : دعوة إلى اتباع القواعد العامة التي أمر الله بها مع ترك حرية التصرف والاختيار للبرء في نطاق التفاصيل التي تعرض لنا تبعاً لتغير ظروف الحياة .

« فلا يدعى القانون الأخلاقى في القرآن أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة ، وأن هناك طريقة واحدة لتطبيقها وأن هناك طريقة واحدة للتوفيق بينهما وبين القواعد الأخرى ، فالقاعدة مهما بلغت من الدقة والإحكام تنزك أحياناً بعض التفاصيل دون تحديد وهنا يظهر مجال الاجتهاد الشخصى والتفكير المستقل الحر والاعتماد على ملكة العقل التي أودعها الله الناس .

« فالمجهود الفردى واجب في نطاق الأخلاق وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو إليه .

« والخلاصة أن القواعد العامة للأخلاق ليست من صنعنا ، بل ، أننا قد تلقيناها من المشرع الاسمى ونستطيع أن نستنبطها من كتابه العزيز وسنة رسوله . أما الواجبات الخاصة فالتناكيفية تبعاً لظروف حياتنا على شرط ألا نخرج بها عما رسمه لنا المثال الأعلى وأن نبذل فيها الجهد لتبيين وجه الحق .

ويعرض الدكتور دراز لراى المدرسة الاجتماعية التى تقول بأن الإنسان الذى يعيش فى مجتمع معين لابد أن يعكس المبادئ الأخلاقية والعادات السائدة فى مجتمعه وأن الإنسان يحكم على الأفعال والتصرفات لامن خلال ضميره فحسب بل من خلال ضمير المجتمع .

ويجيب بأن سمة الأخلاق فى الإسلام : تثبات الأخلاق ، القائم الأزل على الخير والشر ، والعمل الطيب والعمل الخبيث .

الفصل الثالث

الفلسفة الاجتماعية

إذا كان (فرويد) قد تخصص في إعلاء الجنس ، (لينى بريل) في معارضة ثبات الأخلاق [وكلاهما من عشيرة اليهودية التلودية] فإن ثالثاً منهم هو (دوركايم) قد تخصص في إنكار نظرية الأسرة والزواج والدين والقول بأنها - أى الثلاثة - دخيلة على فطرة الإنسان .

* * *

إن الفلسفة اليهودية التلودية تعرض الشئ وحده : العنصرية والعالمية ، تفسير التاريخ تفسيراً مادياً وتفسيره عن طريق علم النفس ، وتفسره عن طريق العقل الجمعى مضاداً للتفسير النفسى . وذلك من أجل إيجاد بلبلة وصراع ومن أجل تقسيم الناس إلى معسكرات تتضارب وتتعاذى ، حول أشياء خارجة عن الفطرة والعلم والعقل ، وذاهبة في ضباب الفلسفة والصياغة العلمية البراقة !

فهذا يهدم الدين وهذا يهدم الأخلاق وهذا يهدم الأسرة وهو تطبيق صريح لما جاء فى البروتوكولات : « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيشة بالترويج لأرائهم . وأن الأثر الهدام للأخلاق الذى تلتشه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح بكل تأكيد » ، وإذا كان ماركس قد رد كل شئ إلى الاقتصاد والإنتاج وجعل الفكر والثقافة والأخلاق انعكاساً لهما ، وجعل أسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة الاجتماع ، فإن المدرسة الاجتماعية ترد كل شئ إلى المجتمع . وتلغى أثر الفرد إلغاءً كاملاً .

ومن ثم فإن دور كايم تأسيساً على ماركس وتكميلاً للبني بريل (أحدهما
للآخر) يحاول في منهجه الاجتماعي أن يطرح ثلاث فرضيات لنظريته :
الأولى : أن الدين ليس فطرياً .

الثانية : أن الزواج والأسرة ليسا فطرين .

الثالثة : أن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها ولا هي ثابتة على وضع
معين وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد منه .

ذلك : أن المجتمع هو الأصل في كل الظواهر وليس الإنسان ويتلخص
ما يذهب إليه إلى : أن بعض العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى
الإنسان وأنه مزود بمحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء
وغير ذلك من العواطف . وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج
والأسرة على هذا النحو .

ولكن : التاريخ يوقفنا على إن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان
(ص ١٧٣ - قواعد المنهج في علم الاجتماع) .

ومن هنا [يرنب دور كايم] : بأن مجموعة القواعد الخلقية (التي لا وجود
لها في ذاتها) ليس من الممكن أن تصبح موضوعاً لعلم الأخلاق وهو يذهب
في هذا إلى نقطة التقاطع مع ما تقول به الأديان والمناهج العلمية الأصيلة التي
تقررت في البشرية منذ قرون طويلة : فهو يشكر أن الكيان النفسى للفرد هو
أساس الحياة الاجتماعية ويحاول أن يفرض أن العكس هو الصواب وأن
الحياة الاجتماعية هي التي تشكل مشاعر الفرد ، ويدعو إلى التفرقة بين الظاهرة
النفسية والظاهرة الاجتماعية تفرقاً كاملاً : على أساس ألا تفسر الحياة من نفسية
الفرد . وهذه محاولة لإرساء قاعدة تتعارض مع الفطرة البشرية ولا يجد دور كايم

لها من شتاد على أو عقل إلا عبرته العائرة ، التاريخ ، والتاريخ مادة يمكن أن يأخذ منها كل باحث ما يراه مناسباً لوجه نظره ويحجب الباقي .

(٢)

ويرد الباحثون المدرسة الاجتماعية إلى (كانت) الذي حاول : اعتقاداً إلى خصومته للكنيسة الكاثوليكية أن يوجد « أخلاقاً وضعية » ، بعيدة عن كل فكرة دينية أو لاهوتية ، خالصة من كل مصدر ميتافيزيقى ، وجاء (أميل دوركايم) متابعاً له ، فى كتابه عن التربية الأخلاقية حيث أعلن الاستقلال الكامل والفصل التام للأخلاق عند الدين ، وذهب إلى ضرورة التأكيد على أن تكون التربية الأخلاقية ذات صبغة دنيوية محضة لا تستند إلى الديانات المنزلة . وبذلك رفضت المدرسة الاجتماعية : الأخلاق المطابقة . ونادت بأخلاق وضعية ونسبية ثم خطا أنصار الفلسفة المادية عامة خطوة حاسمة بعد ذلك عندما أعلنوا : بأنه لا حاجة للناس إلى الدين أو إلى الأخلاق .

(٣)

واجهت فكرة إخلال علم النفس بديلاً لفلسفة الأخلاق معارضة من كثير من الباحثين فقد (١) كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مساراً تذهب فلا يفتنى عند مجرد التفكير وإنما يمتد إلى العمل والتنفيذ ، فالفكرة لها شطران من تعقل وسلوك . ولا يكون لها أثر خلقى حتى يتقلب إلى هذا السلوك . ولكن علم النفس حل فى تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق فلبعد بين شطري الفكرة وعالج الإحساس الضئيل مجرداً عن العمل وبابن بين العقيدة والسلوك . وقال الباحثون : إن علم النفس الحديث وضع الإنسان موضع الجبرية أمام جملة من العوامل . ودعا إلى الشك فى العقيدة فلم يعد لها نفس

السلطان الذى كان فيما مضى . كذلك فإن العلماء يرون : « إن علم النفس لا يستطيع أن يخلق (مثلاً أعلى) لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء ، ذلك لأنه علم وصفي يسير في نطاق ضيق من التجارب التي تختلف على عقل الإنسان وحسه ، « ولأنه علم تجريبي فقد عاجل حالات (شاذة أو غير شاذة) من غير أن يقيم معايير يستطيع المرأ أن يتخذها لنفسه غاية أو سيلاً . « فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فقد العالم كثيراً من الغايات الفلسفية التي كان قد استقر على الإيمان بها ، واستشرف قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكون في مبلغ عقائدهم هم أنفسهم ، « فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير مستقل لأنه يتخذ من وجوده في الجماعة ذريعة للتزكية والتبرؤ ، وكان حقيقاً بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك ، وأن يزعزع إيمان الناس في سمو المثل الأعلى . « ولم ينفرد علم النفس بين العلوم في إنتاج هذا الجو للمتشكك الذى يكاد يعصف بالفكر الحديث والتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما معا يعاونه في ذلك « ولقد تنكر التاريخ العلمى لفلسفة الخلق وجافاً فكرة السلوك وأزوره في تقدير الفرد وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة ، « وقال منذ ذلك في علم الاجتماع الذى ينكر مسئولية الفرد ويلاشيها في الإرادة العامة والتي تخلق من أصول خلقية ، « والحق أن علم النفس والتاريخ والاجتماع كل أولئك علوم تجريدية لاخير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها « مثلاً أعلى ، فبى لن تزيد إيماننا على سمو الفكرة ولا عقيدتنا في سيطرة العقل على العمل .

وكلما أمعنا في دراستنا زادتنا شكاً في أصول الخلق وفي فلسفة الحياة فهي تعالج « ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية ، ولكنها لا تأتى بمجديد في قيم الأشياء ، « ولا تخلق ميزاناً عادلاً لحقائق الخلق .

وهى لا تمنحنا الإيمان في فكرة من الأفكار .

« لقد أنكر العلماء قوة الخلق في الفرد وقوة الخلق في الجماعة ،

(٢)

فلسفة المرأة في الفكر الغربي

ما هو مفهوم المرأة في الفكر الغربي . هذا المفهوم الذى قام عليه تعليمها وعملها وحركتها داخل المجتمع والحضارة مما أطلق عليه « تحرير المرأة » ..

إن هذا المفهوم يظهر بوضوح في التفسير النفسى والاجتماعى الذى تشكله المذاهب والفلسفات المعاصرة وهو يتقرر على أسس ثلاث :

(أولاً) إن الأسرة ليست هى مفهوم الفطرة ، ولكن الاتصال الحريين الرجل والمرأة هو الفطرة .

(ثانياً) إن إطلاق حريات المرأة هو الطريق الصحيح لحركتها فى المجتمع .

(ثالثاً) إن عمل المرأة هو العامل الأكبر فى قدرتها على امتلاك إرادتها وإزاء الرجل .

(رابعاً) إن المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى كل الخصائص ولكن السر فى ضعفها هو الحيولة بينها فى العصور الماضية وبين ممارسة حرياتها .

(خامساً) إن من حق المرأة أن تباشر رغبتها دون حاجة إلى الزواج أو الولادة فإن هناك من وسائل الطب ما يمنع الحمل .

(سادساً) المرأة بهجة المجتمع ، ولا يتشكل المجتمع إلا باشتراكها فيه ولا تولد القصة إلا بتحرر المرأة حيث تولد القضايا والمآسى والأزمات والأحداث .

(سابعاً) إنكار الذهوية ذات الثمرة العالية إلى العفاف والبكارة وقبوح البيت وإفساد الحمل والولادة لجسد المرأة .

(ثامناً) عدم التفريق بين امرأة المجتمع وبين الغانية والراقصة ، وجعل الأخيرة نموذجاً للأزواء الحديثة وأدوات الزينة تقلده امرأة المجتمع .

(تاسعاً) إعلاء شأن العقود المدنية في الزواج وظهور نظريات الترابطين الرجل والمرأة بدون عقد مكتوب .

(عاشر) ظهور هيادات الأطباء التي تعلن عن إجراء عمليات الإجهاض .

(حادى عشر) ظهور أندية العراة ، ومشاركة الرجال والنساء في أحواض السباحة وظهور غلاطات شواطئ البحار ومسابقات جمال السيقان والقنود .

(ثانى عشر) استشراف أدب الجنس والأدب المكشوف وقصص الإباحة باعتبارها ظاهرة طبيعية في المجتمع .

(ثالث عشر) ظهور حق المرأة المستقلة اقتصادياً في حق التحرر واختيار الزوج .

(رابع عشر) الدعوة إلى إجراء تجارب اختيار الزوج قبل الزواج ويتعلق تمام الزواج بنجاح التجربة .

(خامس عشر) ظهور الدعوة إلى حق المرأة في الإثراء عن طريق التماس الرجل الباحث عن متاع الجسد .

(سادس عشر) ظهور الدعوة إلى ما يدعى صديق العائلة ، والقول بأن طوال فترة الحياة الزوجية تبحث على الملل وتدعو إلى المبادلات بين زوجات الرجال والتنوع وظهور نظرية الخليلة إلى جوار الحليمة .

(سابع عشر) إباحة الدور الخاصة لأداء الرغبة الجنسية وحمايتها ووضعها في إطار القانون والعرف الاجتماعي .

(٢)

لا ريب أن هذه المفاهيم والأسس التي تقوم عليها فلسفة المرأة في الفكر الغربي تعطي صورة لاخطر تنموية يستهدف تدمير الأسرة وإستعباد المرأة تحت اسم تحرير المرأة . وتتكشف أهداف هذه الدعوة على أيدي الفلسفات الحديثة التي بدأت من خلال عصر التنوير وفي ظلال الفلسفة الماسونية ومن خلال مقررات النظرية المادية أصلاً .

فإن هذه العلاقة الجديدة المقامة بين الرجل والمرأة هي على حساب كرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأسرة والبيت والأجيال القادمة . لقد كانت النظريات التي قدمها ماركس وفرويد ودوركايم وليفن بريل هي الإطار الذي شكل هذه المفاهيم ، ذلك أن محاولة تصوير الفرد البشري بصورة الحيوان والقول بأن دوافعه الأولى هي الجنس على النحو الذي طرحه فرويد كانت عاملاً خطيراً في فلسفة المرأة التي صورتها مذاهب الفكر الغربي ونظرياته الاجتماعية المطروحة من خلال التحليل النفسي والوجودية والهلالية . إنها ليست المرأة التي كرمتها الأديان وأعلى شأنها الفكر الإنساني بل هي الأداة المبدولة على نحو ما في إطار براق من الوهم والمادة وبريق الذهب وتحت اسم الحرية التي لا حدود لها .

ومن هنا استطاعت هذه الفلسفة خلق عقلية جديدة للمرأة ، تصور لها بصورة القادر على الحياة في المجتمع متحررة من سلطة الأب والأميرة والأرواح أيضاً ومن حيث هي قادرة على الإنفاق مادياً على نفسها ومن حيث أنها تجد مواردها التي تعيش بها فإن من حقها أن تختار الأسلوب الذي ترضاه والطريق الذي تقرره لسلوكها الاجتماعي وعلاقاتها بالرجل في الحياة الاجتماعية ، سواء داخل الأسرة أو خارجها كذلك فإن اختيار موانع الحمل وأدوات الأجهاض قد كفلت تأمين الطريق أمام كل الرغبات ومن ثم أصبحت الفتاة قبل الزواج أو بعده قادرة على ممارسة كل رغباتها في ظل مناعة طبية مقررّة ومشروعة تعيد

دم البكارة الأحمر إلى مكانه وتحول في نفس الوقت دون حدوث الحمل أو إزالته .

وفي هذا الاطلاق ما فيه من آثار لها نتائجها في صرف الرجل عن الزواج أو تراخيه في تكوين الأسرة أو استمرارها بعد تكوينها .

ويقرر ول ديورانت مدى الآثار المترتبة على هذا الاتجاه الخطير فيقول :

« نحن غارقون في تيار من التغيير سيجعلنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في إحتيازها ، وأى شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت في مدتنا الكبرى في الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر (المقصور) على واحدة جاذبيته الهامة ولا ريب أن زواج المتعة سيطفر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون اللسل مقصوداً وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً أم غير مباح ، ومع أن حريتها إلى جانب الرجل أميل ؛ فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من هزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد ، سينهار المستوى المزدوج ، وستتح المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج ، سينمو الطلاق وتردحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماعة ، وعند ما يتم تصنع المرأة ويصبح ضبط الحمل سراً شامعاً في كل طبقة يضحي الحمل أمراً عارضاً في حياة المرأة . »

* * *

وهكذا يكشف واحد منهم (تلاميذ اليهودية التلمودية) الأهداف والغايات

وبتصور المستقبل الذي يطلعون إليه نتيجة هذه التجربة كلها فهو يتلى، وكلمهم متبنون بما سيقع بعد أن خرجت المرأة عن منطلق الفطرة وأسلوب الفكر الإنساني الذي رسمته لها الأديان المنزلة ووصفه الإسلام في أرقى الصور وأعلاها قدراً للمرأة حماية لها من أن تكون سلعة أو أداة أو وسيلة من وسائل بناء د امبراطورية الربا . .

(٣)

أن أى مراجعة صحيحة لهذه المقررات تكشف بوضوح عن أنها تتخطى الحقائق العامة وتحاول أن تفرض مفهوماً مخالفاً كل المخالفة للفطرة والحقي .

وأن الفكر الغربي حين أراد أن يتحرر من آثار المفاهيم التي كانت مفروضة عليه في ظل المسيحية والسكنية قد تجاوز ذلك كله تجاوزاً كبيراً وذهب من النقيض إلى النقيض وعجز عن أن يوجد ذلك التوازن: ذلك كله أن المسيحية كانت تحمل بذور المعادلة الصعبة التي فرضتها اليهودية التلمودية بالإتجاه المتضاد البالغ الخطر الذي تردت فيه البشرية من قبلها فجاءت تدعو إلى الأخلاق وإلى تطهير النفس من الفساد في مواجهة الانحلال والابتذال والفساد الذي كان مفروضاً على المجتمع الروماني .

غير أن هذه المفاهيم لم تلبث أن خرجت عن أصولها فأصبحت رهبانية وتقييداً للطلاق ، ودعوة إلى الزهد وكبح الجسد ، ولعنة المرأة .

وبعد أن كانت المرأة في الدولة الرومانية تبدل أزواج ثمان في خمس سنوات فتحت أبواب الأديرة لعديد من النساء الذين آثرن الرهبانية . وانتقل الأمر من النقيض إلى النقيض من تهالك على الشهوات إلى احتقار للزواج وانصراف عنه وامتهان للمرأة وإنتقاص لها في حقوقها الطبيعية وما تملك .

ثم جاء الإسلام بمفهومه الصحيح الواضح ، فانتقل إلى الغرب ضياء بدأ

يخرج الحياة الاجتماعية والزوجية من قيودها غير أن بعض القوى التي تملك التعبير لم يلبث أن تجاوزت بها تجاوزاً خطيراً إلى ما وصلت إليه فلسفة المرأة من إلغاء الأسرة وإنكار طابعها الفطري وإباحة الاجهاض وإخراج الزواج من وظيفته الأساسية إلى نوع من المتعة التي لا تقيدها قيود .

ودعت بعض المذاهب إلى هدم الأسرة ، وأعلنت أن نظام الأسرة نظام أرتبط بالانقراض والنفوذ الرأسمالي وجاءت اليهودية التلودية فقررت مساواة المرأة بالرجل ، وعملت على إخراج المرأة إلى العمل وإلى الحياة الاجتماعية وإلى مؤسسات المسرح والسينما والأزياء وغيرها أما الإسلام فقد وضع المرأة في مكانها الصحيح ، وقسم العمل بين الرجل والمرأة ، ولم يفرق بينهما في الخطاب والتمتع ، وخول للمرأة حق التعامل والولاية على أطفالها ومنها ضمان الرجل لمعيشة المرأة .

وجعل الرجل القوام على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم بحيث سوى بين الرجل والمرأة ، قضى للرجل ببعض الزيادة .

[ولئن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة] .

هذه الزيادة مستمدة من التفوق الطبيعي في استعداد الرجل ومن قيامه بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة .

ولما جاء الإسلام تصدّد الزوجات مع اشتراط العدل بينهما ، ورجح الاكتفاء بالزوجة الواحدة تعذر العدل بين الزوجات المتعدّدات [ولئن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم] وقد كان تعدد الزوجات لا أحد له قبل الإسلام يحدده الإسلام ووضع قاعدة تجعله مستحيلاً ، وارتفع الإسلام بالزواج من عقد التجارة أو متعة الجسد إلى أواصر المودة والرحمة .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

وأوجب الاسلام العلم على الرجل والمرأة :

ووضع حدوداً لما يكشف من جسد المرأة كالوجه والكفين .

ودعا إلى « حماية المرأة والبيت من طغيان الشهوات » ، « وضمن الاسلام للمرأة حقوق المعاملة ، وضمن لها حقوق المعيشة بكفالة الآباء والأبناء والزواج وجعل الدرجة التي للرجل على النساء منوطة بزيادة التبعة وزيادة التكليف ، « وضمن الاسلام للزواج والطلاق وحقوق المرأة أحكاماً واضحة في جانب التشريع ، كما سن أحكاماً واضحة في جانب الأخلاق » .

وهكذا تبدو مفاهيم الاسلام للمرأة في مجال تحريرها الحقيقي ، ورفع شأنها وتكريمها بوصفها في مكانها الأصيل : من إقامة الأسرة وحماية البيت وتربية الأجيال .

وحال بينها وبين محاولة إخراجها عن رسالتها أو إزالتها عن مكانتها العالية أو دفعها إلى المجال المحظور لتكون سلعة أو أداة أو كوسيلة من وسائل الشهوات .

ولقد حاولت الفلسفة المادية النيل من نظام الأسرة ووصفه بأنه معارض للفطرة عملاً للتخلص منه وجرباً في طريق تدمير هذه القيم ، ولكن الأسرة كانت وما زالت وستظل أساساً متيناً في النظام البشري في تقدير جميع علماء الاجتماع ومن وظائفها استمرار النوع والمحافظة عليه .

ولقد يبدو من محاولة الأعضاء عن الفوارق الطبيعية عن الرجل والمرأة ، بل الإمعان في القول بعدم وجود هذه الفوارق ، الهدف الواضح الذي يفرطه تقسيم العمل بين الرجل والمرأة ، ذلك أن إختلاف الجنسين يلزمه إختلاف في الوظيفة .

ولا ريب إن إخراج المرأة من دورها الطبيعي إنما هو محاولة جادة للقضاء على الأجيال الجديدة وتدميرها بحيث لا تصبح قادرة على أداء دورها في الحياة . ويؤكد المؤرخون والباحثون على تلاشي أعظم المدينيات إنما جاء نتيجة هذا الانحراف في فهم وظيفة المرأة وإخراجها من طبيعتها ، وقد حدث هذا بإرادة جماعة من الناس كان همهم إستغلال المرأة ماديا وجسديا .

ويقرر الباحثون أن المدينة الرومانية التي ورثت المدينيات العالمية التي تقدمتها قد سقطت نتيجة لهذا الانحراف . وقد وصلت إلى أوجها الأعلى ونساؤها محجبات وأعراضهن مصونة ، فلما أنس أهلها أنهم إنفردوا بالسيادة على الأرض ، مالت نفوسهم إلى الترف فاخرجوا النساء من خدروهن معارضين مع ذلك تصائح حكماهم ، فوقعوا في الإباحة ، فأثروا الشهوات والملاذ على كل شيء فضاعت فيهم الفضائل التي أنالتهم المكانة التي حصلوا عليها فأخذوا يتدهورون حتى لم يبق فيهم جلد على تحمل أعباء الحياة وقد أفرد العلماء لبيان سقوطهم المؤلفات .

قال العلامة (لويز برول) . م د مجلة المجلات الفرنسية تحت عنوان : الفساد السياسى : د أن فساد الأسس السياسة وجد في كل زمان ومن الغريب المدهش أن مظاهره في الزمن السابق مشابهة تماما لمظاهره في الزمن الحاضر بمعنى أن المرأة كانت العامل الأقوى في هدم الأخلاق الفاضلة .

و قد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعشون

بصحة النسوة ذات الطبائع الخفيفة اللاتي كان عددن بالغا - عدد الكثرة
فصارت الحال اليوم كما كان في ذلك العهد، فترى النساء اندفعن في تيار الافراط
البالغ حد الجنون وراء التبرج والذات . وتشير دائرة معارف لاروس إلى
هذا المعنى فنقول تحت اسم « امرأة » .

لم يسد هذا الحب الجنوني للترف النسوى الا في عهد الامبراطورية
الرومانية، أما في الأيام الاولى للجمهورية (أى في أيام عظمة الرومانيين) فقد
كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل الصوف ولكن البذخ تسرب الى روما يسيراً
يسيراً حتى قام (كاتون) ينذر قومه بالخطر المحدث الذى سيلتهم كل شئ .
وبعد ذلك بقايل لم يقف البذخ والترف عند حد .

وقد أشار الباحثون إلى أن ما يستهدفه إخراج المرأة من فطرتها وطبيعتها
ورسالتها إنما يستهدف هدم الأسرة وهو هدف أصيل من أكبر أهداف
اليهودية التلمودية في طريق تنفيذ مقررات بروتوكولات صهيون .

وقد حقق هذا التحول نتائج هامة (أوردتها العلامة فريد وجدي) وادى
إلى نشوء سبع علل اجتماعية :

(أولاً) هدم التوازن الاقتصادى والانهاء إلى أزمة شديدة الخطر تدفع
الجميع لقبول المذاهب المتطرفة .

(ثانياً) هدم الحياة البيئية وإفساد العلاقات الزوجية .

(ثالثاً) إنتشار العروبة بسبب فساد العلاقات الزوجية .

(رابعاً) ذبوع آفة البغاء بين الجنس وقطرف النساء في التهنك والتبرج .

(خامساً) إهمال تربية الأبناء .

(سادساً) وقوع الجنس السوى في الفاقة (حين لا يجدن العمل الخارجى ولا يمكن العودة إلى النظام البنى) .

(سابعاً) إغراق النساء فى عرض أنفسهن الى حدافساد الاخلاق واشاعة الفحشاء .

ولقد أشار اليكس كاريل فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) - وهو العالم البيولوجى المتحرر من نظريات الفلسفة - الى الاختلافات الطبيعية بين الرجل والمرأة فقال :

إن هذه الاختلافات لا تأتى فى الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، من وجود الرحم أو الحمل أو من طريقة التعليم ، إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك ، أنها تلتأ من تكون الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيمياوية محددة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنس تعليمأ واحداً وأن يمنح سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شئ بالنسبة لجهازها العصبى فالتقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى فليس فى الامكان اخلال الرغبات الانسانية محلها .

ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هى فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن فى تقدم

المحضرة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألا يتخاين عن وظائفهن المحددة .

وهذه هي شهادة العلم في مواجهة أخطار الفلسفة البشرية التي لا تستهدف الا اخراج المرأة عن طبيعتها وفطرتها ووظيفتها لدفعها لتكون أداة اغراء وليتحقق بذلك هدم الأسرة وافساد الأجيال القادمة بحرمانها من رعاية الأم الكاملة .

الفصل الرابع

فلسفة الأدب المكشوف

كان لنظرية فرويد في النفس والجنس أثرها البعيد في الآداب والفنون ، ولم يكن الأدب المكشوف قبل ذلك غريباً على الفكر الغربي الذي يدين بهجور قديمة تمتد إلى الفلسفة اليونانية والآداب الإغريقية .

غير أنه يمكن القول أن العصور الحديثة أعطت للأدب المكشوف طابعاً جديداً أشد عمقاً وأكثر شمولاً . فقد اعتبرت نظرية فرويد في إصلاح الجنس أساساً لكل تصرفات إبطال القصة ، واتخذت فروع النظرية صورة الحوار على نحو أريد أن تثبت هذه الآراء في الأذهان وتصبح حقائق واقعة .

ومن ثم فقد اتخذت النظرية ذات الطابع العلمي مجالاً لها في عالم الأدب والفن كمرحلة على طريق التطبيق العلمي الذي عرفته دعوتى الوجودية والهلينية .

وقد ظهر في الأدب الأوربي على طريق الجنس : لورنس وهافلوك اليس ثم تتابع كتاب الجنس من شعراء وقصاصون وتقوم كتاباتهم على أساس فلسفة الجسم العادى والشهوات ومحاولة تقديس الجنس ومعارضة كلمات العرض والشرف والشمم والألفة .

وقد قامت هذه الكتابات على أساس فلسفة تقيم الصراع بين العقل والجسم حيث يقول لورنس : أن العقل يحتقر الجسم ويخشاه كما أن الجسم يمتد العقل ويعاونه .

ثم يدهو إلى تحرير الجسم من إرادة العقل (أو الدين) الذي يكبح جماحه أو يطلق له العنان حسبما يشاء .

وهو يشير إلى تجاهل الإنسان حاجات الجسد ويدعو إلى حياة جديدة للإنسان في الغابات ظناً منه أن الحضارة قد قصت على الفطرة ولا ريب أن لورنس كان بطبيعة حياته موصوماً منحرفاً ، قد عجز عن أن يكون رجلاً ومن هنا كانت صرخته ثم جاءت أبواق الدعاية والشهرة فقدمته في ضجيج عنيف ووضعت كته في أيدي البنات والشباب المراهق على السواء .

حتى تقول أنتوني بيل : مؤلف كتاب لورنس : أن قصة ليدي تشارلي كتاب يلغى أن يقدم للبنات في طور التفتح ويلبغى أن يرغبن على قرائته .

والحق أن لورنس كان مضطرباً ، وكان عاجزاً عن الرجولة ، وكان السل يغزو صدره بعنف ومن هنا كانت صرخته وكتاباتة التي جاءت على طريق فرويد :

طريق تمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة : بل القاعدة الوحيدة وخطأ لورنس د هو أنه عدها القاعدة الأولى الوحيدة للحياة ، بل أن لورنس قد حاول أن يتخذها ديناً ، ونصب نفسه لهذا الدين كاهناً ومبشراً ، وتكلم عن هذا الدين بتعصب الدعاة الأول ، ربما كان هذا التعصب ومداه صادراً عن هلة نفسه ، فهي ليست الإغراق في معرفة اللذة ، وإنما هي الحرمان من معرفة اللذة .

* * *

والحقيقة أن لورنس وغيره إنما ينطلقون من المجتمع الأوربي ، ومن قيود الكنيسة ونظرة الفسك الغربي المسيحي إلى الجسد والذات وهي نظرة متمسفة تدعو إلى الرفض وتقدم هذا الجانب الطبيعي من الإنسان تقدماً خاطئاً . كما كانت الصيحة المضادة لكل ما جاءت به الأديان والانديفاع في الاتجاه المضاد .

وأن هذا أساساً هو مصدر تلك المسيحية العنيفة التي حملها فرويد ولورانس
والتي صاحبتهما ورافقتها تعديلات خاصة استمدت أثرها من الظروف الشخصية
لكل من هؤلاء، ويصور هذا المعنى كثير من الباحثين : « أن التعاليم الأخلاقية
المسيحية القائمة على بغض الجسد وعلى الغلو في كبح شهوات البدن الطبيعية
لا يمكن أن تؤدي إلا إلى افساد أخلاق الأفراد وتعليمهم النفاق والكذب
وإرغامهم على مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة الزائفة ، بينما يباشرون
في الخفاء أوضاع وأحط الشهوات » .

غير أن إضافة هذه النظرة إلى الفلسفة المسيحية - التي لم تكن من حقيقة
الدين السماوي - وإنما من إضافات بعض قاداته ، لم يكن عاملاً في البحث عن
المفهوم الصحيح لعلاقة الإنسان بعواطفه وغرائزه وهي نظرة واجهها الإسلام
مواجهة صريحة وحاسمة ، ومهد لها الطريق الصحيح للارواء والممارسة دون
الوقوع في خطأ السكبت أو في خطأ الانحراف ، أما الذين هاجموا النظرة
الفلسفية المسيحية فانهم كانوا إنما يلمسونها ليتخذوها قنطرة ومعبراً إلى غاية بعيدة
تسكن من وراء الدخوات الهدامة الإباحية التي حملت لوائها اليهودية
والتلمودية .

ومن هنا كانت تلك الدعوة إلى الحرية في معالجة الشؤون الجنسية ،
والدعوة إلى الحرية في التمتع بالجسم وعبادة الجسد ، وعبادة اللذة وأطلق على
ذلك أنه قريب من الفطرة وإن كان هو في الحق قريب من حياة الغابات وتجديد
المفاهيم الهلينية الإغريقية الوثنية المناهضة لطبيعة الإنسان المتوازنة .

ودعوة إلى التحرر من العقل والقيم والأخلاق وقد سارت الدعوة إلى
تمجيد الشهوة واللذة والجمال الجسدي إلى غايتها في شعر بودلير وجان ريشيان
ومحاولة دفع هذه المحاولة إلى صورة من صور إعلاء عبادة الجسد فيما يشبه
الصوفية الضالة .

(٢)

غير أن هذه الدعوة المتحرقة لم تلق قبولا في محيطها نفسه ، كما وجدك معارضة في خارج محيطها ، لأنها تتعارض مع الفطرة والعقل وكل القيم الإنسانية فقد عالج الكاتب الفرنسي رومان رولان نكبة فرنسا في الحرب العالمية الأخيرة وانتهى في تحليله إلى نتيجة فلسفية رائعة : هي أن الأمم الضعيفة الأخلاق الماجنة التفكير في أدبها وخيالها يتسرب إليها الخول والاستسلام تسرب الإنحلال في الشجرة النخرة فإذا لم تتلاف الأمم هذا الداء الويل قضت عليها جراثيمه الفتاكة وعرض (اسين بلا سيوس) في بحثه عن تاريخ الشعب للفارسي القديم فعزا سقوط الفرس بعد أن دوخوا الأمصار إلى الضعف الخلق الذي تشي في آدابهم وضروب معيشتهم مثبتا صحة رأيه بشواهد عديدة تشير كلها إلى أنواع الدعارة والفحشاء والانحطاط النفسى الذى تمرغوا في أوحالها فى سبيل ارضاء حواسهم بهدم كل قانون سام ونظام اجتماعى .

وقد كتب السياسى الأشهر مازريك إلى الوزير الفرنسى (لويس بارتو) (١٩٣١) ينذر بأخطار الأدب الفرنسى المكشوف فى عبادة واجهة الدلالة :

« إن أبطال قصصكم الجديدة عامة تحركهم الشهوات الوضيعة والحب الجلبى الشره ، ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا بل قد اجتوينا هذا الضرب المافون من الروايات العاطفية السقيمة التى لا تبالعنا فيها سوى امرأة سليطة يحبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها الصنديد الذى تخدعه بشتى الحيل وهكذا فى دائرة بغير انتهاء .. »

وهكذا نرى أن كتاب الغرب أنفسهم عارضوا هذه النزعة ، على الصورة التى تحركت بها بالرغم من كثير من العوامل التى تحيط بها حتى قالت كاتبة أمريكية فى مؤتمر برلين : « إن الأدب الغربى مرآة فى سقف بيت الدعارة .. »

ومها حاول المبررون لهذه النزعة من أن يصورها بصورة انسانية أو يميزوا

بين أدبين أحدهما زائف يروج للتهتك ويتاجر بالشهوات 'وآخر يحاول أن يعطوه صفته التعبير والكشف عن المشاعر والميول فإن الأمر كله لا يخرج عن أهدافه المرسومة وغاياته المقصودة ودوافعه الآتمة ، وكلها ترمى إلى أن يجعل هذه الألوان مشروعة وسائدة وهل يمكن أن يوصف الأدب المكشوف في أى صورة من صوره بأنه متصل بالميول الإنسانية أو الغايات النبيلة، وهل يمكن أن تكون الأقلام الآتمة التى تنطق عن النفوس الفاحشة من أمثال لورنس وهافلوك أليس هل يمكن أن تعرف النبل أو الإنسانية وهى غريقة فى حماة الإثم والهوى ، مدرعة بمفاهيم فلسفية تبرر بها دعواها وتحاول أن تخدع بها الضعفاء والمرضى .

(٣)

إن قضية المجلس لاتعالج عن طريق الكتابة والأدب ، وإنما تعالج عن طريق المتخصصين من الأطباء والعلماء . وهى من مسائل التناسليات التى يجرى تناولها بأسلوب خاص ، ولا تكون أداة فى يد كل شاعر أو قصاص يحاول أن يصور ندوة طارئة أو حالة غالبة . وأن المسائل الجنسية والتناسليات تتناول أسراراً ونصف كثير من حالات الانحطاط والشذوذ وتلك شئون يؤدى انتشارها وذبوعها بين العامة إلى كارثة إجماعية وحقيقية مؤكدة . وهؤلاء التناسليات يشخصون الداء ويكتمون هذه الصور من وجوه النقص وضروب الشذوذ،^(١)

ومن هنا فقد وجه الأطباء والعلماء النظر إلى خطر إلحاح الصحف فى الحديث عن الشذوذ الجلسى وصور الحب وأحداث الأسر بما يحمل اسم الفضائح ، لأن ذلك يلقى هواطف المجتمع بسموم خلقية شر من المخدرات^(٢) ويشير الباحثون إلى أن هذا الاتجاه هو الخطر الذى ابتليت به الامبراطوريات

(١) دكتور عبد الحميد سعيد .

(٢) دكتور زكى هانى .

النابرة كالرومانية والبيزنطية فدمرها وأنه لا بد من أن يتولى دراسات علم التناسليات إخصائيون يصنعون الحقائق في مواضعها مما يمكن تجنبه أو الإشارة إليه . وأن هؤلاء العلماء هم الموكول إليه وظيفة الحراسة الخلقية التي تحافظ على صيانة الرغبات التناسلية من التلوث توجيه غريزة الناشئين إلى الطريق الصحيح .

(٤)

ولربما يظن بعض الناس أن هذا التيار الذي شقه فرويد وجرى فيه الكتاب والقصاصون ، هو الغالب المسيطر ، أو أنه الحقيقة التي أصبحت المجتمعات الأوروبية تسلم بها . فهناك طائفة كبيرة من العلماء لا يرون رأى فرويد ولا يجمعون جموحه . ولقد عرضوا آرائهم في معارضة فرويد واتجاهه ومنهم الدكتور لويس بيش الطيب النفسى الذى ننقل عنه وجهة نظره :

يقول : إن دوافع الغريزة الجنسية دوافع غريزية فطرية نحاول أن تعبّر عن نفسها ، ولكن هذا لا يعنى أبداً أن عدم الإشباع أو على الأصح وضع هذا الإشباع في المقام الأول من حياتنا يؤدى إلى دمار البشرية .

والواقع أن هناك ثمة رجالاً ونساءً أفلحوا في تجنب الجنس والحياة بدونه نهائياً . وهناك آلاف النساء لم يتزوجن لأن فرصة الزواج لم تتح لهن أو لأسباب أخرى .

• والقول نفسه يسرى على رجال كثيرين لم يتزوجوا أيضاً .

• إن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة . وليس هناك ثمة ضرر جسمي أو عقلي ينتج عن الامتناع عن الجنس • وقد سألتني إحدى السيدات : هل

الجلس ضرورى لكي يتم للإنسان اتزانة العقل ، قلت وأنا أعنى كل حرف بما أقول : بالطبع لا - إن كل ما سمعته من لغو الحديث ، إن السعادة ليست ممكنة فقط في الزواج فهناك رجال ونساء عاشوا سعداء دون أن يمارسوا الجنس .

« ودعوني أكرر مرة أخرى أن الجنس في أصله «مسألة عقلية» ، قبل كل شيء ، وبالرغم من أن الدافع الجنسي غريزي فينا ، وغالباً ما يطلب الإشباع إلا أنه في معظمه ينشأ في عقولنا قبل كل شيء ، والتفكير هو الذى يدفع الجسم إلى العمل .

« ورغم أن أغلب إجراء المثير الجنسي تتكون بتأثير العالم الخارجى ، إلا أن العقل يلعب في ذلك دوراً كبيراً يفوق في أغلب الأحيان الدور الذى يلعبه المثير الأصيل ، وبعبارة أخرى: إن ما تتخيله عقولنا من الجنس يكون أشد إثارة من الجنس في واقعه الموضوعى الخارجى . « ومن ثم نستطيع أن نقول أن الكتب الجنسية وأفلام السينما والنكات الخارجية وما إلى ذلك هى المسئول الأول عن إثارة الحيوان الكامن في أعماقنا وليس الجنس في حد ذاته . « وفي إمكان الفرد أن يظل أسبوعاً أو شهراً دون أن يفكر في الجنس ، ولقد اكتشفت أن الجنس ليس إلا فكرة في رأسى ، أن التخيل هو من نتاج الذهن يلعب دوره الرئيسى بالنسبة لدوافع الإنسان الجنسية ، وما أكثر الصور المحمومة غير الواقعة التى يقدمها لنا . « إن العقل هو مفتاح الطريق لحل المشاكل الجنسية ، وهو الوسيلة الفعالة التى في إمكانك تسخيرها لمصالحك . « وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذى لن يضر شيئاً . »

ولأريب أن هذه الصورة التي يمكن أن يقال أن العلم فيها كان
متحرراً من كل القيود والخلقيات تصور مفهوماً قريباً من مفهوم الدين
الذي قرر أن الكظم لاشئ فيه مطلقاً وأن الإنسان قادر بالتحكم في عقله
ونفسه وبالتقوى والخوف من الله ومراعاة حدوده وعدم تخطيها أن يواجه
أزمة الجلس على النحو الذي يجعل كل ما كتب عنه عبارة من صرخات الشواذ
أو أصحاب الدوافع الخطيرة .

الفصل الخامس

الفلسفة الوجودية

من خلال مفاهيم فرويد في الجنس والنفس ودور كايم وليبي بريل في الاجتماع والأخلاق نشأت فلسفة تطبيقية : هي الفلسفة الوجودية التي تحولت الى حركة واتخذت من الكهوف وأندية العرى وغيرها مجالا لإبراز أجيال من الذين اتخذوا من هذه المفاهيم منطلقاً لحياتهم وعقائد سلوكهم . وقدمرت الفلسفة الوجودية في مرحلتين : مرحلة الرفض للمجتمعات ثم مرحلة الثنيان والتمرد والغربة والعيب واللامعقول وكانت الفلسفة الوجودية في مجموعها وهي المنطلق للدعوة التي جاءت بعدها وهي : « الهيبة » التي أخذت تسود المجتمعات الغربية في السبعينات من القرن العشرين .

* * *

تركز الفلسفة الوجودية على الإنسان حيث تركز الفلسفة السيكلوجية على النفس والجنس ، بينما تركز الفلسفات الاجتماعية على الأخلاق والمجتمع ، وحيث تركز الماركسية على الإقتصاد والإنتاج وهي في مجموعها تحاول خلق تضارب وصراع شديدين : ولا يجمعها جامع في الأصل انها جميعاً تستمد جذورها من الفلسفة المادية ومفهوم التطور . وتقوم نظرتها الى الإنسان على أنه جسد تنطبق عليه تجارب الحشرات والأنعام .

وتهم الفلسفة الوجودية بالدعوة الى تحرير الإنسان من كل القيود :

قيود المجتمع وقبود الأديان والأخلاق في محاولة للوصول به الى الغربة

والياس . وان الحياة لا معنى لها ولا قيمة فالوجودية هي محاولة للانفصال التام عن كل قيم الدين والمجتمعات ومسئولياتها لكي يصبح الإنسان حراً طليقاً سيد نفسه ويستمد سارتر فلسفته من داخل نفسه ، ومن تحدياته الشخصية ، التي تعرضت لها حياته (كما استمد فرويد فلسفته ومفاهيمه) . يقول سارتر : لقد صنعت ذاتي لا تأتي لم أكن ابناً لأحد ، والإنسان لا يوجد بل يصنع نفسه واليوم كند والغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشيء . ولا لذة لشيء . ولا أمل في شيء . وتحاول الوجودية أن ترسم طريقاً للإنسان : تضع فيه الناس بوصفه سيد العالم ، الحر الطليق الذي ليست عليه رقابة لأحد ، ولا مسئولية عليه لأحد ، يفعل ما يشاء دون حدود ، وينطلق وراء رغباته وغرائزه فالإنسان « محكوم عليه بالحرية ، دون أن يكون خاضعاً لآية سلطة ، والإنسان وجد ذاتياً ويحمي ذاتياً وليس فعل فاعل ولا عبودية عليه لأحد وكل إنسان يكيف نفسه حسب مشيئته ، وحق ماضى الإنسان لا يسيطر عليه منه شيء . الا ما يريد هو ، فهو الذى يحكم نفسه بنفسه وهو الذى يوجه نفسه لما يريد في المستقبل . وأن كل إنسان يستطيع أن يعيش على النحو الذى يريد غير متقيد ببيئة أو تربية أو أشياء ماضية وهكذا تمضى مفاهيم الوجودية كما صورها سارتر وكامى وغيرهم منطلقاً الى أبعد مدى من تصور الحرية للإنسان الذى يعيش داخل مجتمعات ونظم وأوضاع وصقائد ليس من السهل عليه أن يتحرر منها على هذا النحو .

(٢)

بدأت الفكرة الوجودية من خلال كتابات كيركجارد ثم تحولات من خلال كتابات هيدجر نحو الإلحاد ثم جاء سارتر فوسع النظرية وعمقها وصحبها في قالب روائى مسرحى . ومضى على الطريق كثيرون منهم البير كامى وغيره .

وتوصف وجودية كيركجارد بالوجودية المسيحية ، أو ثورة على المسيحية الغربية يمكن أن توصل تاريخياً بأن توضع في صف تلك الثورات التي تعرضت لها المسيحية الغربية كثورة نيشو وثورة ماركس .

فقد حمل كيركجارد في مؤلفاته العشرين على معتقدات مجتمعه الديني حملة عنيفة وهاجم الكنيسة ودعا الناس إلى الإيمان بأنفسهم .

ومن هنا كانت الوجودية دعوة صريحة ضد المسيحية ومحاولة لهدمها وحرباً سافرة على الأديان كلها . ويربط بعض الباحثين الدعوة الوجودية أساساً منذ أغانها كيركجارد بمجموعة التحديات التي واجهت المسيحية الغربية والكنيسة .

يقول أحد الباحثين في هذا الصدد :^(١)

« أن الحياة ليست بذات قيمة في النظر المسيحي . وعلى حساب الطبيعة البشرية ضحى المسيح بحياته الأرضية ليكسب الخلود الإلهي ، واعتبر كل ما هو مادي خطيئة يجب بترها . وأول هذه الخطايا الجسد الإنساني « هذا جسمنا المجنون الشيطاني ذو الآلاف شهوة » .

أن مملكة المسيح ليست في هذا العالم ، والحياة الحقيقية هي الحياة الخالدة وهي تبدأ بعيداً عن الأرض ، في السماء « انزوى وأصبح مثاله الأعلى هو التصوف : ذلك الرجل الذي نقي غرائزه في سقف ديره المنعزل وأقام من نفسه في قلب الصحراء شاهداً على سحق فكرة الإنسان » .

ومعنى هذا أن الوجودية إنما جاءت بمثابة رد على الزهادة المسيحية التي قاومها الفكر الغربي ذي الجذور الوثنية الإغريقية . ثم لم تلبث هذه الوجودية أن خرجت في صورتها التي حاول سارتر أن يرسم مخططاتها ، خروجاً كاملاً على الأديان وعلى المسيحية ومعارضاً لمسل فكرة اتصال بالعقائد الإلهية وواضعا الإنسان في مقابل الله على حد تصويره وتعبيره : [الاله موجود فالإنسان عدم وإذا كان وجود الله يلغى الإنسان وجب إذن إلغاء الله لوجود الإنسان] .

وقد ذهب سارتر إلى أبعد المدى في هذه المفاهيم التي لاتوافق الفطرة أو العقل أو أصول العلم ومناهجه في محاولة جريئة لطرح مفاهيم ملحدة ويستلهم سارتر مفهومه هذا من نيتشه ، ويمجرى على نفس نهج فرويد في اتخاذ الأساطير اليونانية منطلقاً لآرائه .

ومن الحق أن هذا التيار الذي غلب على الفكر الغربي كله ، إنما جاء تحدياً للصورة الأخيرة التي فرضتها الكنيسة المسيحية الغربية على ذلك النحو الذي بعد بها عن الاستجابة لطباع النفوس ، من خلال تعقيدات العقيدة ومن الاشارة إلى أسرار لاتعرفها إلا الكنيسة ومن جبرية ووصاية على الفكر البشري ، كل هذا باعدين الفكر الغربي بعد تحولاته تأثراً بالعلم ومقرراته إلى فلسفة حديثة مضطربة تحاول أن تخلق نهجاً فكرياً يحل محل الدين ، دون أن تصل إلى ذلك ، لأمرين : لأنها تتخذ منطلقها من خصومة عنيفة وتعصب بالغ في مواجهة كل ما يتصل بالدين ، ثم كان لما وراء ذلك من محاولات (اليهودية التلودية) وعدائها القديم للمسيحية أبعد الأثر في تعمق هذا الاتجاه ، ومن ثم في سيطرة المفكرين اليهود على الفكر الغربي كله واحتواء الفكر الغربي المسيحي والجملة عليه على هذا النحو الذي لم يدع منهجاً من مناهج الفكر :

سواء في الماركسية أو خلال علم النفس أو علوم الاجتماع أو من خلال الوجودية .

ولقد جاءت الوجودية في ظل تحديين خطرين : الأول هو الموت بالحرب على النحو الذي شهدته أوروبا في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وما لازال يهدد البشرية بحرب نووية . مما هز النفس الأوروبية التي كانت قد استغرقت كل علاقة لها بالدين والایمان . أما التحدي الآخر فهو هؤولاء الكتاب أنفسهم وسرائر حياتهم ودوافعهم البعيدة الأثر في إنتاجهم ، من أمثال نيتشه وكيركجارد وفرويد وسارتر ، وكلهم موصوفون في حياتهم على نحو خاق في نفوسهم غصة وفي كتاباتهم مرارة .

ثم كان للقوى الأخرى التي حملت رياح هذه الأخطار والدعوات فنثرتها في كل مكان وأعلت من شأنها بالنسبة لآراء ونظريات أخرى أخفت أصواتها لأنها لا تتقدم أهداف اليهودية التلودية ومخططها الواسع العميق وأن إلقاء نظرة سريعة إلى حياة هؤلاء الكتاب لتؤكد أنهم في تقدير البحث العلمي غير صالحون لأن يكونوا من قادة الفكر، فلام في الطليعة من الأبرار الذين يحفزهم إيمان بالإنسانية أو يتطلعون إلى تقديم إضافات لرفع مستوى البشرية أو هداها، ولام من العقل أو الحكمة في المحل الأول فانهم مضطربون عصيبياء، قد صدمتهم أحداث الحياة بكثير من الأزمات التي حملت نفوسهم المرارة والحقد على المجتمعات فاندفعوا إلى هدمها .

إن مثل هذه النظرة ضرورية للحكم على مثل هذه الصيحات التي تعارض رقي البشرية وتدفعها إلى ظلمات الغابات والجحور مرتدة بها عن التوحيد والإيمان إلى مناهج غاية في القسوة والضياع وسارتر كما تصفه سيمون دي بوفوار (ألقى الناس به) : كان يكره الحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة وهو لا يكاد يهتم أن تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض ولن يكون أبداً رب أسرة حتى ولا رجلاً متزوجاً ، لم يكن سارتر يرى في الزواج شيئاً عظيماً ، كان فوضوياً أكثر منه ثورياً ، كان يحدد المجتمع على ما كان عليه شيئاً محترقاً ، ويمكن القول بأن كل مذهب إليه سارتر في فلسفة إنما استمدته من تحديات حياته الخاصة يقول أحد الباحثين : د لعل من أسباب نزعة سارتر ، أنه ولد حيث لا أب ولا أم ولا أسرة ، أبوه مات في شهره الثالث ، أمه ممسوخة الشخصية لم تشعره أبداً بسلطان أمومتها ، والأسرة لا تتعدى جدين هجوزين يؤيانه هو وأمه ويشعرانها بأنهما ضائعان . وكان ينظر إلى البشرية نظرية مائة بعطف مشوه أساسه الاحتقار .

أنكر الكنيسة: يقول كنت كاثوليكياً وفي نفس الوقت بروتستانتيًا، أراد أن يؤكد ذاته بأن له رسالته وهو الطفل المنبوذ في مجتمع بقية الأطفال العاديين .

هنا هو التحدى الذى دفع سارتر إلى أن يحمل تلك الحملات العنيفة على الدين، فقد عجز هذا الدين أن يعطيه فى حياته الأمن والطمأنينة، فاندفع يحول هذه الصيحة الذاتية إلى صيحة عامة، قد تجد لها صدى بعيد .

ولقد كان كيركجورد يقاسى مثل هذا التحدى : أمه خادمة تزوجها أبوه سرّاً وكان إلى ذلك أحداً ، مما ضاعف علته النفسية، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص، فاعتزل المجتمع وعاداه، وكانت مؤلفاته العشرين هجوماً على معتقدات مجتمعه .

ولم يكن ينتشه أسعد فى حياته من رسارتر وكيركجارد، ولا أقل منهما عقداً نفسية بسبب سوء صحته، وقد كتب ما كتب وهو طرح عليل فى المستشفيات داعياً إلى دين القوة ونبد فضائل الضعف من حذب ورحمة ورفق الضعفاء، وهجوم لا حدة له على الدين وعلى المسجد بالذات .

ولقد كانت وجهة هؤلاء جميعاً مقاومة الاعتقاد بالله فى أديانهم، ولم تكن صورة « الله » فى عقائدهم هى الصورة المثلى ولا الصورة الحقيقية .

فقد اختلطت فيها البشرية بالآلوهية، ثم علت البشرية، ومن ثم فتحت الطريق أمام افتراض أن يكون الإنسان هو الآله، وهو سيد نفسه، ومن هنا كانت صيحة الفلسفة الغربية إلى ما أسموه « إلغاء وجود الآله » .

وقد أشاب سارتر إلى محاولة تعليل وجود العالم، بين القول بأنه قديم أو محدث، ومضت تلك المراحل إلى القول : « بأن هذا العالم وجد بلا داع ويمضى لغير غاية » .

وقد صور سارتر هذه المعانى فى كتابه الكينونة والعدم، وقصة الغشيان، وإذا كانت تحديات الدين فى الغرب قد كانت بعيدة الأثر فى مأساة حياة سارتر وكيركجارد ومنتشه وفى فكرهما فإن أزمة العصر أيضاً قد امتدت إلى أبعاصه .

أخرى في التقدم التكنولوجي نفسه الذي يتصور الإنسان ترسا في ماكينة أو قطعة غيار في جهاز .

لقد عجزت المعطيات الديلية والفكرية في الغرب أن تقدم شيئا للنفوس التي واجهت الفراغ الروحي بعد الحرب والفرع الشديد من أخطار الحروب النووية ، وكان الاتجاه مع الوجودية إلى إنكار كل مقدس ، أو فتح أبواب الحرية على مصاريها دون أى قيد من العوامل التي حاولت اليهودية المسيحية أن تفرى بها الأجيال كطريق للحياة ولكن السنوات التي مرت على هذه التجربة كشفت عن زيفها وعن أنها لم تحقق أكثر من أن زادت موجه البلبلة والشك والحريرة والجحود والقنوط ، ذلك أن الفلسفة الوجودية لم تقدم شيئا بناء يشكل النفوس من جديد أو يبعث فيها الطمأنينة ، وإنما قدمت مفهوما متشابها مغرقا في الحقد على البشرية يصور مستقبلها مظلما حالكا الظلام وجاوبت أن تبت في النفوس أن الإنسان ضائع ، وأنه خلق ليقاسى العذاب . ويعيش في الفراغ ، فهي لم تزرع الأمل في النفوس ولم تعمل عملا إيجابيا أو جديدا يفتح الآفاق إلى ضياء جديد .

(٣٠)

تواجه الوجودية كل القيم البشرية المطروحة بالرفض ، فهي ترفض القديم والجديد معا ، وترفض التراث وتدعو إلى التحرر من القيم المتوارثة السالبة (ونعني هنا تراث المسيحية الغربية والكنيسة) وهي في نفس الوقت ترفض سيطرة المادة وسيطرة التفكير العقلي وتنكر المبالغة في تأليه العلم وتقديره وتسخيرهم في أشغال الحروب والتسابق الذري ، وهي في نفس الوقت الذي تهاجم فيه رجال الدين المسيحي الذين يقول عنهم سارتر (الذين لا يعرفون من الدين إلا قصوره ، الذين تركوا مبادئه السامية وأخفوا نفاقهم وراء ملابسهم الكهنوتية الفضفاضة والهايب المدلى والكتاب المقدس) وبينها يهاجم سارتر (١٣٢ - الأيديولوجيات والفلسفات)

ما يستخدمونه من وسائل لما يصفه بأنه مخادعة الشعب وابتزاز أمواله ، بينما يقول هذا بما يفهم منه أن الدين حق وأن رجاله هم الذين أخطأوا ، نرى زلولة إيمان الناس في أقدس مقدساتها بالقول بأن الناس هم الذين خلقوا الله (سبحانه جل وعلا) وليس الله هو الذى خلقهم كذلك نجد الوجودية وهى تنكر قدرة العقل على تعدى حدود الظواهر والمحسوسات ثم هى فى نفس الوقت تدعو إلى التشاؤم فهى تهاجم المثالية والمادية فى نفس الوقت . وتهاجم الدين والحضارة . والعلم والأخلاق .

ولكنها تكشف حقائق لا بد منها فهى تقول أن اليأس والتمزق النفسى الذى يمر به العالم اليوم إنما ولده الخواء الروحى والفراغ^(١) ويمكن القول بأن الوجودية هى صيحة احتجاج ضد الدين كما فهمته أوربا وضد طغيان الجماعة وتهوينها من شأن الفرد ، وأنها كشفت كثيراً من أخطار الفكر الغربى والمجتمع الغربى وتحيدياته ، ولكنها لم تستطع أن تجد الطريق الصحيح ، وإنما انحرف بها الهدى فبلغت غاية الاضطراب حين دعت إلى فض الحياة كلها ، وحين دعت إلى قطع آخر علائق الضوابط ، والمثل والمعائد والقيم واتجهت إلى فلسفة الكهوف والغرائز وظلام المصور البدائية الشاذة .

(٤)

إن إلقاء نظرة واسعة مستفيضة إلى الفلسفة الوجودية تكشف عن حساسة العاطفة واندفاع الوجدان ، وضيق الأفق ، والعجز عن النظرة المستوعبة والإحساس بأن العالم يستطيع أن يغير نفسه أو أن يخرج عن إطاره العام سواء أكان هذا الإطار تاريخياً أو اجتماعياً . إذ كيف يعرف الإنسان نفسه بنفسه دون أن يستعين على ذلك بتاريخ أو فكر أو عقيدة أو منهج للعرفة وكيف يستطيع

الإنسان أن ينتزع نفسه من ماضى البشرية كله وأن يعيد النظر من جديد في المجتمع الإنسانى وقيم العالم الذى يعيش فيه دون أن يكون معه أداة ذلك من عقل أو دين أو تجربة سابقة أو خبرة العلم أو بضاعة الوجدان والفطرة . إن الدعوة إلى الانسلاخ من الأسيرة البشرية والشك فى التراث ، والتحلل من العقائد والتقاليد والقيم جميعاً لن تمكن الإنسان من معرفة نفسه بنفسه ولن تقدم له أى زاد للحياة أو أى أسلوب للفهم أو المعرفة . ولاشك أن هذه العبارات على سذاجتها تدل على اندفاع وحاس وغضب ولا تصور منهجاً فلسفياً يمكن أن ينظر إليه نظرة المراجعة أو التقييم الصحيح ، وكيف يمكن أن يتحرر الإنسان من كل رابطة أو علاقة أو عقيدة ، فإن ذلك كله لن يحقق الحرية المنشودة للإنسان ، بل إن هذه الدعوة لن تحرر الإنسان من الأزمة التى يعانىها بل هى ستدفعه إلى هوة مظلمة من اليأس والقنوط . ومن هنا كانت معارضة الفلسفة الوجودية للفطرة الإنسانية ولمنطلقات البشرية إلى التقدم والبناء والحياة . وقد صدق دكتور روجيه جارودى : حين وصف الوجودية بأنها فلسفة هدم لآبناء ومحاولة لتدمير الشخصية الإنسانية وإسقاط النفس البشرية فى مجالات اللذة والشهوات حتى تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها .

ولقد كان (جاز برك) أعمق فهمها حين قال : إن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الإنسان أن يتخطاها وهى ليست روحاً (Essence) .

* * *

ولقد أجمع الباحثون على بواغث الفلسفة الوجودية ، وعلى مصادرهما .

أما بواغثها فهى أنها لبنة فى مخطط اليهودية التلمودية التى تحاول أن تحطم القيم والأديان والأخلاق . أما مصادرهما فهى الشخصيات الموصومة ، غير السوية المتميزة بالقلق والحيرة ، والتهلها من تجاربها الذاتية لتحديات شاء

أصحابها أن يفرضوها على الفكر ثم جاءت القوى المصدرة للفكر فأذاختها ودقت لها الطبول . وهي في مجموعها تقوم على اليأس من الحياة . ولذلك أطلق عليها اسم فلسفة العدم والانهلال وهي تقوم على التحلل من كل القيم والصواب . وتستمد وجودها من الفلسفة المادية وتقوم كرد فعل للفلسفة الجماعية في محاولة لإعلاء الفردية على حد يعتبر بعض الباحثين : الفرد يعيش ضمناً في الماركسية ويعيش أصلاً في الوجودية . وهي في مواجهة قول ماركس : تضحية المجتمع في سبيل الفرد وتقوم على نفس الأسس التي قامت على مختلف الفلسفات الماسونية اليهودية التلودية التي عمدت إلى احتواء الفكر الغربي والسيطرة عليه : إنكار الإله وإنكار البعث والجزاء وإنكار الأخلاق والطمع من الموت . وهي تهاجم العقل هجوماً تاماً ، وتدعو إلى قتل التفكير وإلغاء استخدام العقل . وترى أن أسلوب النحرر تقوم على قتل العقل والمنطق ، وترى أن الإنسان لا يستطيع أن يصابهما .

(٥)

أجمعت المراجعات التي عرضت للوجودية على حقائق هامة :

(أولاً) إنكار الوجودية كل محصول البشرية من التجارب في الماضي ، فهي لا تأبه به وتنادى بضرورة تجاهله ، وأن يبدأ الإنسان من جديد تماماً كالإنسان البدائي . وهي تحتقر العلم وتنكر قيمته . ولا تقدم مضموناً بناءاً بعد هدمها لكل القيم .

(ثانياً) إنكارها للواقع الإنساني ، والتاريخ الاجتماعي كله لأنها تنطلق من مفهوم الوجود الذاتي الفردي . وهي تجعل الذات الفردية عنصراً منفزلاً ومستقلاً تماماً عن الوجود العام لأجزاء منه .

(ثالثاً) تقوم الأخلاق في الوجودية على القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة في الموت والغموض والآنانية المفرطة .

(رابعاً) دعت الوجودية من خلال كتابات قادتها إلى :

التفكك والتحلل والقوضوية واللااخلاقية (كيركجارد) ثم انتقلوا إلى مرحلة أشد عنفاً في الاستهتار بكل القيم والخروج من حيز الفكر إلى حيز التطبيق بمثابة في كهوف الوجوديين حيث يستعرض لونا مريضاً بشعاً من الحياة .

(خامساً) اتسم الأدب الوجودي (في الفقه والشعر) والفن الوجودي في الرسم والسينما وكذلك الصحافة بطابع البدائية المفرقة في الإباحة . من أعلام جنسية ومجلات عارية تحمل صوراً غاية في الإباحية .

(سادساً) ظهور الحقن الدفين على الكنيسة فقد اتخذت الفلسفة الوجودية من الديانة هدفاً لجلالاتها .

(سابعاً) عادت الوجودية إلى عزل الإنسان عن الجماعة وركزت على إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية وأنكرت القيم الخالدة .

(ثامناً) دعت إلى تحقيق الذات بإطلاق القوى النفسية والفردية بدون قيد .

(تاسعاً) التجرد من القيم والمبادئ التي قدمتها الأديان المنزلة للبشرية في مجال العقيدة والأخلاق .

(١) واجبنا في هذا عنبدأ من الأبحاث منها بحث عن الوجودية (محاضرات الموسم الثقافي

٢٠٠٣) وبحث في الثقافة مايو (١٩٥٨) .

الفلسفة الوجودية حلقة من حلقات الفلسفة الماسونية اليهودية التلويديّة ؛ ومن هنا فعلينا أن نضعها في مكانها ونصنفها في هذه السلسلة المتتابعة من المدارس الحديثة في أوروبا^(١) . ولن نفهم المدارس الحديثة في أوروبا ما لم نفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها ، وهي أن أصعباً من الأصابع اليهودية كاملة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترى إلى هدم القواعد التي يقوم على مجتمع الإنسان في جميع الأزمان . فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان . . واليهودي دوركايم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل أثارها في تطور الفضائل والآداب .

• واليهودي - أو النصف يهودي - سارتر وراء الوجودية التي جاءت معززة لكرامة الفرد ، فجّح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بأفات القنوط والانحلال ، ومن الخير أن ندرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلها شاع في أوربه مذهب جديد ، ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود ، وقل مثل ذلك في العلامة سيجموند فرويد اليهودي الذي هو من وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية والحلقية والفنية والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية كي تبطل قداستها ويخجل الإنسان منها ويرده منها ويسلب الإنسان الإيمان بسموها مادامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه وبهذا تتخبط في نظره صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وماوراءه ، ويرد البعض الوجودية إلى المسيحية : يقول الدكتور غلاب : إن منشأ القلق بل الغم أحياناً عند أولئك المفكرين

هو أن المسيحية لا تقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذي يتوق إلى فهم كل شيء ، بل إن العقيدة المسيحية كثيراً ما تتطلب تخلي العكر عن رسالته ، لأن بعض مبادئها تصطدم مع العقل الذي لم يعد لقبولها . وقال غلاب : إن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشواذ وحياتهم الخاصة آتية بالاضطراب (كيركجورد - جابريل مارسيل - سارتر) .

• • •

ويرد بعض الباحثين ظاهرة القلق كلها إلى الفلسفات ، ويرى البعض أن الوجودية قد جاءت في خاتمة الفلسفات لترفض النظم الفلسفية جميعاً .

بأنه أهبة بالإنسان في دنياه وأبعادها إلى الله تعالى فبعضهم يفتقد هذه القوة فلهذا كان
من أكثر جهالاتهم من جعلها الرأفة بغيرها فيكونوا يسيرون في ظلماتهم دون نورها
فلهذا قالوا : فقالوا بالانسان : الفصل السادس
بالله لا يوفقنا الله تعالى على ما نريد من الخير والبر إلا بتوفيقه تعالى
الفلسفة الهيكلية

كان لابد أن تشر دعوات الجنس والنفس ، وكتابات الأدب
المكشوف والقصة آثاراً بعيدة الأثر في المجتمعات الأدبية : أتمثلت في صورتين
متأليلين : الفلسفة الهيكلية والفلسفة الهيكلية
الوجودية والهيكلية .

أما الوجودية فقد عاشت في ظلام الكموف أما الهيكلية فقد تلتها لتفرض
وجودها على المجتمعات وتندفع بأقصى قوتها من خلال الأزياء والملابس ،
ومن خلال إطلاق النفوس والأجساد بما يشبه العودة إلى الصورة البدائية
لإنسان الغنابة والعودة إلى صورة الحيوان وذلك استمداداً من فلسفة تقوم
على رفض المجتمعات والآداب والقيم والأخلاق . والدعوة إلى الانحلال
والإباحة .

وقد كان هذا التطور طبعياً في الفكر الغربي والمجتمع الغربي وأمر لابد
منه كنتيجة للفلسفة التي فرضتها عوامل كثيرة والتي توالى وتتابعت منذ وقت
طويل من خلال الفلسفة المادية وإنكار مختلف القيم المستمدة من الأديان
والقائمة على الاعتراف بالله والأنبياء واليوم الآخر وسريان روح الإنكار
والسخرية بكل ما يتصل بالغيب أو ما ليس محسوساً واستعلاء الفلسفة على العلم
وخروجها من أيدي المفكرين الغربيين المسيحيين إلى اليهود ، الذين حملوها
ومعهم كثير من غيرهم من خلال المحافل الماسونية ، في نطاق أهداف

اليهودية التلمودية الطامحة في السيطرة على العالم بعد تدميره وخوابه وإبقاعه .
الانحلال به .

ولن أقل مراجعة لبروتوكولات صهيون لتكشف عن أن ما بلغت الفلسفة
الهيبة وما أعلنته إنما هو واحدة من هذه الخطوات الجريئة في مخطط طويل
يؤتي ثمرته مرحلة بعد مرحلة .

فالفلسفة الهيبة تقوم في الأساس على قوائم ثلاث .

× الفلسفة المادية .

× فلسفة الجنس والنفس الفرويدية .

× فلسفة دوركايم ولبنى ريل القائلة بأن الأخلاق غير ثابتة .

فإذا تدرج الفكر الغربي من إنكار للبعث فإن ما يتبع ذلك هو أن الحياة
هي كل شيء ، وإذا كانت الحرية هي الانطلاق وما دام ليس هناك مسئولية أو
جواز ، فانه ليس هناك التزام أخلاقي ، وإذا كان الجنس في رأى فرويد هو مصدر
كل المشاعر والصرفات ، فإن الانسان ليس سوى حيوان ، وإذا كانت
الأخلاق غير ثابتة على حد قولهم فإن للمجتمعات أن تلتمس من الأخلاق
ما يناسبها . كل هذا كان لابد أن يشكل حركة تندفع بالشباب الى كل رغبة
وغاية ومطمح على النحو الذي دعت اليه الوجودية ، فإذا اندفعت المجموعات الى
ذلك لم تلم أن تجد فراغاً عنيماً ، ووحشة مقبضة ، تجعلها ترفض الحياة .

وهنا تكون الهيبة واقعة لهذه المجموعات التي وصلت الى آخر حلقة من
حلقات ذلك السباق الجنوني فإذا بها لا تجد شيئاً ، بل تجد الرفض الكامل للحياة
والمجتمعات والقيم والأدب والفنون جميعاً .

وهنا نجد هذا الشعور بالغربة والوحشة والتزق والفتك والغثاس ، ومن هنا

عملت على سطح المجتمعات : جماعات أشبه بجماعات النور القديمة ، ممزقة الملابس وقد تركت شعورها حتى نمت نموا كبيرا ، مع إنصراف عن الماء ، فتراكت الأقدار وبدأت روائح كريهة من خلال الأجساد والملابس .

(٢)

إذا راجعت كلمة هيبيز في اللغة (Hippisn) وجدنا أن معناها منطبق حقا على هذه الصورة : فهي تعني (سوء الخلق) وهو مأخوذ من اللغة اليونانية القديمة (Hypochondriacal) وهي صفة كل فرد يعاني إضطراباً عقلياً يؤدي به إلى الإنقباض والكتابة ويصل به إلى داء السوداء (الميناخولى) وهو ما يشبه الجنون .

وتقوم فلسفة الهيبيية على الرفض الشامل للمجتمعات والحياة ، والانقباض إزاء قيمه وأماله ، مع ممارسة التحلل الصريح لكل القيم الروحية والاجتماعية ، ومع الانسحاب من المجتمع ، إلى العراء والصحراء وهذا يعني أن مضامين فلسفات ماركس وفرويد وسارتر ودوركايم ولينين بريل التي فرضت على المجتمعات الغربية لتحل محل مفاهيمها المسيحية القديمة قد أثمرت هذا الجيل من مرضى النفس ومنحرفي السلوك ومن الساخطين والمتمردين ، الذين ينكرون كل شيء ، دون أن تقدم الفلسفة الهيبيية بطريق للتحرر ، أو تكشف لهم ضوءاً إلى البديل الصادق فقد غررت بهم الفلسفات المضادة والجنسية ودفعتهم حركات الوجودية إلى الاندفاع إلى سطح الحياة الاجتماعية ليشكلوا ظاهرة معقدة شديدة التعقيد .

ويرى بعض الباحثين أن الهيبيية هي انفجار في الوجودية حيث ظلت الوجودية أكثر من عشرين سنة تمارس نشاطها في الكهوف ، بإطلاق الشعور

واللحمى ، والعري ، والاباحة ، وإطالة الشعور والسوالف ، والملابس المشجرة والضيق والزاهية وإذا كانت الوجودية هي ثمرة الفلسفة الماسونية اليهودية التلمودية لتدمير القيم الدينية في الغرب ، فإن هناك محاولات أخرى للاستفادة منها عن طريق مستعمرات العري أو معسكرات الهيز التي تأخذ بها بعض القوى الرأسمالية كوسيلة لاستجلاب السائحين .

وقد أثمرت حركة الهيبة ، ثمرة في خروجها إلى المجتمع واتصالها بالشباب بما عرف في السنوات الأخيرة من مظاهرات صاخبة للشباب في عديد من عواصم الدول الأوروبية وفي فرنسا انطلقت الهيبة من السربون وخرجت من الكليات العملية كالتب والهندسة ، وليس من كليات الآداب والفنون ، ويرد الباحثون الظاهرة كلها إلى اليهودية التلمودية الخفية ، وإلى الصهيونية التي تعمل للقضاء على قيم المجتمعات وتحطيم كل تراث ديني أو أخلاقي ويجمع الباحثون على أن حركة الهيبة حركة هدامة مخططة لتدمير الحضارات والقيم ، فهي معارضة للنظام والنظافة والعمل وإحياء لمفاهيم الوحشية والغابة والقتل والسفاد ومن عجب أنها تعمل على هدم كل شيء ، دون بديل ، إلا ما قدمه فلاسفة الهيبة التلمودية أخيراً من مفاهيم مستمدة من الفلسفة الهندية هي أشد قسوة من مفاهيم الأديان التي حطمتها الفلسفة المادية .

(٣)

اهتزت المجتمعات الغربية بعد أن انفصلت عن مفاهيم الدين على النحو الذي عرفته من خلال المسيحية الغربية والكنيسة ، وكان لمفاهيم تآليه المسيح والامرار السبعة والخطينة في مواجهة أضواء العلم ومفاهيم العقل أثر بعيد في الاضطراب النفسي الذي صاحب النفس الغربية التي لم تجد أمامها غير العلم لتتخذ بديلاً للمفاهيم الروحية والنفسية والدينية ولم يكن العلم قادراً أن يعطي

في مجال ليس مجاله ، فكانت الفلسفة التي حاولت أن ترسم أيديولوجية بعد
أيديولوجية لمهج اجتماعي نفسى يحل محل الدين والعقيدة دون حدود .
وكانت المحاولات التي سبقتها الفلسفة الماسونية في السيطرة على الفكر
الغربي أثرها في إيجاد بديل أشد قسوة وعنفاً ، ذلك هو بديل اليهودية التلمودية
في الدعوة إلى حجب مفاهيم الألوهية والغيب وإنكار البعث والجزاء والتركيز
على إقامة الحياة الدنيا على أنها الغاية الوحيدة للإنسان في الحياة من خلال دعوة
إلى الإنطلاق والتحرر من كل القيم وتحطيم كل الضوابط التي تحول دون
تدافع الغرائز والرغبات ، وتحويل ذلك جثثاً إلى فلسفة منهجية لها طابع
علمي براق .

ومن هنا فإن النفس الغربية تحت تحديات اضطراب مفاهيم المسيحية
الغربية ومعتقداتها ومن خلال الدعوات الجديدة التي كانت تستهدى القضاة
على بقايا الدين والعقائد والإيمان بالله والغيب والبعث والجزاء ، تشكلت مفاهيم
الفلسفة المسادية التي أقامت القاعدة للفكر الليبرالى الراسملى ثم على نفس
القاعدة ظهر الفكر الماركسى والدعوات التي قادها فرويد ودوركايم والتي
بريل ، ثم كانت الوجودية نهاية لذلك وعنها انطلقت الهوية حصداً عنيفاً
صارخاً لا يبق على شيء .

ومن هنا نشأت قضية الغربة والغريب .

الغربة للمجتمعات والغريب للفرد .

والجملك رباح الخريف كلات هو سمان المشايعة الباسية .
و أنا غريب وخائف في عالم لم أصنعه أبداً ،
Lia Stranger and afraid in a world J never made .

وواجهت المجتمعات هذه الأحاسيس الرهيبة التي خلقتها هذه الفلسفات
وهي وراءها تفسير قائم على الحروب التي أكلت الملايين والحروب الذرية
المتوقعة في كل لحظة وحاول بعض المصلحين في المجتمعات الأوربية العمل
بالكلمة على « إتشال الفرد بما يعانيه من الغربة التي تؤدي به إلى الخوف وبالتالي
إلى النفور من المجتمع وما يشعر به الفرد من فراغ نفسى ومن وحشه وانفصال
بينه وبين مجتمعه .

وارتفعت الأصوات تقول أن التركيز على الجانب المادى من الحياة لم يحل
المشكلة فقد خلق معتقداً بأن المجتمع يتألف من أفراد كلالات يتوفر لهم
الطعام والمأوى والملبس ويعملون لآلة أكبر هو الدولة، وتبين أن مرض
« المدينة » ليس هو الفقر المادى الذى يعانيه الكثيرون بمقدار ما هو إنسياد
روح الحرية والثقة بالنفس وأن الدعوة الماركسية قد فشلت لأنها حصرت
نفسها في العوامل الاقتصادية وصرفت نفسها عن جوهر الحقيقة التي هي روح
الفرد، الذى هو مصدر الإنتاج .

(١)

ويعالج كولن ولسن في كتابه اللامنتمى (The outsider) موضوع الغربة
التي يعاني منها العصر فيرى أن الغربة مرض متصل بتصدع الذات أو إنشقاقها
نتيجة عدم تواءمها أو انسجامها مع المجتمع الذى تعيش فيه .

وطأن ظاهرة الغربة هي مشكلة إجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصال
عن مجتمعه . ويرى أن الرومانى برغم حيرته وشكها أنه لم يفقد الإيمان
بالحقيقة .

أما الغريب في هذا العصر فهو إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها . فالعالم
في رأيه عالم مفتقد للحقيقة أو عالم زائف قائم على اللامعقول والفوضى وعنده

أن طبيعة الحياة في المجتمعات المتحضرة وما تفرضه من سلوك خاص ثمجيب عن الإنسان حقيقته الأصلية فيحاول أن يخضع نفسه بالمظاهر السلوكية وبالفلسفة أو الدين مقنماً كل ما في أعماق ذاته من نزعات وحشية ومن فوضى وكأنه كأن راض عاقل متحضر .

ويصل ولسون إلى أن أزمة الغريب إنما هي أزمة فقدان الإيمان يظل فيها على حال من القلق والتأمل والعذاب حتى يظفر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة ، عند ذلك لا تبقى نظرة الشر هي الغالبة على تفكير الغريب . ويرى ولسون أن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد ليس بمقدر على حل مشكلة الغريب فإن ثمة إمكانيات أخرى في الإنسان لابد من إستغلالها وتطورها للكشف عن مبررات للشر الذي أحاق بالبشرية . والذي هو سر من أسرار أزمة الغريب الكبرى .

وينادى ولسون بالبديل ويقول : أن الغريب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهره عامة في الحياة المعاصرة بحاجة ماسة إلى بديل ليشبع عنده العاطفة الدينية ويحمد عندها الملاذ الذي يبحث عنه .

ويهاجم ولسون فكرة الخلاص المسيحية ويدعو إلى تحرير الإنسان والفكر الغربي من معتقدات وهمية تسيطر على الإنسان المسيحي ويرى أن هذه العقيدة تقف حائلاً بينه وبين رؤية الحقيقة^(١) . ويقول ولسون أن مفهومات مثل الخطيئة الأولى والخلاص هي إحدى مصادر الغربة وهي تقرأ للغريب بطريقة طبيعية ، وعنده أنه بتحليل فكرة الخطيئة الأولى . مثلاً يتضح لنا أنها تعنى نفس الشيء الذي تعنيه فكرة الوهم في الديانة الهندية

(١) راجع كتاب اللامتنع لكون ولسون والمراجعة التي أجراها له الدكتور محمد زكي المشاوي في كتابه (الأدب وقيمة الحياة المعاصرة) .

فالناس في نظر (راما كريشنا) ليسوا خاطئين بالمعنى المسيحي للعقلة وإنما هم
أرواح مخدوعة بالآوهام ولذلك فهو يقول : أنه من الضروري التخلص من
الخطيئة الأولى ، لأن الخطيئة الأولى في حدود فهمه لها هي مايجب الحقيقة
عن روح الإنسان .

* * *

ومهما يكن كولين ولسن يصدر عن نفس تراث الفكر البشرى الموغل في الوثنية
والشكوك والأساطير فإنه يكشف كثيراً من جوانب الاضطراب التي أصابت
المجتمعات الغربية ويردها إلى أنها نتيجة الانفصال عن الدين أو العقيدة ويرد
كولين ولسون أزمة الإنسان المعاصر إلى غلبة مفهوم العقل وسيطرته الكاملة
التي سحقت سحفاً كل القيم الروحية النفسية والأخلاقية من رحمة وتسامح: يقول
« أنها أزمة العقل المسيطر على الإنسان ، فقد أضعف العقل الصرف مركز
الاشعاع العاطفي في الإنسان وهو العقيدة الدينية » .

وإذا دعا ولسون إلى (تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفي عن طريق
الإرادة) كحل لازمة الغريب فإنه لن يجد أمامه مفهوماً أعمق للدين الحق هو
الاسلام ، ولذلك فقد لجأ إلى فاسقات الهند الصوفية الحديثة .

ولكنه من خلال هذا التخطيط في الرؤيا يحاول أن يقول ما يطابق مفهومنا
أنه ليس في إمكان الإنسان أن يفصل من نفسه مايعتريه من صداً أو ما يغلف
إحساسه من سماء إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي .

أما كيف يصل إلى ذلك فإن كولين ولسن يعجز عن أن يرى المورد النهر
وهو حين يذهب إلى التأمل الروحي : يرى أنه يؤلف بين الإنسان والوجود ،
ويوقن (أن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة) وهذا
الإصرار على المفاهيم الروحية والنفسية والصوفية إنما يكشف عن ظاهرة

جديدة في الفكر الغربي تحاول أن تواجه الظاهرة المادية ولكنها تعجز عن الوصول إلى شيء.

ويقرر ولسون : أن وصول الإنسان إلى لحظات الكشف هذه تحرره أولاً من التفكير العقلي المجرد الذي أثبت أنه غير قادرة وحده ، على إدراك أي معنى حقيق وراء هذا العالم ، وهذا تفسير صحيح وهو يصدق أيضاً حين يقول :

« أن أزمة الغريب : أزمة فقدان الإيمان بظن فيها على حال من التكامل والعذاب حتى يشبع عنده عاطفة الدين المفقودة ، وكذلك يصدق في إقراره بأن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد ليس بقادر على حل أزمة الغربة ويصدق في القول بأن ثمة إمكانيات أخرى ، في الإنسان لا بد من استغلالها ويرى ضرورة إجراء التوازن بين الإرادة والعقل والعاطفة بما يحقق التكامل النفسي ويختلف موقف كولن ولسون هنا عن موقف الوجودية وعن موقف سارتر والبير كامى اختلافاً واضحاً . وإن كان في كتاباته يرتبط بهما ويحاول أن يكون إضافة جديدة لها . ولكنه يصدق في تفسير الأزمة نفسها حيث يرى أن أسباب الأزمة ترجع إلى طبيعة العصر نفسه وإلى مآمرات به أوروبا من تجارب ومآثراته من أحداث نتيجة التحول الصناعي وسيادة التفكير العقلي والمبالغة في تأليه العلم وتقديسه بل وتسخير أحيانا في إشعال الحروب وخلق جو من التوتر والتنافس في سباق التسلح الذرى ، ومن هنا فقد كان طبيعياً أن يؤدي هذا كله إلى خلق هذا الشعور بالقلق المبهم المقيم الذي استبد بالإنسان القرن العشرين حتى أصبح مرضاً شائعاً وطابعاً يميزاً للإنسان هذا العصر .

وكان طبيعياً كذلك أن يصاحب هذا القلق احساس لبعث الحياة وانعدام الدافع والمسوغ لبذل الجهد والطموح في عالم قد يباغته الدمار في كل لحظة .

ومن هذه العوامل نشأت نوبات التوتر والقلق والغربة والشعور بالبعث .

وانعدام الجدوى من الحياة، وكان مصدر ذلك في الحقيقة هو ضعف العقيدة الدينية والافتقار إلى الإيمان بالله .

ويرى كولن ولسن : أن حاجة الإنسان إلى إشباع عاطفة الدين أمر لا ينقطع وهو الطريق إلى القضاء على الغربة .

ولكنه لا يعرف كيف يصل إلى العلاج الحقيقي في الدين الحق الذي لا يعتمد لأهله ومعتقيه مفاهيم الخلاص أو الخطيئة الأولى .

وأن تهويته ولسن حول الصوفية والرؤيا والكشف إنما هي ضعف في رؤيا الأديان القائمة في العالم والتعرف عليها .

ويصدق كولن ولسن في القول بأن أول خطوة للتحرر من الغربة هي اتباع طريق النمو المنسق للإنسان بكل نواحيه مـمـاً (جسمه وعقله وروحه)^(١)

(٤)

هناك تجربة أخرى من خلال الفكر الغربي نفسه تحاول أن تكشف الخطر وتركز الضوء عليه وإن عجزت أيضاً في الوصول إلى الحل الأصيل .

تلك هي ثورة الطلاب والمثقفين :

وهي ثورة تحاول أن ترتبط بالجماعات الهيدية من حيث مفاهيمها ولكنها تخطو خطوات أشد عمقا في رفض الأيدولوجيات القائمة في مختلف للعالم العربي ولا شك أن ظاهرة الرفض لها أكثر من مصدر وسبب . إذا خلصت لنفسها

(١) أيضاً راجع بحث الدكتور مصطفى بيدي في مجلة كلية الآداب ١٩٥٨ ،
(١٤٤ - الأيدولوجيات والفلسفات)

دون أن يكون وراءها محرك أو دافع من الدوافع التي تظاهر كل حركات
الاتقاض على المجتمعات المعاصرة .

وأبرز معالم هذه الظاهرة سواء بالنسبة للييفية أو الشباب عامة هي ذلك
التقص الواضح العميق الذي تواجهه هذه المجموعات من ناحية النفس والعقيدة
بما يخلق ظاهرة الغريب .

فقد ثبت أن هذه الأيدولوجيات على اختلاف أنواعها قد هزرت عن إدخال
الآمن والإيمان إلى النفس البشرية ، بل أنها زادت اندفاعاً إلى القلق والضياع
باصطحاب النداءات المادية سواء في مجال الاقتصاد أو في مجال النفس والاجتماع
حتى لتكاد تستشعر جماعات الشباب روح العدا والشر والحق.

ويرى بعض الباحثين أن هناك تناقضاً مدبراً لحاق روح القلق والضياع
والغربة ، ذلك هو الربط بين دراسة مثاليات الحضارة وأحلام القوميات
الأخلاقية بما يرتفع بالنفس البشرية إلى الصورة المثلى في الكتب ، فإذا ما اتصل
الناس بالحياة واجهوا معارضة تامة وصورة مختلفة فيشعرون بما يشبه الصدمة بين
عالم المثال وعالم الواقع .

ويركز الباحثون جميعاً على أن مصدر الأزمة كلها هو ضياع الإيمان واليقين
وإن إمكانيات العلم وقدراته الضخمة لم تستطع أن تحقق الثقة .

فبحث ألقي الدين السلاح إزاء طغيان العلم ، في النصف الثاني من القرن التاسع
عشر ، جاء العلم في منتصف القرن العشرين فألقى جميع إمكانياته ومقدراته معترفاً
بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة ، وهكذا سقط آخر درع تحصن به
الإنسان^(١) بعد أن سقط التاريخ والفلسفة . غير أن هذه النتائج الحقيقة قد
تهدتها دعوة أخرى خطيرة تقول :

(١) بصرف عن نجيب صالح : في بحثه عن الطلاب جهل الغضب والثورة .

« إن مجتمع غربة الإنسان يجب أن يزول من التاريخ لأننا نصنع عالماً جديداً أصيلاً .

هذه الصيحة هي الغاية التي ترمى إليها الفلسفة الماسونية وخططات اليهودية التلودية على النحو الذي صورته بروتوكولات صهيون .

هذه هي الصيحة الخطيرة التي تمكن وراء كتابات هربرت ماركوز وكثير غيره ممن يحملون اليوم على النظامين الرأسمالي والماركسي جميعاً والدعوة إلى المجتمع العالمي واحتواء الفكر الغربي لجعله فكرياً عالمياً هو من أعمال الصهيونية العالمية . ومن هنا قد استطاعت اليهودية العالمية احتواء الحركة الهيدية وحركات الشباب إلى الغاية التي تريدها ، من خلال الوعد برؤيا جديدة للعالم كله (وهذا ما زاراه أيضاً في دعوات الروحية الحديثة وغيرها من الدعوات من حيث استغلال الفلسفات المختلفة إلى الغاية الكبرى .

ويرد بعض الباحثين زعرة الغربة والقلق التي يعيشها الإنسان المعاصر إلى تحكم الآله : وسيطرتهم على الإنسان بحيث يبدو كأنما هو خادم لوثن صنعه بيده

غير أن هذا في الحق عامل فرعي في مشكلة تقوم أساساً على سقوط الدين والأخلاق في مجتمعه سقوطاً فاسقياً واندفاعه إلى ظاهرة الانطلاق والتحرر السكامل من كل قيد ، مما أفقده الارتباط بمحوره الأساسي .

ولقد حاول السيس كاريل أنه يصل إلى هذا المعنى حين قال : لقد عانى المجتمع المعاصر منذ نشأته من خطأ عقلي ، خطأ ما زال يتكرر منذ عصر النهضة . لقد كونت التكنولوجيا الإنسان ليس تبعاً لروح العلم ولكن تبعاً لأراء مينا فيزيقية خاطئة ، وما قد جان الوقت لكي يتغلب عن هذه المذاهب .

« يجب أن نخطم الحواجز التي أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة بين مختلف الجوانب لأنفسنا .

« النخلة المسنولة عما نعلمه ، جاء من ترجمة فكرة جاليلو إلى فصل الصفات الأولية للأشياء التي يمكن قياسها بسهولة عن الصفات الأخرى وهي : (الشكل — اللون — الرائحة) التي لا يمكن قياسها ، أى فصل الكم عن النوع ، ولقد كانت تجزئة الأشياء أمراً ضرورياً ولكن إهمال هذه الصفات لم يكن كذلك ، لقد دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان . »

فهلينا أن نجدد الإنسان مرة أخرى ، يجب أن نصحح الخطأ الذي جعله شبيه بالآلة . يجب لكي نعيد للإنسان ذاته أن نعلمه هيكلاً الحضارة التكنولوجية نفسها . »

ويتساءل بعض الباحثين : « هل اتجه العلم نحو الإنسان ليكون إنساناً . »

هل طرح العلم أى جديد أمام قضايا العصر الميكانيزمية التي تقلق الإنسان والإجابة « إن العلم نفسه أصبح أزمة من أزمت الإنسان تضيق إلى مأساته أخطر حلقة مأساوية في تاريخ البشرية (١) . »

« لقد حاول العلم أن يحل قضية الإنسان فغرق وأغرقه فيها وإذا كانت البشرية تتعلق جيلاً بعد جيل بآمال لحل قضاياها الكونية فإنها بعد اعتراق العلم بعدم قدرته تصبح معلقة بخيوط الهواء . »

* * *

ويعرض (هيريك . ج . دوسو للابرايس) أستاذ علم التلويح بجامعة بيل ، لدور العلم في حل قضايا الإنسان المعاصر فيقول :

إن مسئولية رجال الفكر في وقت كثرة فيه الحديث عن العلم والتكنولوجيا هي النظرة إلى الوراثة في التاريخ استكشافاً لجذوب الأوصاف السائدة اليوم ثم التطلع إلى المستقبل لإتاحة قدر ممكن من المعرفة أمام مجتمعنا الذي يبحث اليوم عن استراتيجيات جديدة .

وإن العلم ينمو بسرعة تتضاعف ثمان مرات لكل مضاعفة في كل الأمور غير العادية ، فهو ينمو بسرعة تجعل كل ما عداه يبدو بالمقارنة وكأنه ساكن تقريباً .

ومعنى هذا أن العلم قد سقط في إمكان إعطاء البشرية مفهوماً كاملاً أو يحجب عن الأسئلة الخالدة : لماذا نمحيا ، ولكن معنى هذا أن تبحث البشرية عن الدين الحق لتعرف أن القوى الغازية المسيطرة تعرف كيف تحول بينها وبين ذلك وتمهد لها لتذهب في تيه جديد .

(٥)

إن الباحثين يرون أن الدين بمفهومه في الغرب (المسيحية الغربية) والفلسفة والتاريخ جميعاً قد هجروا عن تحقيق المصالح البشرية إلى الإيمان واليقين :

أما الدين فقد كانت المسيحية الغربية على النحو الذي صيغت فيه بعيداً عن مفهومها الأساسي هاملاً خطيراً في تعويق النهضة ، ومقاومة العلم ، وتأليه الانسلاخ ، ووضع الخطيئة أمامه كحاجز ضخم .

ثم جاء التفسير المادي للتاريخ فمعجز أن يقدم له حلاً لمشكلته ، ثم جاءت الفلسفة فتخطت تخطأً شديداً ودفعت الإنسان دفعاً إلى أحضان المادية القاسية وسأقت الناس إلى تعمق الشك في القيم الدينية والأخلاقية ، وجاء العلم فمعجز عن أن يحقق للبشرية شيئاً في مجال الإيمان واليقين .

كان هذا اليأس من كل المقررات التي فرضت نفسها هو دافع حركة الرفض
والغربة التي استطارت باسم الهيدية .

والهيدية هي صيحة اليأس الكامل والعودة إلى عصر الكهوف والغابات
وشواطئ الأنهار بالمرى والسلبية ورفض المجتمع ، والالتجاء إلى العقاقير
والمخدرات التي تدفع إلى الذهول والاستغراق . وسقوط كل قيم الروح والكمالات
الإنسانية والاتجاه نحو الجنس وعبادة الجسد ، ومعارضة الحضارة والعمل
والنظام ، وإنكار فطرة الزواج والأسرة ، وفهم الحرية على أنها الانطلاق
السكامل من كل قيد واللاأدرية والخوف من الموت ، ضد العقل والروح معاً ،
و ضد القيم والتاريخ .

ويرى بعض الباحثين : أن الهيدية فلسفة جديدة ويردونها إلى خلاصة
فلسفات الشرق والقديم من وثنية ومجوسية (مانو وبوذا وزرادشت) .

ولما كانت الهيدية تهدم كل شيء ونحطم كل القيم فانها تقف عند ذلك دون أن
توجد بديلاً لما تقوم به .

غير أن القائمين من وراء الهيدية وثورة الشباب يحاولون أن يعطونها مدداً
جديداً حين يدعون إلى توجيهها نحو اليوجا والفلسفة الهندية القديمة التي تقوم
على وحدة الوجود والبوذية بمفهوم الرفانا، ومعنى هذا أن تقوم الهيدية على وهم
آخر ، يستمد من الفلسفات الوثنية التي حطمت شخصية الإنسان في الماضي ،
ودفعته إلى الفرق في لجج وأوهام النسك والتصوف ومسائل الكشف والحلول
والاتحاد وذلك ما يمكن أن يصل به إلى مفاهيم الروحية الحديثة التي هي إحدى
| دعووات اليهودية التلويديّة ، ومن هنا تجرى محاولة تقديم إبطال الوثنية القديمة
كنماذج للبطولة الجديدة .

الفصل السابع

فلسفة وحدة الحضارة

أول الحضارة الواحدة،

يحاول الفكر البشرى أن يطرح في مجال الحضارة مفهوماً فلسفياً تاريخياً يقول بأن العالم لم يشهد غير حضارة واحدة : هي حضارة البحر الأبيض المتوسط ، هذه الحضارة التي تتصل من القديم بالفينيقيين ، والبابليين والحشيين والآشوريين والسكديانيين والآراميين وغيرهم ، وهي التي لم تلبث أن أصبحت حضارة يونان ورومان ثم دخلتها عناصر عربية في فترة من فتراتها ثم لم تلبث أن عادت مرة أخرى إلى أوربا ويرى أصحاب هذه الدعوة أن هذه الحضارة قامت على ثلاثة قوائم هي الفكر اليوناني والنظام الروماني والدين السامي .

هذا الرأي يجعل لواء الدعوة العنصرية من أجل خلق تصور بأن الحضارة التي ظهرت في شرق البحر الأبيض المتوسط وغربة واحدة ، اتصلت في العصر القديم ثم اتصلت في العصر الحديث مرة أخرى حيث الحضارة الغربية سائدة مهيمنة والشرق كله مطحون تحت جناحها بالسيطرة والتبعية . وهي في محاولة إبراز دور الشرق في القديم إنما تركز على كل العناصر الوثنية من تراث بابل وآشور ومصر وترى أنها أعطت اليونان ثم هاد اليونان والرومان فسيطروا على هذه المناطق ألف سنة .

حق الدين السامي الذي يجعله عنصراً من عناصر هذه الحضارة الواحدة .

يرده أصحاب النظرية إلى عناصر وآثار تعود إلى أصول هندسية وفارسية ومصرية غير أن الساميين صهروها بحرارة أرواحهم فنفخوا منها الدغل فانجملت الخرافات والأساطير عن دين حي فعال بعث في قلب الإنسانية الرجاء والأمل، وهو تصوير يحذف للأديان الكبرى المنزلة التي اتخذت من هذه المنطقة قاعدة ومنطلقاً لعطاء البشرية كلها.

وكانما تقصر النظرية التي يرددها جورج سارتون في كتابه :

(The unity and Diversity of the mediterranean world)

كانما تقصر العطاء والتبادل والحركة بين محورين لا غيرهما :

محور اليونان أو روما في الغرب ومحور فينيقيا أو لبنان في الشرق فاليونان والفينيقيون هم وحدهم حملة لواء الحضارة في مجال الملاحة والتجارة والثقافة . كانت في يد الشرق ثم تحمل اليونان زمامها في أوائل القرن الخامس للميلاد . بعد أن مضى على بشة نحوامن التي سعة ومن ثم كان البحر الأبيض مجالاً للتنافس اليوناني الفينيقي حتى قام الاسكندر فنشر لواء الثقافة الهلينية فامتدت حتى أواسط آسيا والهند ، ثم جاء الرومان لجمعوا هذه المنطقة كلها في ظل الإمبراطورية ثم قامت الكنيسة بأعباء التبعية لما تداعت الحضارة الرومانية .

ثم جاء الإسلام ودخل الغرب معترك التاريخ .

غير أن جورج سارتون وغيره من دعاة الحضارة الواحدة يقفون أمام دور الإسلام وقفة بعيدة عن واقع التاريخ وحقائقه ، فيها كثير من الظلم والإتقصا للدور الضخم الذي قام به ، وللتغيير الجذري الذي أدخله على الفكر والتاريخ والجغرافيا .

ذلك أن النظرية الظالمة تقول أن دور العرب لم يبدو أن يكون : نشر مآثورثوه من الفرس ، وما اقتبسوه من اليونانيين والأقباط وما أخفوه من

النصارى واليهود وصابئة حران الوثنية ، ولم يكن عملهم أكثر من أنهم حملوا
لواء الحضارة الواحدة : لواء حضارة البحر المتوسط ، وزادوا عليها ونشروها
في أنحاء امبراطوريتهم من الأندلس غرباً إلى الصين ومن بحر الخزر إلى
منايع النبل .

ذلك أنه الخطأ الفادح التي يحاول أن يصور الحضارة الواحدة «الفينيقية
الهيلينية» وقد احتوت العرب واستولت على المسلمين قد دخلوا في مجراها وصبوا
فيها ما كانوا قد استقوه من حياة الثقافات الأخرى ، على حد تعبير «أنيس
فريجه» ، ولذلك فإن دور العرب الذي قاموا تجاه هذه الحضارة : لم يرد أن
يكون في تقديرهم عن الدور الذي قام به من سبقهم من شعوب المتوسط
(كالإيجيين والفينيقيين واليونان والرومان) .

وكأننا لم يكن دور العرب والمسلمين دوراً شاملاً وقيادياً ومختلفاً كل
الاختلاف عن كل الأدوار ، بل كان فيضلاً بين عهدين ومحصنين في تاريخ
الإنسانية كلها .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن العرب لم يدخلوا التاريخ العالمي
إلا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض البحر المتوسط وساروا في
مجرى حضارته ، بل أن ظلم النظرية يتجاوز هذه الدعوى إلى دعوى أشد
صفناً وقسوة حين يقول : أن العرب بعد أن خرجوا من الصحراء قبل ثلاثة
عشر قرناً ووجوههم مصوبة نحو الغرب لا الشرق ولم يكن للصحراء أثر
محسوس في ثقافتهم وحضارتهم .

والحق أن العرب قد استمدوا وجودهم الفكري من محور «مكة» الأصيل
الذي بدأ به إبراهيم وانتهى به محمد صلى الله عليه وسلم وليس محور مكة هو
الصحراء بالمعنى الذي تصوره هذه الكلمة ، ولكنه هو مهيض وحي الرسالة

التي بدأت بحنيقية ابراهيم السمحاء واكتملت برسالة الإسلام الخاتم التي جاء بها محمد . فالصحراء بهذا المعنى هي التي أهدت الإنسانية أروع معطيات الحق والتوحيد . ومن هنا فإن المسلمون والعرب لم تطرف لهم عين في الاتجاه نحو السكبة في مكة فهي قبلتهم في الصلاة . وهي قبلتهم فكرياً وروحياً وثقافياً . ومن هنا فإن أثر الصحراء بهذا المعنى كان محسوساً في كل مقدرات حياتهم منذ يوم برع ضوء الإسلام وإلى اليوم وإلى آمام بعيدة لا حصر لها .

(٢)

هذه النظرية تحاول فرض الاستعلاء العنصري الأوربي الغربي من خلال منطلق استعماري وسيطرة ثقافية وتغريب واحتواء ولكنها في نفس الوقت تحاول إعلاء مفهوم يحاول أن يسيطر على الفكر العربي نفسه ويحتويه وهو نظرية الأجناس والعنصرية اليهودية التلمودية التي فرضت على التوراة بالتحريف لإقرار مفهوم السيطرة المستمدة من مفهوم « الشعب المختار » الذي يحاول أن يرفع نفسه فوق أجناس الأرض جميعاً من خلال أسطورة لم تتحقق علياً ومن خلال واقع يريد أن يفرض نفسه على كل مقدرات التاريخ والعلم والصحافة والثقافة المعاصرة بالتزوير والتحريف . والإضافة والحذف . ومن الحق أن يقال أن الإسلام جاء فاصلاً بين عهدين : وأنه قد صحح كل مفاهيم التوحيد والدين الحق والشريعة والأخلاق ووضعها في الصورة النهائية .

ومن المعروف أن كل ثمار المعرفة الإنسانية إنما جاءت بها الأديان السماوية المنزلة ثم اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية ثم لم تلبث المفاهيم الأصلية أن انحرفت واستعلت مفاهيم الفكر البشري وسيطرت بالوثنية والتعدد والعنصرية وعبادة الأجساد والأبطال وإعلاء العقل أو الوجدان على النحو الذي عرفته الفلسفتين اليونانية الإغريقية والهلينية الشرقية . وكذلك انحرفت الأديان السماوية عن مضامينها الأصلية انحرفاً خطيراً فظهرت نظرية : إله الجنود عند

اليهود والأبوة الإلهية عن المسيحية ، ومن وراءها نظريات إنكار البعث والالتزام الأخلاقي ممثلاً في القول بوحدة الوجود وغيره من انحرافات .

ولذلك فقد جاء الإسلام راسماً المنهج الرباني الذي يهدى الإنسانية إلى التوحيد الحق ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري ، ومن اضطرابها وفسادها .

ومن هنا فإن ما جاء به الإسلام لم يكن في الحق كما صوره جورج سارثون وغيره من دعاة نظرية الحضارة الواحدة : لم يكن كل ما قدمه الفكر الإسلامي هو ما ورثه العرب من الفرس وما اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط أو ما أخذوه من النصارى واليهود وصائبة حران الوثنية . ذلك لأن معطيات الإسلام إنما جاءت سابقة سبقاً بعيداً عن ما يحاولون الإشارة إليه بما ترجم إلى الفكر الإسلامي من فلسفات ، فقد استكمل الفكر الإنساني منهجه الأصيل ومضمونه الواضح المستمد من القرآن قبل أن تترجم الفلسفات . ولم تزد الفلسفات الفكر الإسلامي شيئاً ، بل لعل الفكر الإسلامي بذاتته الأصلية قد استطاع أن يتحرر من منطق اليونان ووثنية الفرس وتعدد الهنود وغيرهم ، وظل قادراً على أن يقدم للبشرية منهجاً صادقاً متكاملًا من القرآن ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أن ما ورثته البشرية من الفرس والبيزنطيين والنصارى واليهود وصائبة حران الوثنية إنما هو ذلك الحصاد الذي واجهه الإسلام بالحق وقال فيه كلمته النافذة الحاسمة .

(٣)

إن المراجعة الحقيقية لتاريخ الحضارة في الشرق يرتبط بهجرة إبراهيم عليه السلام حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد والتي تمتد تاريخياً إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في القرن السابع بعد المسيح ، والتي تمتد جغرافياً من العراق إلى سوريا إلى مصر إلى الجزيرة العربية والتي مرت من خلالها مختلف الأديان السماوية المنزلة

وقامت في ظلها الحضارات الآشورية والكلدانية، الفينيقية والآرامية وكلها عناصر ترجع إلى أصل واحد هو إبراهيم كما أن كل الأديان القائمة اليوم ترجع إلى أبناء إبراهيم، إسماعيل وإسحق ومن هنا فإن الحضارة قد بدأت في فرع إبراهيم الذي يقطن مناطق سوريا وبين النهرين والذي كانت عناصره قد هاجرت أساساً من الجزيرة العربية وتشكلت في شمالها ثم كانت رسالة محمد في الفرع الإسماعيلي الذي يرتبط بهجرة إبراهيم إلى مكة ورفع قواعد البيت وإقامة دين الحنيفية والتوحيد الذي جده محمد ﷺ ومن الحق أن يقال أن هذا العالم بمحدوده الجغرافية والفكرية هو عالم الحنيفية والعروبة وهو نفس العالم الذي حاولت أن تصوره دعوة إبراهيم في ذريته القائمة بالحق والتوحيد . غير أن تياراً حاول أن يصارع هذه الدعوة : ذلك هو المحاولة اليهودية والتلودية لتحريف التوراة ولخلق تصور هنصري قائم على مفهوم الاستعلاء من خلال أسطورة « شجب الله المختار » وإن المراجعة الدقيقة للعهد للقديم تكشف تبايناً واضحاً بين اليهودية وبين مفهوم الدين الحق وتعارضاً عميقاً حيث يكشف العهد القديم عن عنصرية واضحة واستعلاء صريح . يخالف مخالفة صريحة مفهوم الإيمان بالإله الواحد حيث الناس جميعاً أمة واحدة لأفضل لأحد على أحد ولا جلس على جلس إلا بالعمل .

غير أن اليهودية التلودية لم تلبث أن حرفت التوراة وأزالت هذا المعنى من الحنيفية السمحة واستبدلته بمفهوم [العنصرية] وقد أوضح هذا المعنى الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي حيث يقول في بحثه عن مقارنة الأديان : « إن التوراة قد صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية أما القرآن فقد قدمها في كتاب يؤكد الحنيفية . ولكن المسألة ليست بمجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتابين ، فالتوراة يوماً ما هي أيضاً قدمت الحقائق من وجهة نظر الحنيفية ، إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن وهذا دليل على أن الحنيفية أو الخبر التاريخي كما قاله القرآن الكريم هو الحق ، فوجود الحنيفية في التوراة بحرف دليل خارجي على صحتها خبر القرآن الكريم ، ثم

يخصى الدكتور الفاروق بصور الفرق بين العنصرية وبين الخيفية فيقول :
 « العنصرية : تمثل حزب أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع من أفضل المخلوقات
 واتباع نظام أخلاقي يقضى بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار في أى قبيلة
 أو شعب أو أمة أخرى أما الخيفية : فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كذوى رسالة
 يحملونها إلى البشر أجمع ويخصونها بالانصهار في جسم البشرية التي كانوا
 ويأهدها - الذين ينصرون معهم عن طريق المصاهرة والمواخاة - لغتهم
 وثقافتهم ورسالتهم ، لذلك جاءت التوراة بعد أن ، بلورتها العنصرية يقول :
 إن إبراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ، ولكنها تعتمد السكوت على أمر يهوه ،
 فهي تقول أنه أمر تلقائي عرضى أى لا سبب له فالتة في نظرها فضل إبراهيم لأنه
 هو ، وقد فضل ذريته لأنها ذريته بل قطع عهداً (لا ميثاقاً) على نفسه بتفضيلها
 مهما حصل إلى الآن حتى الإله تمثلته كإله هذا العنصر من دون الناس ، أما القرآن
 يخاف يعلن أن الله إله الجميع لا قدرة وقهراً بل حياً ورحمة ، وجاء يؤكد أن هجرة
 إبراهيم لسبب وجيه « هو التوحيد ، وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجازيه
 أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات وأنه تعالى سيعاقبه أشد
 العقاب بل سيبدله وقومه إذا لم يحققوا هذه الأمانة ، إذن نحن أمامنا نزعتان :
 نزعة أفاية متعنتة ونزعة أخلاقية متفتحة أخلاقية ، لولا الأولى لما استطاع
 المهاجرون الذين تابعوا سيرهم إلى مصر الابقاء على عنصرهم في مصر ولما
 اضطهدهم المصريون ولولا استمرارها لما كان تاريخ اليهود المعروف قاليهود
 أبناء هذه النزعة ، . هذه النزعة العنصرية هي التي تحاول أن تفرض نفسها على
 مفهوم الحضارة الواحدة بينما حقائق التاريخ تثبت غير ذلك تماماً : تثبت أن
 الاسلام جاء مجدداً لدين إبراهيم الحقيقي القائم على التوحيد الخالص .

(٤)

تؤكد المصادر المختلفة أن اليهود حرّقوا العقيدة التي جاء بها موسى وزيفوا

التوراة من أجل إعلاء مفهوم اليهودية التلمودية الذي عرفوا به على مدى العصور:
قوامين على الربا والعنصرية وتآليه المال .

وقد صور ذلك أحدم ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة بأوضح بيان :
« يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التي
كانوا هم عليه وجعلوا منه إلهاً (هو الإله يهوه) فهو ليس خالقهم بل مخلوق لهم .
وفي يهوه صفاتهم الحربية ويهوه إله قاس مدمر متعصب لشعبه ، لأنه ليس إله
كل الشعب بل إله بني إسرائيل فقط ، وهو بهذا عدو الآلهة الآخرين كما أن
شعبه عدو الشعوب الأخرى ، ومن خلال هذا التحريف نشأت نظرية الشعب
المختار وفكرة السيطرة على العالم وتغلغلت فكرة الشعب المختار في أعماق النفسية
اليهودية حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الديانة اليهودية بحيث أنها تصبغ والعدم
سواء إذا جردت منها ،^(١) ومن هنا كانت انطلاقة السيطرة على أساس أن المال
هو الإله الحقيقي : على حد تعبير كارل ماركس حين يقول أن المال هو إله
إسرائيل المطاع وإمامه لا يبلغى لأى إله أن يعبد ،^(٢) »

ومن هنا كانت محاولة اليهود في فرض هذا الإله على العالم كله فإذا تحقق ذلك
كان نصراً ساحقاً لليهود . ومن هنا تحاول اليهودية التلمودية أن تفرض نفسها
مصدراً للحضارة منذ فجر التاريخ واحتواء كل ما قامت به الأمم المختلفة
في منطقة الشرق من خلال دين إبراهيم . وتجري تحريف التاريخ بما يوافق
هذه الغاية .

وتجري هذا التحريف مجارى عدة : فهو يحاول أن يستوعب الفكر الاغريق

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ص ٣٤ ج ٢

(٢) نؤاد محمد شبل : فلسفة الحضارة

(٣) ماركس : المسألة اليهودية

الوثني القديم ويستعيده من جديد، كما أنه يجرى تجديد الدعوات السابقة للإسلام كالفيديقية والأشورية والبابلية والفرعونية والوثنية العربية الجاهلية.

ويحاول إنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية وما يتصل بها من بناء الكعبة وقيام ما يتصل بنبوة إسماعيل وقيام دعوة التوحيد في مكة قديماً .

ومن هنا يبدو إعلاء النصرانية اليهودية التي قاومت دعوة المسيح عيسى الذي جاء برسالته داعياً إلى مقاومتها وشيخها . لقد دعا المسيح عيسى إلى هدم النصرانية اليهودية وحذر منها .

وقد جاء القرآن بالقول الفصل في هذه القضية كلها . فأعلن أنه نبوة إبراهيم وماسكم ليست نبوة دم أو ميراث وإنما هي نبوة فكرة وإيمان : وقد قررت الأديان كلها (بما فيها اليهودية والمسيحية) شجب النصرانية وجعلت موضع التفاعل بالعمل وأن نسب إبراهيم نسب عمل بما آمن به وهذا ما يصوره القرآن في قوله [وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن قال أنى جاءك للناس إماماً قال وون ذنبي قال : لا ينال عهدى الظالمين] .

فضلاً عن إشارة القرآن إلى أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، ومن كل هذا يتقرر أن الخيفية السمحة هي التي شادت هذه الحضارة التي عرفها الشرق كله والتي قامت أساساً على التوحيد ثم انحرفت عنه من خلال الدعوة النصرانية التي قادها اليهود فأفسدتها إفساداً شديداً وغلبت عليها الفكر البشري بوثانيته وآلهته ثم جاء الإسلام محمداً لدعوة التوحيد ومحرراً لها من عنصرية اليهود وتعدد التحل الأخرى :

(٥)

ومعنى هذا أن الدعوة الخيفية التي دعا إليها إبراهيم والأنبياء من ملته جميعاً إنما كانت تقوم على التوحيد الخالص وعلى نشر رسالة خلقية تقوم

هل المساواة والعدل وغيرها من القيم الثابتة الأزلية الأبدية . .
كانت هذه المنطقة الجغرافية من النيل إلى الفرات والجزيرة العربية هي
منطلق هذه الدعوة إلى العالم كله ، ومن هنا كانت وحدة هذه المنطقة تاريخياً
ولغوياً وعقدياً وفكرياً وسلوكياً وخلقاً^(١) .

غير أن هذه الدعوة حين أفسدتها العنصرية اليهودية ، تجددت من بعد في
بني إسرائيل خاصة - يقول الدكتور الفاروق: «لما أراد العبرانيون أن يجعلوا من
أنفسهم طائفة قائمة بذاتها متميزة ، ثارت روح العروبة لتصون قيمة من أهل
القيم في رسالتها وهي إنعدام الطائفية» .

• وجاءت المسيحية لتؤدي هذا الجانب الإيجابي أداءاً صريحاً (جانب
مقاومة التمايز) .

ولكن هذا الأداء عندها كان أميل إلى الانحصر في الذات ، وكان لابد
من تكملة تخرج هذا الجانب الإيجابي إلى دنيا العمل ليتحقق للأخلاقية
وجودها الظاهر إلى وجودها الباطن فكان الإسلام ويقول : ونلاحظ أن
آبناء العروبة وخدمهم الذين أخذوا بالفكرة من حيث هم أمة بأسرها ، أما عند
سواهم فقد توقفت الفكرة عند قلة من الأفراد .

لذلك لم تكن هذه الفكرة أساساً لحركة ثقافية بعيدة المدى إلا عند العرب
أما عند سواهم فقد كانت تجيء هنا وهناك على لسان هذا الفيلسوف أو ذاك
دون أن يكون لها صدى في تيار الحياة العقلية الجارية ، ولكن ما هي هذه
الرسالة التي حملها العرب باسم الخنيفية أولاً ثم زيفتها العنصرية اليهودية ثم
حلوها مرة أخرى باسم الإسلام ؟

(١) راجع الدكتور إسماعيل راجي الفاروق في بحثه عن العروبة الخنيفية .

يجيب على هذا الدكتور الفاروق :

« القول بوحداية القيم ،

وهو أمر تفرد به العرب دون سواهم : ووحداية القيم هي وحادانية الله ،
وهذه الوحداية هي إدراك عربي صميم طرأ على الوعي العربي مصطلحاً جليلاً
الأخلاق منذ نشأت حركة العروبة (يقصد الحنيفية الإبراهيمية) في الماضي
السحيق .

« على حين أن غير العرب من الشعوب قد لبثت قروناً حتى بعد أن أخذت
بالموجه الديني من تلك الوحداية قبل أن يدرك جانبها الخلق ، وأعني بوحدة
المعيار بين مختلف الناس بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم ، ولب هذه الرسالة
هي أن الله موجود وأنه واحد ، أما وجوده فمعناه عند العقل العربي وجود
القيم وجوداً مستقلاً عن الإنسان ووجوده ، أعني أنها ليست من صنع الإنسان
بعضها كما تقتضي ظروف عيشته ، ومعناه كذلك عند العقل العربي أن حياة
الإنسان على هذه الأرض لم تكن عبثاً ، أما كون الله واحداً فمعناه عند العقل
العربي أن القيم تحمل معياراً واحداً لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان ، فالمعيار
واحد بكل إنسان أتى كان وحيثما كان ، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها
الخلق ومعيارها الذي تقبى به الحق بل الخير خير بالنسبة لكل البشر والحق
حق بالنسبة للناس أجمعين .

« فالقول بوجود الله ووحدايته إذن هو في صميم الاعتراف بموضوئية
القيم وتخصيصها من قيود النسبية التي تفر باختلاف المعايير باختلاف الظروف
« فالإنسان أمام الله هو الإنسان لا اختلاف بين فرد وفرد إذا ما قيس
الأفراد بمقاييس الأخلاق الذي هو مقياس الحق .

« هذا ما يميز العرو عن سائر أهل الأرض جميعاً ، ذلك باعتقادها أن
(١٥٠ - الأبدلوجيات والفلسفات)

القيم الأخلاقية حقيقة مبعوثة إليها من السماء هداية لها في سيرها ، على أن تلك القيم لم ترسل إليهم دفعة واحدة بل أرسلت على دفعات بواسطة الأنبياء ، من آدم إلى محمد - وكانت الرسالة الخلقية تزداد على مر الأيام قوة وجلال كلما ازداد الوعي العربي لها ، ا . هـ

* * *

ومن هذا التصور السليم الصحيح الناضج يبين أن العرب بالاسلام لم يكونوا قطعة غيار في الحضارة الواحدة ، ولم يكونوا جزءاً منها ، ولم يكونوا حملة علوم قديمة وفلسفات وثنية لتقديمها مرة أخرى ، بل كانوا واجهة عريضة خاصة ، مختلفة كل الاختلاف متباينة كل التباين ، تفرق فرقا واسعا بين فكر وفكر ومفهوم ومفهوم وحضارة وحضارة .

وانها كانت تجديداً لمفهوم التوحيد الخالص الذي سفت عليه رياح وأعاصير فردته وأفسدته وحرفته وحولته إلى وثنية وعنصرية ومادية .

وفي ضوء حقائق التاريخ نجد أنه من العسير أن يقال أن هناك حضارة واحدة في حوض البحر الأبيض المتوسط فإنه منذ جاء الإسلام فقد انشطرت هذا الحوض وقامت حضارة لها طابعها وذاتيتها وتشكيلها الروحي والفكري والنفسي والاجتماعي ومن خلال الاسلام أقامت حضارة لها مضمونها الاجتماعي ولها نظريتها الخالصة ولها منهجها في المعرفة ، ومنهجها العلمي التجريبي الذي قدمته إلى البشرية كلها وقامت عليه الحضارة الحديثة .

لقد قامت الحضارة الاسلامية على نحو معجز عجيب في خلال أقل من مائة عام من حدود فرنسا إلى حدود الصين فشكلت منهجاً جديداً مغايراً بل معارضاً في كل مضامينه لمفاهيم الفكر البشري الذي قامت عليه حضارة اليونان والرومان والفرس والحضارة الغربية الحديثة من بعد .

وإصدق في هذا ما أورده العلامة علال القاسى في بحثه عن تفسير التاريخ حين قال :

إن للتاريخ في نظر الإسلام مرحلتان :

(أولا) مرحلة العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلتاميدا لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم المرسلين .

ولم يكن « محمد » بدعا من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصحابها الانحرف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح لتفتح أفاق التقدم الإنسانى ، فكان لابد أن يبعث الرسول الخاتم الذى يضع الإنسان فى جو الرشء المبنى على العقل والروح والقلب والحسم فكل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه وبذلك يصبح ماضى الأمة وكأنه ما قبل التاريخ ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامى .

(ثانيا) المرحلة الثانية هى نهاية التاريخ الدنيوى والوصول إلى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر وبهذا الامتداد التاريخى إلى ما بعد الموت يزول كل تناقض ممكن بين غاية التاريخ وبين أسباب عملياته ، ا.هـ .

ومعنى هذا أن هناك حضارتان : حضارة واحدة سبقت الإسلام على النحو الذى أرادها لها أصحابها من إقامتها على أسس الفكر البشرى وحصيلته الضخمة من الوثليات والأساطير ، وهى الحضارة الوثنية .

وحضارة التوحيد التى بدأ بها الإسلام مجدداً دعوة الله القديمة الخفيفة فى هذه الأمة إلى التوحيد والأخلاق . ومن هذا يبدو زيف دعوى القول بأن

العرب كانوا جزءاً من حضارة البحر المتوسط القديمة والجديدة . ومرحلة من مراحلها .

(٥)

بل أن الأمر أبعد من ذلك كثيراً ، فإن الاسلام كان له أكبر الأثر في التاريخ الغربي وفي الحضارة وقد اعترف الغربيون بأن ظهور الاسلام هو الحادث الأنساني العظيم الذي غير مجرى التاريخ وأنه هو الحد الفاصل بين القرون الأولى والقرون المتوسطة .

وقد شهد بذلك صفوة من الباحثين في مقدمتهم (هنرى بيرين) في كتابه (محمد وشارلمان) فقد نوه بأن الاسلام كان القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوربي حتى لم يكن أن يقال أن العصر الوسيط ، والنهضة الحديثة نمرتان من نمار جهود الاسلام .

فلم تسكد تهب ثورة الاسلام وتسير ركائبه إلى أراضى الرومان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار . وأنه قد قامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من المشرق والجنوب فاضطرت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوربا في العصر الوسيط وإبان العصر الحديث .

د أما الجزء الجنوبي من أوربا فلم تقع فيه إلا معركة بواتيه التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وان انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ، ولظل البحر الأبيض بحراً رومانيا ولما قامت الثورات القومية التي خالقت دول أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عن الحضارة الراهنة .

الفصل الثامن

الفلسفة الروحية الحديثة

تقوم الفلسفة الروحية الحديثة على طرح ايدولوجية جديدة عن طريق عالم الروح بعيداً عن اللون والدين والمذهب السياسي . وتقوم على أساس فكرة جديدة عن الله ومشيبته .

وهي ترى في دعاة الروحية انهم مرسلون كالانبياء ، وان كانت تعاليمهم أرقى . ويرى أصحاب الفلسفة الروحية أن الأديان على اختلافها قد أوجبت في أزمان مختلفة لأمم خاصة .

ومعنى هذا أنها بما لا يصح الركون إليه في كل دوار البشر وجميع أجيالهم وأصحاب الفلسفة الروحية لا يقرون الكتب السماوية (القرآن والانجيل) وقد يستعملون نصوصاً منها يحرفونها عن مواضعها في سبيل إقناع البسطاء .

وتدعو الفلسفة إلى الإغاء والحرية والمساواة (شعار الثورة الفرنسية) المستمد من الفلسفة الماسونية وتقوم الفلسفة الروحية الحديثة من حيث ظاهرها على محاربة المادية والاحاد وإثبات استمرار الحياة بعد الموت ولكنهم يتخذون من ذلك وسيلة إلى القول بأن رسل الله وانبياءه ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقهم . وإن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع .

وتقرر الفلسفة الروحية أن لب الدين بذل الخير لخلق الله ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك . وأن طقوس الأديان ليست إلا أساليب لبلوغ هذه

الغاية. وأن باب التوبة مفتوح بعد الموت. وأن النار والجنة حالة عقلية أو حالة نفسية. أو هما واقع يحسمه الفكر ويصبغه الخيال.

* * *

وئدعو الفلسفة الروحية إلى التحرر من التكاليف والشعائر الديلية^(١).

وبالجملة فإن فلسفة «الروحية الحديثة» هي محاولة «لانتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبه في قالب جديد من العالمية أو الكونية. وهي تستخدم لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين».

وعما يقوله فلاسفة الروحية أن الانسان خالد على الأرض وأن الوحي لم ينقطع بوفاة (محمد صلى الله عليه وسلم) وأن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء.

وأخطر دعواهم محاولة التهديد لعصر جديد وما يسمونه «تهيؤ العالم للقرآن الجديد الذي تأتى به الأرواح لينقذ العالم من حماة الصراع والشرور» وتقوم مفاهيمهم على تأويل الآيات القرآنية تأويلاً عجيبيّاً توصلها إلى منتهى.

«وهم ينكرون القيامة على ما يفهمها العلماء لأنهم يمتقدون أن الأرض خالدة وأن الانسان خالد فيها، ويرون أن القيامة قيامتان :

قيامه عدل وقيامه نعمة. أما قيامه العدل فهي قيامه الحياة على هذه الأرض كما يعيشها الآن، أى حياة الصراع بين البشر، أما قيامه النعمة فهي اليوم الذى ينعم الله فيه على الأرض فتسودها الروحية بتعاليمها ويسود (آدم) الجديد فى عالم لا يحكمه إلا السلام»^(٢).

* * *

(١) راجع دكتور محمد حسن فى بحثه : الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها .

(٢) عبدة الراجى : فى كتابه الشخصية الاسرائيلية .

وقد ظهرت كتابات متعددة تحاول أن تصور الروحية الحديثة بأنهم آدين جديد ، وأنها منظومة لكل البشر ، وعن طريقها سوف يوضح سكان العالم الروحي طريقة جديدة للحياة ، ويعطوا البشر فكرة جديدة عن الله ومشيته ، ويأتون بالسلام والطمانينة الروحية وبسعادة النفس والقلب ، ويحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد ، وبين العقائد والاديان ^(١).

* * *

ويرد كثير من الباحثين الفلاسفة الروحية الحديثة إلى نفس مصدر الماسونية والنيو صوفية والبهائية . يقول الدكتور محمد محمد حسين : من المعروف أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة في القرن الأخير ، بل منذ الثورة الفرنسية ، ومعنى هذا أن هذه الصهيونية الهدامة هي نفسها التي تتفزع هذا الكلام وتنسبه للأرواح .

وواضح من كلامهم عن العلم المسيحي الحديث أنهم يعتبرون المسيحية الماثورة مسيحية تاريخية . وهذه المحاولة نفسها تطبق الآن على الاسلام وقد نجحت في الهند ويقول : قد لانكون الصهيونية هي المؤسسة للدعوة الروحية وأشبابها فبعض هذه الدهوات نشأ مستقلاً بعيداً عن سيطرتهم ولكنهم تمكنوا من التسلسل إليه وسيطروا عليه واستغلوه لصالحهم ، وقد تكون هذه الروحية من هذا الضرب . والشئ الذي لاشك فيه هو أن الروحية في وضعها الراهن هي شرك من شرك الصهيونية العالمية الهدامة وآلة في أيديهم يسخرونها لهدم المسيحية والاسلام على السواء ، وهدم العصية بكل أشكالها قومية كانت أم دينية لكي يمهّدوا لقيام دولتهم الصهيونية التي يتوهمونها وسط انقراض الخراب العالمي والانحلال الشامل الذي يسهل مهمتهم في السيطرة على العالم كله على ما يتخيلونه .

(١) نفس المصدر (من تقارير علي عبد الجليل راضي)

ويشير الدكتور محمد محمد حسين إلى العلاقة بين الروحية الحديثة واليهودية التلودية : فيقول إن هناك مطابقة كاملة بين مزاعم الروحية وبين عقائد اليهود في تصور الثواب والعقاب خاصة وكلاهما يعتقد أنهما سيكونان في آخر الزمان على الأرض، وبمثل ما يبشر به (شهود يهوه) بقرب السلام الدائم والتعميم الخالد حين تحكم إسرائيل وتنتصر على أعدائها ويضيف الدكتور محمد حسين قرائن أخرى : ذلك أن أكبر مركز للحركة الروحية الآن هو نفسه أكبر مركز للحركة الصهيونية وهو أمريكا وكثير من دعاة الروحية ومروجيها من المعروفين بصلتهم بكبار اليهود كذلك يشير إلى سخرية دعاة الروحية بالاديان ورجال الدين على اختلافهم فلا يبرأ منها إلا اليهود ، فلا تجددهم هاجون خرافات التلويدي وما ينطوي عليه نصوصه المفتراة على اليهودية من قسوة وخسة وإجرام وهم هاجمون الكنيسية الكاثوليكية خاصة لما هو معروف من شدة عداتها لليهود .

• • •

ومن القرائن التي تربط بين الروحية الحديثة والحركات الهدامة التي تقدمها الصهيونية العالمية : تركيزهم على أسماء الفراعنة من قدماء المصريين والهنود الحمر من قدماء الأمريكيين فهم يعمدون إلى مدم الإسلام عن طريق تمجيد الوثنية الضالة الكافرة ، وتصوير هؤلاء الوثنيين بعد موتهم متمتعين بطمأنينة ونفوذ لا يتمتع بها المتدينون بالإسلام والمسيحية .

(٢)

لا ريب أن القول بالروحية كطريق ومنهج فكري وحياة يتعارض مع مفهوم الإسلام القائم على ترابط الروحية واعادته تحت لواء التوحيد الخالص .

ذلك أن الانحياز إلى الروحية وحدها إنما ينصر أحد الجانبين ويعلو إحدى الكفتين فيحول دون التوازن والموازنة .

ومن أخطر المفاهيم : القول بأن الإنسان روح لامادة وهو من الخطأ بما
يمثل القول بأن الإنسان مادة لاروح ، فالحق أن الإنسان مادة وروح. ولأريب
أن أخطر ما يقوم عليه فلسفة الروحية الحديثة : هو تناسخ الأرواح والقول
بأنه ليس هناك فناء للبغيا وليس هناك بعث ولا حساب .

وهي في هذا المعنى تقوم على مذهب وحدة الوجود الذي يقول : إن الله
والعالم شيء واحد ، ولا ريب أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإثكار
الجزاء هي نفس مبادئ الماسونية مصانة بلباس جديد ، وهي إلهام
لرسالات السماء .

وكذلك إنكارها الجنة والنار والعذاب والثواب إذ تحاول أن تصوره بأنه
معنوي وبذهب قادة الروحية الحديثة إلى الدعوة للتحرر من كل القيم والعقائد :
« لا تعبدوا أنفسكم بكتاب واحد ولا معلم واحد ولا مرشد واحد ، فولا منا
لا للكتاب ولا للدين ولا للعقيدة ولكن للروح الأعظم وحده ، وهم يذهبون
إلى ما تذهب إليه الفلسفة المادية من تقدم المادة : »

فهم ينكرون فكرة بدأ الخليقة أو نهايتها : (ليس حقاً أن الكون كان
معدوماً ثم بدأ فجأة إزاء الكون كان دائماً موجوداً ، ونحن نعرف الكون لا بداية
له ولا نهاية ، ويفاضل دعاة الروحية الحديثة بين الصلاة والعبادة وبين مساعدة
الضعفاء ، فيرون أن ذلك أكثر تديناً من أى عبادة أو صلاة ، وذلك الاتجاه
واضح في الفلسفات المادية التي تعزل عن العقائد عن الأخلاق .

* * *

ولعل أخطر اتجاهات فلسفة الروحية المادية : هي الاتصال بأرواح الموتى :
يقول الدكتور محمد محمد حسين : « إن إطلاق الاتصال بالموتى وجعله في متناول
كل إنسان والاستمانة به في علاج مرضانا وفي شئون ديانا المختلفة إفساد للحياة

التي يقوم بعض عمراتها على التنافس واستباق الميزات ، وعلى المحاولة المتصلة الدائمة المتكررة في سبيل التفوق وفي التغلب على الصعاب والانتصار على مضادز التعب والقلق ومن يذبحها المرض . وهو كذلك إبطال للحكمة في خلق الموتي والحياة وما قدر الله سبحانه وتعالى وقضى من إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها تنظم بها حياتنا في الدنيا وآخره . ولا ينبغي أن يغيب عن البال إن في عالم الخفاء شريرين ومفسدين وكفاراً وضالين (وإننا من الصالحون) ومننا دون ذلك كنا طرائق قددا : الجن ١١) وإن معرفة الأحياء والأموات والجن والإنس محدودة ، بحدود الزمان والمكان الذي لم يحيطوا به ولا سبيل إلى الإحاطة به ، فالتعجب منه هو وحده الذي أحاط بكل شيء علماً . فمن استنجد بهم واستمد بهم وعاد بهم فقد أهدق نفسه وغامر بها في المهالك وعرضها للشركاء (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا) ومن عاذ بالله وتوكل عليه فهو حسبته سبحانه وتعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولا سلطان لشرار خلق الله من الجن والشياطين عليه : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

(٤)

قد يخفى على كثير من الناس أن الروحية الحديثة التي تمتد على استحضار أرواح الموتي أو ما يسمونه (Spiritualism) هي في حقيقة الأمر شعبة من العلمانية لأنها تقوم على الدعوة إلى إخضاع عالم الغيب للتجريب فهي تلبس مسوح العلم وتصلح اسمه حين تزعم أنها تجري التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا وتدهي إن هذا سبيلها إلى رد الناس عن تيار المادة الطاغية والواقع أنها ليست حرباً على المادية كما يزعم أصحابها ولكنها إغراق فيه وإمعان في التمسك به لأنها لا تنفع بإخضاع المحسوسات للنهج التجريبي ولكنها تتناول إلى ما وراءها تريد أن تخضعه للتجربة وإذا سلم الناس بذلك انتهى الأمر إلى إنكار كل ما لا يمكن ثبوته عن هذا الطريق . .

وتعد الروحية الحديثة واحدة من الدعوات التي يحركها الصهيونية العالمية
لنشر عن طريقها بما تسميه المجتمع الجديد، ومنها البهائية والشيوعية. فهي
تهدف إلى القضاء على المجتمع القديم في لغته وآدابه وفنونه ونظمه وانماط حياته
وخلقه ودينه وكل شيء فيه. وهي خطوة من خطواتهم لاستيعاب من لم
تستوعبهم المذاهب المادية، وهي تركز ركناً إلى هدف (العالمية) الذي
يخطون له.

الفصل التاسع

التيوصوفية

من المذاهب التي اهتمها الفكر البشري مجدداً ما أطلق عليه اسم التيوصوفية: أي الصوفية الجديدة . وهي إحدى محاولات اعلاء مفاهيم الفكر الوثني القديم الذي عرفته فلسفات الهند وخاصة في القول بالحلول . وقد جاءت فترة من فترات الفكر الغربي في حيرته داعياً الى التماس مفاهيم البوذية والفلسفات الهندية القديمة ، ثم تجدد هذا في العصر الحاضر من خلال تطلعات الفلسفات الوجودية والهيئية وقد جاءت فلسفة الحلول ووحدة الوجود قريبة من الفكر الغربي المسيحي وملتقية بها فدعاة التيوصوفية يقولون : انه « اذا كان المسيح قد أسمى نفسه الهاً فذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنا اذ هو حال بنا ونحن آلهة مثله ، وما أرواحنا الا قبس أو شرارة من تلك الروح العامة الشاملة للكون ، وبمثل هذا يقول سلامه موسى وميخائيل نعيمة وفلاسفة المسيحية المعاصرون .

والمعروف أن الفكر الإسلامي لا يقر هذا المفهوم ويعتبره نوعاً من الانحراف عن المفهوم الصحيح لله والتوحيد الذي يقرر أن الله سبحانه وتعالى مستقل عن العالم وهو خالقه وأن هناك واجب الوجود وهو الله (تبارك وتعالى) ويمكن الوجود وهو هذا العالم وإن فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد أو الحلول أو غيرها من الفلسفات إنما تستهدف القضاء على قيمة أساسية من قيم الإسلام وهي المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي الذي يستتبع المسؤولية والجزاء الأخرى بعد البعث والحساب وهو ما تنكره الفلسفات الهندية والتيوصوفية .

هذا فضلاً عن أن المعرفة عن طريق التيوصوفية إنما تقوم على أساس

الشعور بالباطن أو بالإلهام . وهو ما يتعارض مع مفهوم الاسلام الذى يقوم على أساس منهج متكامل من العقل والوحى ، معا .

ويمكن القول بأن ابتعاث الثيوصوفية إنما هو خيط من نخطط متكامل ، يرتبط بالروحية الحديثة واليهامية ، فهي تعتمد أساساً على كتب البراهمة والبوذيين والمصريين القراعنة والقبالة والأحاديث اليهودية وما يقوله المعتقدون بمناجاة الأرواح وتنادى الثيوصوفية بما تنادى به كل الدعوات التى انبثقت من فكرة العالمية اليهودية ، فهي تدعو الى الأخاء العالم بين الناس : دون تمييز بين العناصر والمذاهب والطبقات والجلس واللون وتتخذ نوادى الثيوصوفية وجماعاتها نفس مناهج المحافل الماسونية ، فلا يسأل أحد عن آرائه الدينية عند الانضمام اليها ولا يسمح له بالتعرض لتلك الآراء .

وتحاول الفلسفة الثيوصوفية : أن تربط بمفهوم بشرى عالمى هو وجود حياة واحدة ذاتية المنشأة خالدة عامة الوجود ، وتبنى على ذلك القول بأن الإنسان خالد وتجربى الفلسفة الثيوصوفية فى نطاق مادعا اليه الفيلسوف اليهودى (سبينوزا) من أن الكون كل واحد ، وأن كان مكوناً من أجزاء ، وأن الله يشمل هذا الكون وأن كل جزء من الكون يعبر عن الله .

وهذه النظرية تتعارض مع المفهوم الاسلامى والى جاءت بها الأديان المنزلة عامة وهو أن الكون موجود منفصلاً عن الله . وأن لله سبحانه وتعالى وجوده الحق القائم بذاته المستقل عن الكون المادى .

والمعروف أن وحدة الوجود بهذا المعنى الذى تدعو اليه الفلسفة الثيوصوفية هو حجر الزاوية فى الديانة الهندوكية فى مواجهة التوحيد فى الاسلام والتشايت فى المسيحية ، وقد ذهب الحلاج وابن عربى الى مثل هذه المعانى تأزراً بالفلسفات الهندية وغيرها فعارضوا مفهوم الاسلام الصحيح وناقضوا قيمة

من أعظم قيم الإسلام وهي التوحيد ، ومن أكبر أخطاء دعاة مثل هذه المذاهب ، هو الخلط بين الأديان أو محاولة إيجاد وحدة بينها على أساس مفاهيم ليست هي من أصول الدين الحق : ولقد نشأت مثل هذه الدعوات الصوفية الفلسفية في البيئات التي تعمق فيها مفاهيم التوحيد كالمهند وفارس ، وقد إتجه الفكر الأوربي في العصر الحديث إلى التطلع لمفهوم الروحية نتيجة لضخامة التحدى الذى قدمته العلوم وما ألقته من شكوك نحو الأديان والعقائد والغيب وقد كان الأوربيون يستطيعون أن يلتصقوا بمفهوم الدين من الإسلام ولكنهم لأسباب كثيرة منها الحمق والتعصب قد آثروا الإتجاه نحو الهند فدعا شوبنهاور إلى دراسة الصوفية الهندية وخاصة مبدأ بوذا الذى كان يقول بأمامة الشهوات حتى تصل النفس بعد مجاهدتها إلى حالة (الرفانا) التى لا يشتهى فيها الإنسان شيئاً ، غير أن الصوفية الهندية لم تستطع أن تروى غلة الصارى أو تحمل الأزمة التى واجهها الفكر الغربى الذى لم يلبث أن اندفع مرحلة أخرى أشد عمقاً نحو المادية . ولا ريب أن احياء هذه المفاهيم من جديد من خلال مفاهيم الأفلاطونيين القدماء ، والفلسفة البوذية ، هو عودة إلى «جو» الغنوصية القديمة التى اختلفت فيها التعاليم اليهودية والنصرانية والأفلاطونية والمجوسية .

وما أطلق على تشكله اسم النيوبلاتونزم (الأفلاطونية الجديدة) . ويرد بعض الباحثين ظهور الشيوصوفية إلى يعقوب بوم المتوفى ١٦٢٤ الملقب بالفيلسوف. الثيوتونى الذى أقام خليطاً وثلياً خطيراً فيه النار والنور التى دعا إليها المجوس ، وفيها النور والمحبة وعصارات أخرى من مانى وبوذا كنفوشيوس وفيثاغورس وأفلاطون . وأهل هذا المذهب يعتقدون بالحلول أو التجسد والتقمص .

* * *

ولقد قاوم الفكر الإسلامى مثل هذه المفاهيم وخاصة ما يتعلق بالحلول

والفناء ووحدة الوجود وكشف عن مدى الأخطار التي تترتب عليها خروجاً
بالإنسان عن المسؤولية الأخلاقية وانصرافاً عن الجهاد في سبيل الله ذلك
أن الإعتقاد بالحلول يسقط التكاليف كلها ومن بينها الجهاد ، وأن مثل هذه
الدعوة إلى الحب الهندوكي وهو حب الفناء تصرف أصحابها عن الاحتفاظ بما
يسمى الجماعة الإسلامية التي دعا الإسلام لصيانتها ودفع الإعتداء عنها عن
طريق الكفاح والجهاد .

ولا ريب أن الرهبانية التي تقوم على الحب الإلهي تناقض فكرة الجهاد
في سبيل الله تماماً كما تعارض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة .

ولا ريب أنه معنى وحدة الوجود (يؤدي إلى إنكار الثواب والعقاب
أو ينكر مفهومه الإسلامي الواقعي فيراه نوعاً من وخز الضمير ومن هنا
يستوى الخير والشر ، وينفتح الطريق أمام إباحة كل المحرمات .

الفصل العاشر

الفلسفة البهائية

الفلسفة البهائية هي إنبعث جديد للباطنية القديمة التي شكلها الغلاة من مجموعة فلسفات مختلفة ونحل منوعة فهي مزيج من أخلاط الديانات البوذية والبرهمية الوثنية والزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام ومن إعتقادات الفلسفة الصوفية والباطنية .

وهي محاولة لخلق مذهب يحتوي على جميع رغائب فرق العالم والمؤمنين بالجديد وتذويب الأديان (المنزلة اليهودية والمسيحية والإسلام) ، في مذهب واحد يقوم على أساس ما يتفقون عليه جميعاً وهو التوراة ودين موسى .

وتقوم الفلسفة البهائية على التأويل شأنها شأن الدعوة الباطنية القديمة وتستهدف أساساً تأويل نصوص الشريعة ، وتغيير أحكام الصلاة والصوم وإبطال الحج ، كما أنها تنكر معجزات الأنبياء موسى وهيسى ومحمد وتقول البهائية بقدوم العالم .

وتصف نفسها بأنها نبوة تقوم على ظهور مخلص للعالم تتجلى في هيكل البشر وتذهب البهائية إلى الإدعاء بأن الأنبياء استروا الحقائق تحت شعار الإشارات .

وتستهدف من التأويل تحويل القرآن والسنة وصرهما عما يراد بهما من حكمة وهداية والزعم بأن شريعة البهائية ناسخة للشريعة الإسلامية وهي تدهو إلى مساواة الرجال والنساء في الميراث وتعارض الجهاد وتدهو إلى نزع السلاح

وإلى إنكار مقاومة العدو ونشر السلام العام وبذ العصابات الوثنية كما أنها تنكر البعث والجنة والنار وتأول ما جاء عنهما في القرآن فتقول أن الجنة والنار في السكتب المقدسة حقائق مرموزة .

وهم ينكرون إعجاز القرآن وأنه من عند الله كما ينكرون صفات الله . وقد حاولت البهائية أن تلصق نفسها إلى بعض فرق الشيعة غير أن علماء الشيعة هاجموها وحكموا بكفر دعايتها وإرتدادهم . ويرد الباحثون والعلماء الفلسفة البهائية إلى أنها ثمرة لمحاولات خصوم الإسلام والمتأمرين عليه التي امتدت خلال ألف سنة .

وانها صورة جديدة لمفهوم قديم ومذهب من مذاهب الانتقاض على الإسلام وفقاً لمخطط المجوس الذين استهدفوا إضعاف شوكة الإسلام فلم يجدوا أسلوباً أوفق لذلك من تأويل الشريعة على وجوه تعود إلى قواعد أسلافهم ومن هنا كانت هذه المحاولات ذات البريق الذي يغرى الشياطين الذي لم تتحقق له أرضية صلبة من مفاهيم الإسلام ، ومن ذلك قولهم: العمل على تغيير رسالة الإسلام باسم الإسلام وإيجاد دين آخر غير الدين الأصيل كما تتلقاه الصحابة والتابعون والسعي في التغيير حتى لا يبقى من الإسلام إلا اسمه . ويقوم تحريف الباطنية على تفسير المصطلحات المعروفة في اللغة العربية تفسيراً مخالفاً لحقيقتها .

ولقد كان اليهود هم أولى الفرق التي عمدت إلى حمل لواء دعوى التأويل وذلك حين قال فيلسوفهم (فيلون) بتأويل التوراة ذاهباً إلى أن كثيراً من مضامينها إنما هي رموز ترمز إلى أشياء غير ظاهرة ثم حلوا من بعد مثل هذه الدعوى إلى الأديان ، وكانت الباطنية في القرن الرابع وغيره من أقسى خصوم الإسلام غير أن علماء المسلمين من أمثال الغزالي وابن تيمية كشفوا أوراقتهم وزيفوا دعواهم ، ودحضوا نظريتهم .

ومن أهداف الفلسفة البهائية : مهاجمة اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن والدعوة إلى ما يسمونه اللغة النوراء ، وذلك على أساس أن اللغة العربية هي وعاء القرآن ولغة العبادة والثقافة للمسلمين فضلاً عن أنها لغة العرب كافة ولغة الفكر الإسلامى كله .

(٢)

أن مراجعة تاريخ البهائية ليكشف عن دوافعها كما يكشف عن بواعثها .
ومن النظرة الأولى نجد أن يهود إيران هم أول من دخل في حركة البائية بشكل جماعى فى أربع مدن وخلال أمد قصير دخل منهم ٣٨٥ يهودياً .

ومن الماسونية تصدر جولد زيهر المستشرق وروج لهذه الحركة .

ومن المبشرين فى الغرب اهتم بها لورد كرزون - استلين كاربنتر ، براون ، فامبرى ، الكونت جوبيليو ، البروفسور جيمس ، وغيرهم كثير ون .

أما عباس البهاء فقد أنعمت عليه الحكومة البريطانية بأعلى ألقابها (فارس الامبراطورية البريطانية) تقديرآ له على ما أبداه من الكرم والإكرام للجنود البريطانيين فى فلسطين (وكان مقبياً بحيفا خلال الحرب العالمية الأولى) . وقد احتقل يدفنه فى فلسطين بإحتفال كبير حضره هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى اليهودى الأصل .

وقد كشفت الأحداث كثيراً من بواعث البهائين ودوافعهم ، وكان أخطر ما هو إنعقاد المؤتمر العالمى للبهائين فى إسرائيل عام ١٩٦٣ فظهر بوضوح الرابطة الأكيدة بين الماسونية والبهائية دين اليهودية التلودية وبين هذه الفلسفة التي استمدت مفاهيمها فى الأغلب كلها من السكابالا اليهودية .

وأبرز ارتباط بين البهائية واليهودية التلودية هي الدعوة الى عالمية الأديان

وقد استجاب البهايون لأهداف الصهيونية في تحريم الجهاد على أتباعهم وقد كشف أحد البهايين في التحقيق الذي أجرى معهم هذا المعنى حين قال :

« إنه لو أجبر على حمل السلاح في مواجهة إسرائيل لأطلقه في الفضاء وأن ذلك هو شعار البهائية »^(١) . « وقد أحل البهايون الربا بإيعاز من اليهود ، وقد اتخذت البهائية أساليب الماسونية ونظمها ومخالفها وهياكلها ، وقد تركوا في أذنه وسالونيك في تركيا وهي المناطق التي تدرج بالدونمة والتي حملت لواء الماسونية ومن خلالها ظهرت حركة تركيا الفتاة التي كان لها أبعاد الأثر في تدمير الرابطة الإسلامية بين العرب والترك وفتح الطريق إلى فلسطين لليهود بعد أن حججهم عنها السلطان عبد الحميد خلال مدة حكمه . كما استوطن البهايون حيفا وعكا خلال الاحتلال البريطاني لفلسطين لتعضيد الصهيونية العالمية والوجود اليهودي في الأرض المقدسة .

كما أن هناك علامة التقاء ومشابهة أخرى تدل على وحدة المصدر ، ذلك هو اتخاذهم شعار الماسونية (حرية - إخاء - مساواة) .

وقد كشفت مصادر البهايين عن أن مبادئها مستوحاة من التوراة (العهد القديم) وأن عباس الملقب بعبد البهاء قد أدخلها ضمن العقيدة البهائية وقد عملت البهائية على تقويض أركان العروبة في فلسطين وتشير المصادر إلى أن عبد البهاء كان ماجناً مفرطاً في مجونه وقد تكشف ذلك إبان زيارته لسويسرا وإنجلترا وفرنسا ، ذلك « لأن من أساس دعوته التحرر من كل شيء ، حتى العرى مباح لدى البهائية وكان يشيد بالآفكار المحسوسة ويندد بدعوة الانبياء ويصفهم بأنهم أصحاب أوهم وخرافات أفسدت عقائد الشرق » .

وقد كانت نبوءة البهائية بظهور زعامة تجدد العالم بمثابة إشارة لقرب حلول السيطرة اليهودية ممثلة في الحركة الصهيونية .

(٣)

إن محاولة البهائية في أن تصبح ديناً عالمياً كانت من المحاولات التي ظاهرتها قوى كبيرة وأموال ونفوذ ومع ذلك فإن كل ذلك عجز أن يحقق لها بعض ما تريد :

وفي هذا يقول العلامة فريد وجدي : « إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو مما يقضى بالعجب ، لأنها ليست بدين سماوى ، وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم ، فأين هي من الإسلام الذى بنى أمماً قوية . ومدنيات فاصلة في خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل دعوته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برناردشو أن مبادئ الإسلام تتوشك أن نعم العالم أجمع . » ويقوم الإسلام على أصلين ضمنا له التعميم والخلود : هما موافقته للظرة واعتماده على العقل والعلم ، فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق وهى تقوم على أصلين أحدهما عتيق غامض قال به أفراد من محبي السبح في الخيالات وهى تصوير ذات الله بصور المخلوقة . وثانيهما صرف الالفاظ عن ظواهرها مجال فسيح للظنون والأوهام والخبط .

« إن كل تحديد في مجالات النظم الاجتماعية والتطورات الفعلية وكل نجاح يحققه دين أو نظام يكون مناسباً للقدر الذى يحمله إلى الناس في الوفاء بالحاجات الماسة للأمم والشعوب . »

« تدعى البهائية أنها أتت للعالم بتحديد في الأصول ولم يدر في خلد المصلحين قبلها كاتحاد الأديان وترك العصبيات واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل . »

• أما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الإسلام وأسنه على أقوى الأصول
وحاطه بأحكم الدلائل ، فقرر أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن الخلافات
التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قاداتها عليها من الأهوام ، فالإسلام
يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل
من غير تفريق بينهم .

• إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام فإنه استكمل جميع
شرائع الدين العام .

الفصل الحادى عشر

فلسفة التربية الغربية

قامت فلسفة التربية فى الفكر الغربى فى ضوء التحول من الفكر المسيحى إلى الفكر المادى . وتبلورت فى صورتها النهائية فى مفاهيم ديوى ودوركايم وتقوم أساساً على ما قرر فرويد ومدرسته فى النفس والجلس وهى مفاهيم تقوم فى أساسها على حرية التربية وإطلاقها من كل قيد ، ورفع الرقابة والتوجيه عن الأجيال حتى فى أقل المراحل تعرضاً للأخطار وتستمد هذه المفاهيم جوهرها من اقتراض فرويد الذى كان موضع معارضة زملائه فى نظرية التحليل النفسى وهو اعتبار الجلس مصدراً أساسياً لكل الدوافع والغايات البشرية . وكذلك فيما ذهب إليه فرويد اقتراضاً ولم تؤيده التجارب العلمية والإحصائية بما أشار إليه من آثار الكبت التى بالغ فى تقدير أخطاره حتى أوصلها إلى الجنون . ولقد عمدت دعوات تحرير التربية من سلطان الدين فى أوروبا إلى فصل الدين عن التعليم نهائياً والحيلولة دون رجال الدين وبين المناهج على نحو قطعى فى نفس الوقت الذى أضافوا فيه الفلسفات المادية من أجل تخريج أجيال لاصلة لها بالدين أو القيم الروحية إطلاقاً ثم تشكلت مفاهيم الأخلاق على النحو الذى يفترض تطور الأخلاق بتطور المجتمعات . ومن هنا فقد أصبحت فلسفة التربية منعزلة تماماً عن مفهوم الدين والأخلاق .

هذا بالإضافة إلى ما جرى تحقيقه من تدريس الجلس وإذاعة الأدب المكشوف وقصص الغرائز وكل ما من شأنه أن يحول دون اعلاء الرغبات

أو التماهي بها . ثم اتصل هذا بانتقال عمليات التربية من مجال الأسرة إلى مجال المدرسة كلية وذلك نتيجة تسليم الأمهات العائلات أطفالهن إلى دور الحضانة .

يقول الكسيسى كاريل في كتابه : الإنسان ذلك المجهول .

د لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً ، ولهذا ترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن أو مطالعتهن الاجتماعية .

د إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة ، لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه .

(٢)

ما مفهوم التربية الغربية ، وما هي فلسفة التربية الغربية ؟

لندع واحداً من أبرز من تعلّموا في الغرب يحدثنا عن هذه الفلسفة هو الدكتور فاضل الجمالي :

د إن نظم التعليم الغربية قد تكون في الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية أو انشطارية (Dualists) فهي فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة .

فالدراسات العلمانية مثلاً قد تؤدي بسهولة إلى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عديمة [وفي نشأة الشاب المسلم على هذا الطراز من التفكير ينشأ غريباً عن مجتمعه ويعيش في فراغ روحي] نحن نعتقد أن الفلسفة الانشطارية أو الثنائية — في التربية الغربية تصبح لعنة في حياة الإنسان حين

يتصل الدين من الدولة ، والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين . « إن التربية الغربية فضلاً عن حاجتها إلى الوحدة والترابط يعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود أيضاً ، « إن الغرب قد أنجب علماء عظاماً وأخلاقين كباراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين ، كل واحد يمتاز في حقل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلماً يعينه التوافق والانسجام مع المجموع .

« كل واحد يتعمق في حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون أن يكون له تماس مع الاختصاصات الأخرى ، أو أكثرات يوجه نظر أصحابها .

« فالعالم مثلاً لا يهتم كثيراً بمصير القيم الأخلاقية . والسياسي والإداري قد يصوغ مقاييسه الأخلاقية العملية الخاصة به .

« ونزيرة الفكر قد لا تسير جنباً إلى جنب مع بناء الأخلاق الفاضلة وتقديم الذوق الجليل .

« وفي التربية الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الإنسان الروحية والاكتفاء بالنأكد على نواحي حياته الجسدية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

إن أهم نقائص التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للإنسان والمتطلبات الخلقية الروحية .

(٣)

تعد نظرية «ديوى» ، هي أبرز النظريات المطروحة كأساس للتربية في الفكر الغربي والتي جرت المحاولات المتعددة لنقلها إلى الفكر الإسلامي وتقوم فلسفة ديوى أساساً على نظرية دارون في التطور العلمي والتي تذهب إلى أن جميع الكائنات الحية قد نشأت عن تركيب عضوي بسيط وتطور مع الزمن .

وإن الأجناس الحية في حالة تطور دائم تفرضها متطلبات المحيط من أجل البقاء .
وإن العالم في حالة تغير وتطور دائم مما يبنى فكرة وجود نظام أزلى ثابت بل
عالم لا يعرف الاستقرار مع الدعوة إلى الإيمان بطاقة الإنسان الفكرية وقدرته
على وضع الشرائع وبناء المؤسسات التي تنظم حياته وتقوم فلسفة ديوى في التربية
على صفة التجريبية التي تتخذ الاختبارات البشرية مصدراً للمعرفة والقيم وقياساً
لها^(١) . والنظرية على هذا النحو تتعارض تعارضاً كاملاً مع مختلف المفاهيم
الأساسية للفكر الإنساني فهي تنكر الرسائل السماوية والبعث والجزاء
والمستولية الفردية والالتزام الأخلاقي . وتنكر عالم الغيب . فهي بذلك تعلن
ماديتها الخالصة هذا بالإضافة إلى عشرات التجارب التي أثبتت عجز الإنسان عن
الخروج من أهوائه الخاصة لوضع تشريعات تحميه من التحديات المختلفة التي
تفرضها الغرائز والشهوات والمطامع .

(٤)

تستمد النظرية في الفكر الغربي مفاهيمها من قيم الفلسفة الغربية بعد أن
انفصل الفكر عن مفاهيم اللاهوت القديمة وقد صبغت تيارات عديدة كانت
بمثابة الأسس والدعائم ومعالم الطريق والإشارات الموجهة :

(أولاً) من ناحية الدين : فقد ثارت أوروبا على الدين بمفهوم المسيحية الغربية
والكنيسة وجاء ذلك في أعقاب الثورة الفرنسية التي قصدت أساساً إلى تحطيم
الفصل بين المسيحي واليهودي في المجتمع الأوروبي ومنه انطلقت حركة الفكر
الغربي على أيدي من أسموا أنفسهم المحررين أو المنورين فكانت حملتهم الأولى
على رجال اللاهوت باقصائهم عن مجال التعليم كلية أو إخراجهم من البلاد كما
حدث بالنسبة لرجال اللاهوت المسيحي في فرنسا الذين طردوا منها وسمح لهم

بمباشرة نشاطهم في المستعمرات . ولم يتردد (جول فرى) أكبر من حارب وضع الكهنوت في فرنسا ووضع القوانين التي تحدد ساحة عمل رجل الدين على أساس حرمانهم حق فتح المدارس من أن يقر عملهم بالتبشير خارج فرنسا لتوسيع نفوذ فرنسا .

والمعروف أن مفهوم التربية تحول بهذا تحولا خطيرا فقد انتقلت مناهج التعليم من أسلوب اللاهوت مباشرة إلى الأسلوب العلماني القائم على مذهب دارون ومفاهيمه التي استمدها رجال المذهب في مجال الاجتماع .

والمعروف أن مفهوم الدين قد انتقل في عدة مراحل حتى سقط بعد ذلك نهائيا . من هذه المراحل مرحلة ما يسمى بدين البشرية ودين الطبيعة وفي خلال هذه المرحلة فصلت الأخلاق عن الدين وأقيمت لها معايير مستقلة .

وكان ذلك إيذانا بإعلاء مفهوم التطور المطلق وفي أحضانه ظهرت فكرة نسبية الأخلاق وقد كان لذلك أخطاره البعيدة المدى فقد استتبع ذلك القول بانتهاء الحياة بالموت وبذلك جرت محاولة لإسقاط المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي للفرد القائم على أساس الإيمان بالبعث والجزاء في الآخرة .

وكان ذلك في مجال التربية بعيد المدى إذ أنه يوحى بالحرية المطلقة في السلوك دون تقدير لأي عامل من عوامل الضبط أو الإعلاء أو التنظيم الذي لا يقوم إلا في ظل « التزام الخلق » .

(ثانياً) كان لمذهب النفعية أثره البعيد في توجيه التربية : فلم يعد للقيم النفسية والأخلاقية والروحية أى قيمة مستقلة . فقدراجت في أوربا من خلال انحصار الدين المسيحي فلسفة النفعية أو المنفعة (Unilarism) وعلى أساسها قام بناء الحضارة ومنها انبعث فلسفات ديوى ووليم جيمس مما أطلق عليه « البرجماتية » .

(ثالثاً) سيطر مفهوم : أنه ليس في الدنيا أعظم من الإنسان وليس في الإنسان أعظم من العقل وبذلك سقطت من الفكر الغربي قلعة الإيمان بالله خالق الإنسان .

وكان لإعلاء العقل وتقديس العلم أبعد الأثر في أصول التربية التي تتجه إلى إلغاء جوانب الحياة الأخرى : كالغيب كله وما يتبعه من أساليب ومفاهيم وأصول في المعرفة يعجز العقل أن يتقدم إلى مبادئها ويضل وحده .

(رابعاً) سيطر مفهوم بقاء الأصلح . وهو المفهوم الذي دعا إلى احتكار الضعفاء والمولودين وأصحاب البلاد المستعمرة مع إباحة التخلص منهم وإعلاء الجنس الأبيض صاحب أمانة الحضارة على مختلف الأجناس الملونة وبذلك هدمت في التربية الغربية قاعدة الإخاء البشري والرابطة الانسانية العالمية .

(خامساً) يسيطر على التربية الغربية مفهوم تنمية الجسم بمفهوم إطلاقه الغريزي نحو الجنس والعناية بالجسد وتجميله وعبادته دون تقدير للجوانب الأخرى النفسية والروحية والخلقية ودون إيجاد التوازن بين الجسم والعقل والقلب وذلك في مقابل تهذيب الغرائز وإعلائها وضبطها في مفهوم التربية الإسلامية .

(سادساً) غلبة الطابع المادى على التربية نتيجة لغلبة الطابع المادى على الفكر كله وعلى الحياة الاجتماعية والحضارة :

فالحياة تقوم على أساس تمجيد القوة المادية ومن هنا غلب طابع الصراع والحروب والسيادة وفي هذا يقول أحد علماء التربية :

« إذا كان العالم يسر اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد أنشأ نفسه

على أساس تربية فلسفتها البقاء للأصلح وقوامها العنصرية ، ويرى بعض الباحثين أن دين الغرب اليوم هو المادية :

ويقول جون جنتز : « أن الغربي يعبد البنك ستة أيام في الأسبوع وفي اليوم السابع يتوجه إلى الكنيسة » .

وواضح أن طابع اليهودية التلودية : ذات الأساس القائم على الربا وعبادة العجل الذهبي قد سيطرت سيطرة كاملة على مفهوم الفكر وبالتالي على مفهوم التربية وتنشئة الأجيال الجديدة .

(سابماً) وبالمجمله فإن مفهوم التربية يقوم على فصل كامل بينها وبين الدين والأخلاق من خلال تفسير الدارونية للتطور المطلق وتطبيق تشريعات الحشرات والحيوان على الإنسان ومن خلال نظرية فرويد القائمة على أن الجنس هو مصدر التصرفات البشرية جميعاً . وأن الموت نهاية الحياة فليس هناك جزاء أو مسئولية أو التزام أخلاقي ومن خلال إعلاء الجنس الأبيض على الأجناس وعلى أساس الفصل بين المفاهيم والقيم من خلال القول بالتخصص ، والقول بأن الأخلاق مرتبطة بالمعصور والبيئات وأنها متغيرة لاثابته . ومن خلال مفاهيم إطلاق الشباب دون التوجيه وتصوير الأب بصورة العدو الأكبر وباسم رفع الوصاية عن الشباب وإطلاقه في حرية ليشق طريقه .

(٢)

التربية في مفهوم الإسلام

|| أما التربية في مفهوم الإسلام فإنها تعد بمثابة وسيلة بناءة لاعداد الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو في نفس الوقت جزء من المجتمع ، وفق منهج شامل قوامه الايمان بالله والعمل في الأرض ، جامعاً بين الحركة والخلق ، والعقل

والقلب ، والدين والدنيا ويقرر الاسلام أن الانسان يولد خيراً لا شراً
وقد ربطت التربية الاسلامية بين التربية والتعليم على أساس تقدير واضح بأن
العلم وحده لا يكفي مالم تصحبه تربية الذوق والعقل والروح ، وتنسم التربية
الاسلامية بالشمول : وتتضمن تربية الأفراد تربية كاملة من النواحي العقلية
والخلقية والبدنية ، ثم تربية الأفراد من خلال المجتمع ، تربية أخوية تعاونية
قوامها المحبة والايثار .

وهي تركز على الايمان بالله وتجمع بين الايمان بالانسانية وبالامة وبالعلم
والعمل والحرية . وتعد الأخلاق ركيزة أساسية في مختلف مجالات الاجتماع
والسياسة والاقتصاد والتربية على أساس أن التربية الخلقية هي مصدر الحصانة
في مواجهة المغريات والانحرافات . ويمكن أن نركز مفهوم الفكر الاسلامي
في التربية على هذه الأسس :

١ - الجمع بين العلم والخلق ٢ - تربية الفرد في جوانبه المختلفة (عقلاً
وقلباً وجسماً) ٣ - استغلال استعداد الطفل وميوله الفطرية والغريزية
٤ - أهمية أثر القرآن في تهذيب الطفل وإطلاق لسانه وتحسين عبارته
٥ - تهذيب النزعات الغريزية كالشهوة للطعام والاثرة .

٦ - اعتبار الأخلاق سابقة في الأهمية عن العلم ٧ - تطهير النفس
من الرذائل والنقااص قبل البدء بالتعليم ٨ - غرس الأخلاق وتكوين
الفضائل والمثل العليا باعتبارها هي العمل الأول ٩ - كل تربية لا يكون
أساسها أخلاق فهو تربية ناقصة .

* * *

فقد استهدف مفهوم التربية في الفكر الاسلامي بناء مجتمع سليم متعاطف
متوازن يبنه أفراده وبناء الأخلاق كأرضية أساسية للعلم والثقافة .

(٢)

لما كانت التربية تجسيد كل ما تعز به الأمة من قيم مؤمنه وإنسانية أصبح من الطبيعي أن تتجسد في التربية روح الأمة ، ، والفصل بين التربية والدين إذا صلح كمنهج في الغرب ، فإنه لا يصلح في البيئة الإسلامية التي يجعل من الدين والأخلاق مقومات أساسية والتي لم يكن الدين فيها معارضاً للنهضة أو للعلم أو التقدم . ذلك أن العامل الأول الذي دفع الفكر البشري في الغرب إلى تفريع التربية من مفهوم الدين وإقصاء رجال الكهنوت عن المدرسة ، إنما اتصل أساساً بذلك الخلاف العميق الذي قام بين الكنيسة والنهضة العلمية . غير أن التربية الغربية اندفعت في طريقها من خلال مفهوم مادي خالص ، فدفعت الأجيال إلى التحرر المطلق من كل القيم والعقائد والضوابط ، التي من شأنها أن تحمي الشخصية الإنسانية من الانهيار والتدمير .

هذا فضلاً عن الإسراف في نظام التخصص ، الذي قضى على قيام الأساس الرابط للجامع بين الجوانب المختلفة التي يتشكل منها المجتمع والإنسان ذاته بوصفه روحاً وجسداً في نفس الوقت . ومن هنا كان إنكار الجوانب الروحية والأخلاقية والعقائدية من العوامل البعيدة المدى في النتائج التي ترتبت على ذلك بظهور آفات التمزق والضياع والعبث والغربة وتسلط تيارات الانحراف والتحلل التي أسرفت في التماس مصادرهما من مفاهيم فرويد ودوركايم وسارتر وغيره .

(٣)

يبدو التباين واضحاً بين منهج الفكر الإسلامي بوصفه الفكر الإنساني وبين منهج الفكر البشري بوصفه الفكر المادي في مجال التربية في نقاط عديدة ، أهمها :

١ — إن التربية الإسلامية تأخذ الإنسان أخذاً شمولياً (روحياً وجسدياً) وترسم له طريقاً من الضوابط التي تحميه وتدفع عنه الأخطار .

بينما يجرى الفكر الغربي وراء نظرية زائفة هي نظرية : رفع الالتزام والتوجيه عن الإيفاع والشباب وإطلاقهم إطلاقاً كاملاً وتصوير رابطة الأبوة والاستاذية ومعين التجربة في صور عدوانية ، في محاولة لعزل الأجيال الجديدة عن الأصول والجذور أياً كانت .

٢ — يقرر الإسلام مبدأ الأخوة والمفهوم الإنساني والرحمة بالضعفاء وينكر فوارق اللون أو الجنس ويتمثل البشر جميعاً وقد جمعتهم رابطة إنسانية كاملة بينما تنظر مفاهيم التربية الغربية إلى الناس على أساس :

(١) استعلاء الجنس الأبيض صاحب السيادة .

(٢) احتقار الأجناس الملونة والدعوة إلى إبادةها .

(٣) إقامة العلاقات بين الناس على أساس مذهب المنفعة .

٣ — من أخطر ما يتسم به الفكر الإسلامي أنه يقيم منهج المعرفة على أساس : العقل والقلب معاً .

فلا يعلى العقل إعلاء يخرج به عن وظيفته واستطاعته وطاقاته ، ولا يقدر العلم بل يرى أنه أحد ميادين الفكر والحياة . ولا تنظر إلى المحسوس والملبوس وحده ولكنه يؤمن بعالم آخر هو عالم الغيب ، فيه الوحي ورسالات الأنبياء وفيه الآخرة والجزاء .

٤ — يقيم مفهوم التربية في الإسلام الحياة على أساس « التقوى » ، لا على أساس المادة ويرى أن الحياة الدنيا دار عمل ، وبناء وتشديد ، ولكنه ليس

للمطعم المادى ولكن لإقامة نظام الكون . ويرى الإنسان فيها مستخلف في الأرض لله تبارك وتعالى ومسئول وصاحب أمانة ، ومحاسب على أمانته ، والعلم عنده مرتبط بالإيمان بالله ، وبإعطاء الانسانية ليدفعها بعيداً عن الصراع والاستبداد والعبودية ، بينما تربي مفاهيم الفكر الغربي للنشء على أساس تمجيد القوة المادية والاستعلاء بالعنصرية ، وتقيم عامل المادية أساساً لمعاملاته وتغالى في إبراز طابع « المصرفية الربوية » .

(١)

وصف جولد زيهر مذهب الاسلام في التربية فقال :

يلبغى أن نوقن بأن في مذهب الاسلام قوة صالحة توجه الانسان نحو الخير ، إن الحياة المتفقة مع التعاليم الاسلامية حياة أخلاقية لا غبار عليها ، ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله والوفاء بالعهود والمحبة والأخلاص ، وكف غرائز الأنانية .

* * *

ويرى الباحثون الذين عقدوا المقارنة بين التربية الاسلامية والتربية الغربية إن أبرز مميزات الاسلام : أنها بعيدة عن الثنائية والانشطار فهي لا تفصل الدين عن الدولة ، ولا الروح عن الجسد ولا الفكر عن العمل ولا العلم عن الدين .

يقول الأستاذ فاضل الجمالى « أن الاسلام لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الأخلاق ، بل يجب أن تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية وأخلاقية ذات مصدر إلهي .

والمسلم الذى لا يفهم دينه على الوجه السكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية الثنائية التى تمارس في الغرب » .

* * *

ويقول « الدين الاسلامى من حيث الأساس ليس معضاداً للتربية الغربية ، بل على العكس فان الروح العلمى والتقى السائدين فى التربية الغربية وما فى الحياة الغربية من إنجازات إنشائية تشكل جزءاً كبيراً من محتويات الدين الاسلامى ذاته .

ولكن الاسلام يعارض النظريات المتطرفة والميسول اللا إنسانية .
والتراخى الأخلاقى ، .

(٥)

تقوم التربية الاسلامية على المسئولية الفردية وعلى الالتزام الأخلاقى .

وقد استمدت التربية الاسلامية جذورها من القرآن : فالقرآن المنزل من عند الله هو الذى قدم للاسلام أسلوب التربية : والعقل وحده يكون عاجزاً عن وضع الحنطة المثلى للتربية ، ولذلك فان مفاهيم التربية فى الفكر الغربى قد كشفت عن محاذيرها وأخطارها وآثارها البعيدة المدى فى الأجيال الجديدة . وأبرز أساس التربية الاسلامية هى الفطرة الانسانية التى جبل الناس عليها :

« فطرة الايمان بقوة اسمى ، ومن هنا تركز التربية الاسلامية على أساس الايمان الكامل بالله والالتقاء بالأخوة مع البشر جميعاً .

وتستهدف التربية الاسلامية ممارسة المسلم للخير والبر والعمل النافع دون حاجة إلى القانون ، استمداداً من إيمانه العميق بالله وحسابه وجزاءه .

وكذلك فى انصرافه عن الشر والاثم والظلم والأسوة الحسنة هى أساس من أسس التربية الاسلامية ، وعملية التطبيق هى عماد التربية : ومن هنا فهى تتعارض مع طوايح التربية فى الفكر العربى البشرى من حيث :

- ١ — معارضتها للعنصرية وإعلاء الدم والجنس .
- ٢ — معارضتها للتحرر من طابع الخلق والدين .
- ٣ — معارضتها لإطلاق الشباب دون توجيه أو ضوابط .
- ٤ — معارضتها لفكرة كراهية الأب والمعلم .
- ٥ — معارضتها لانتهاا الحياة بالموت والايمان بأن وراء هذه الحياة دار للجزاء والحساب .

لحق : ضوء من الاسلام

ليست هناك نظرة أصديق وأعمق عمقاً في موضوع (الإنسان) من نظرة الإسلام إليه ، فالفلسفات تقرر أن الإنسان مجرد حيوان وبعض الأديان القديمة تقرر أنه آثم بحكم ولادته البوذية - والهندوكية تقول أنه مجبور بالتناسخ ، بينما ينظر الاسلام إلى الانسان نظرة متكاملة قوامها المادية والروحية معاً ، وهو يحيطه بسياج من الضوابط حتى لا يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، بل قادر على أن يرتفع عليها بعد أن يمارسها في إطار كريم هو الشريعة . وهو يحيطه بكل ما يحول بينه وبين الانحلال والانهيار والضعف فيدعوه إلى السيطرة على شهواته والتحرر منها والاعتدال فيها .

ويقرر الاسلام أن مهمة الإنسان في الحياة هو عمارة الأرض والاستخلاف وعبادة الله . وهذه المهمة تختلف عن فكرة القائلين باذلال الجسم وطلب الفقر والاقتصار على العبادة والسعى للآخرة بترك الدنيا . ويرى العلماء المسلمون أن التسكيب بالدنيا وإن كان معدوداً من المباحات إلا أنه واجب من أوجه .

(٢)

والاسلام يعترف بالرغبات البشرية ولا يدعو إلى كبتها ولكنه يدعو إلى ضبطها ويقف بها عند حد متقارب وسيط يحققها ويحول في نفس الوقت دون خطر الاسراف فيها أو خطر مجافاتها كلية مع تقدير خطر الاسراف والمجافاة على الكيان الانساني ومن ثم على المجتمع البشرى كله . ولا ريب أن النظرة الإسلامية للجنس تختلف تماماً عن نظرة الفكر البشرى التي تقرر أن الجنس ثمرة خطيئة حواء وآدم ، والمعروف أن تحريم الزنا في الاسلام لا يلبث عن

كراهية الجنس بل عن إحترام الجنس وتنزيهه عن العبث وإرتفاع بشأن المرأة عن أن تكون أداة لمتعة الرجل .

(٣)

ويقوم الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى في الإنسان :

الروح والجسد ، والعقل والقلب ، فيحول دون الكبت والانطلاق وبين الإباحية والرهابية وبين الترف والحرمان . فهو لا يقر المادية المفرقة ولا الروحانية المطلقة . بل يوفق بينهما في تناسق وتوازن ومواءمة تجعلهما متصلين بالإنسان نفسه من حيث هو جسم وروح ، وهو كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو في المجتمع . وبذلك يمكن تفادي إنحرافات الشطط والنظر في يقضى على ما يسمى بالصراع أو التناقض ويحفظ الاسلام للإنسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذي يفرضه الانطلاق أو الجود والتجبر الذي يفرضه الكبت .

(٤)

أما مفهوم الحرية فهو في مفهوم الاسلام : التحرر من ربة التقليد ومن الجهل ومن العقائد الفاسدة وفي مقدمتها الوثنية والتعدد ، أما القول بأن الحرية هي الانطلاق من جميع الضوابط والنظم والحدود فإنه ليس من مفهوم الاسلام ولن تكون الحرية مطلقة في أى نظام أو مجتمع ، لأنه لا شيء في الوجود مطلق من كل قيد ، والمجتمعات تحول بتكامل قيمها ومفاهيمها دون أن تكون عرضة لإطلاق الحريات بغير حدود .

فاذا ما جاءت بعض الفلسفات المادية لتصور الحرية على هذا النحو فإنما هي تكشف عن هواها ودفين غرضها ، ذلك لأنها تقدم ما يتعارض مع طبائع الأشياء وما يضاد الفطرة ، وما يتحدى النواميس والقوانين التي قام عليها الوجود .

(٥)

وحدة الوجود

لا يقر الإسلام نظرية وحدة الوجود ولكنه يقر مفهوم الثنائية والتقابل ذلك « أن في الوجود ثنائية ولكن ليس بين طرفي الثنائية انفصالية ، بمعنى « أن الله خالق وأن هذا الوجود مخلوق له ، ولكن لافراغ بين الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له ، وأن الإنسان جسم وروح ولكن لا انفصال بينهما في حياة الإنسان نفسه ، »^(١).

وهنا مقطع الخلاف الواضح والتمايز الكبير بين الإسلام والفكر البشري الذي يذهب إلى أن هناك فراغ بين الله والإنسان في هذا الوجود ، أو أن هناك وحدة وإمتزاج بين الله والإنسان أو بين الله والكون . أو نتيجة الاعتقاد بأن الإنسان جسم فقط ، بينما الإنسان جسم وروح ، ذلك أن الإنسان بدون روح هو هيكل أجوف ، ومفهومه على هذا النحو يجعله أقرب إلى الحيوان في سلوكه وتصرفه .

• • •

ويقرر الإسلام « أن الوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية أو مبدأ التقابل : الخالق فيه هو الله سبحانه وتعالى والمخلوق فيه طبائع الكائنات المختلفة ، .

والله جل شأنه مجرد عن الجسمية والمادية ، وطبائع الكائنات خليط من الروحية والمادية ، الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التي تجلت عنه والتي شاءها سبحانه لمخلوقاته وكائناته . هذه الكائنات بدورها منها المادة وفيها الروح وهي مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شيء آخر لا يرى ولا يدرك إلا بالعقل

والتصور . بل أن هذه الثنائية في هذه الكائنات الطبيعية كما تتمثل فيما يتصل بالجسم والروح معاً . تتمثل في الحياة والموت ، (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) وتتمثل في القوة والضعف .

هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله فهو مخلوق وله خالق والخالق روح خالصة والمخلوق مشوب بالمادة .

ولاريب أن وحدة الوجود تحاول القضاء على حرية الإرادة والقول بالخير والشر والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

(٦)

من أخطر النظريات التي أقحمت على العقائد [فكرة الحلول] التي تنقض مفهوم الاسلام الشامل في وحدة الله ، وتنزيهه ، وهي لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً متنقلاً وذلك يتناقى مع ثبات صفاته تعالى كالبقاء والقيام بالنفس ، فالمسلمون يرون هذه المفاهيم ضرباً من تحريف الاسلام ، وهذا الانحراف يحاول أن يخرج الاسلام عن مفهومه الشامل وينحويه نحو الزهادة والانصراف عن الحياة العامة ويقصره على أساليب المجاهدات وما يسمى بالصفاء الروحي للفرد .

وأن فكرة الحلول إنما تشبه تأليه المسيح عيسى وهذا مايرى الغريبن بهذه النظريات ومايحاول طرحه من شبهات في أفق الاسلام الرحيب الصحيح .

(٧)

لقد أصبح معروفا الآن في مجال البحوث العلمية : خطأ النظرة المادية الخالصة إلى الإنسان على النحو الذي تحاول الفلسفات الاجتماعية التي تتعلق

بالنفس والأخلاق أن تصوره وهي تختلف فيما بينها اختلافاً واسعاً في مضامينها وفي تناولها للأمور .

فالإنسان غير خاضع للقوالب العلمية المادية ، لأنه جسد وروح وعقل وقلب ، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون شاملاً ومتكاملاً .

ذلك أن النظرة المادية إلى الإنسان على أنه جسد ومادة ، وتطبيق مناهج العلوم المادية أو النظريات التي طبقت على الحيوان ، عليه ، تجعل البحث عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة . ذلك أن الإنسان بالإشارة إلى الحيوان يختلف اختلافاً كبيراً وله قوى أخرى تجعل تطبيق أحكام الحيوان عليه لا توصل إلى النتائج الحقيقية . وما يميز به الإنسان عن الحيوان من عقل ووجدان جعلته مناط المسؤولية والالتزام والجزاء يجعل الفارق بعيداً .

(٨)

ينبغي عن هذه المذاهب أن العلم والأخلاق وجهان متلازمان بالضرورة للبناء الحضارى لأن العلم إذا تجرد من إطار الأخلاق تحول نحو الشر والباطل كذلك فإن من المقرر أن هناك رابطة أكيدة وعميقة بين العقيدة والأخلاق في الإسلام ، والقرآن أصل الأخلاق الإسلامية وليس هناك انفصال بين النظرية والسلوك العملى .

والأخلاق في الإسلام يقوم على قاعدة التقوى ، والتقوى هي أس الأساس في مفهوم الحياة انقضاء وامتاعاً لكل ما حرم الله رحمة بالإنسان واجتناباً لكل شر ومعصية ، واتجاهاً في نفس الوقت إلى الانفاق والرحمة والسباحة - والتقوى صفة عامة لكل أعمال الإنسان في مختلف المجالات فهي دھوة إلى العمل الإيجابى الرائد وليست شرعة سلبية ، للفرقة والانفصال عن المجتمعات .

(٩)

البعث والجزاء

أن مفهوم البعث والجزاء هو أساس ممكن من أسس الاسلام التي تعارضها نظريات الفكر البشري التي تدعو إلى وحدة الوجود أو الحلول أو تقيم الحياة على أساسها القائم والذي ينتهى بالموت وهذه المفاهيم من شأنها أن تفسد عبدة الحياة وإقامة الإنسان فيها إفساداً كاملاً وتفتح أبواب الشهوات والمطامع على مصاريحها، وتسقط المسؤولية والتبعة والالتزام الخلقى إسقاطاً كاملاً .

فالتبعة والجزاء مع البعث والحساب : حقيقة جوهرية يقيمها الاسلام إقامة واضحة ولا يسقطها أبداً ، ويضعها دوماً نصب الأعين والعقول والافهام ، ويجرى من خلالها كل أعمال الدنيا .

ولاريب أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ، ودافع بناء وحركة وليس عامل جمود أو تخلف ، وليس بما تقر العقول والألباب أن تكون الحياة بغير غاية أو يكون الإنسان في هذه الحياة هملاً بغير رسالة أو خلق إحتباطاً أو وجد مصادفة (كما تقول فلسفات الفكر البشري) ومن الحق أن الحياة ليست عبثاً وليست النفس ضياعاً ولكنها رسالة ومسئولية وهي حقيقة وتبعه ثم هي بعد ذلك بعث وجزاء .

هذه الحقيقة في الأصل تابعة من الفطرة ، ولكن الفلسفات الوثنية التي أنكرت الدين جملة قد دفعت بها بعض العقول إلى الضلال والانحراف .

وحيث تتأكد للنفس الإنسانية هذه الحقيقة تنزاح تلك الأزمة التي نحاول
أن نفرقها في تبه مضلل .

ونحن نؤمن بإصالة التدين وفي أرضنا نزلت الأديان ومن هنا فإننا نتجاوز
هذه الأزمة : ولا شك أن الفطرة الإنسانية في أعماقها تستطيع بالوحي والإيمان
أن تلتبس طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بمخالقها الأواحد ، ولا شك أن
الإلحاد أمر طارئ على النفس وليس من طبيعتها .

الباب الخامس

الأديان ومقارنات الأديان

الفصل الأول : مقارنات الأديان والدين
المقارن

الفصل الأول

مقارنات الأديان والدين المقارن

من العلوم المستحدثة التي ظهرت في العصر الحاضر : علم مقارنة الأديان وهو علم إنمى أساساً من مفهوم النظرية المادية وحاول أن يخضع تاريخ الأديان كله للنظرية المادية التي تقف أساساً موقف المعارضة من عالم الميتافيزيقا ومن الغيب كله .

ذلك أن الفكر الغربي حين انحرف عن المسيحية لم يلبث أن واجه حاجة الأمم إلى الدين فحاول أن يدعو إلى ما أسماه بالدين الطبيعي والدين البشري ودين الإنسانية وما إلى ذلك من دعوات استهدفت أساساً التحرر من الدين السماوي .

ولقد أصاب الدينان اللذان عرفهما الفكر الغربي إنحرافات شديدة أخرجهما عن أصولها الأصلية التي جاء بها أنبياء الله موسى وعيسى عليهما السلام .

ولقد كانت الأديان بهذا الانحراف عن مفاهيمها الأصلية قد عرضت نفسها لحملة نقد ضارية مهما أريد بها من هجوم على الدين ذاته فإن خروج هذه الأديان عن مضامينها الأولى ، وتجاوزها في وضع قيم ونظريات بعيدة عن الفطرة ولا تقرها الطبيعة البشرية أو يقتنع بها العقل الإنساني ، كل ذلك عرض هذه الأديان بصورتها التي فرضت على الجماعات ، إلى نقد شديد وكان ذلك سبباً أساسياً في حملة المعارضة لها والخروج عليها ، ثم جاء دعاة المذاهب

والأيديولوجيات فاستغلوا ذلك كله حتى جاءت عبارة أجدم وهو كلول ماركس بقوله انها ديانة الكلاب الذليلة الضالة . ثم جاء الخلاف العنيف ومن بعده الصراع الشديد بين مفاهيم المسيحية ومفاهيم اليهودية . وهو ما يصوره كثيرون وفي مقدمتهم سارسكى حين يقول : نحن نكره المسيحية وحق أحسن المسيحيين خلقاً نعهه أشد أعدائنا . ذلك أنهم يبشرون بحب الجحيم والعطف والرحمة وهذا يخالف مبادئنا والحب المسيحي عقبة في سبيل النهضة ويتصل بهذا ما يذهب إليه المؤرخون من أن أوروبا لم تنهض حقيقة إلا بعد أن تخلصت عن المسيحية (الغربية) وأن هذه النهضة جاءت على رأس القرن الخامس عشر أى بعد ١٤٠٠ سنة من ظهور المسيح ، وبعد ألف ومائة سنة من دخول الدولة الرومانية في المسيحية .

وأن أوروبا نفسها لم تعتق روح المسيحية التي تنكر الحرب وتنكر مطامع الحياة الدنيا - في هذا يقول أحد الباحثين : دان تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل فنذبح المسيحية إلى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح ، خضبتها روما وخضبتها أمم أوروبا كلها والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون أوارها . وظلت الجيوش باسم الصليب تتحدر من أوروبا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الإسلام تقاثل وتحارب وتغرق الدماء ، وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للإستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة . دأفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة ، مسيحيهم زائفة ، أم كانوا أدهياء جهالاً لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ، أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتاج على المسيحية بها .

وقد رأى ما رأت تلك العصور الوسطى المظلمة حين وقف اللورد اللني مثل الحلفاء يقول في بيت المقدس في سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه أنشاء الحرب الكبرى : اليوم إنتهت الحروب الصليبية .

(٢)

كان الهدف الأصيل لحلة لواء دراسة الأديان من قديمة ووثنية وأرضية إلى إثارة جو من الشبهات حول الأديان السماوية المنزلة ومحاولة إظهار الأنبياء في صورة المصلحين أو النوابغ وتزييف موقفهم الحقيقي وصلتهم بالوحي والسما، ذلك لأن هذه الدراسة قد صدرت من منطلق مادي أساسي لا يعترف بوجود عالم الغيب الذي قررته الأديان السماوية وكشفت عنه .

وجل ماوجه إلى الأديان إنما دخل في حلبة الصراع بين المسيحية واليهودية وعندما يقول فولتير أورينان بأن الأديان مخالفة للإنسانية لأنها سببت الاضطهاد وسفك الدماء ، أو أنها - أى الأديان - مخالفة للعقل لأن منها أسراراً لا يستطيع العقل أن يفهمها إنما يقصدان ديناً معيناً وفكراً وتاريخاً مثبتاً في الكتب وليس في حاجة إلى كثير من التوضيح .

ولارب أن خصوم المسيحية كانوا من وراء هذه الحملات ليصلوا إلى القول بأن الفكرة الدينية من شأنها أن تحول دون الإنطلاق إلى آفاق التحرر العقلي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي ، ولقد كانت مفاهيم المسيحية الغربية وتاريخ صراع الكنيسة مع العالم الغربي في ذهن أمثال ماركس وسارتر وفرويد وهم يكتبون جميعاً فلسفاتهم ففضلاً عن تغرضاتهم الواضحة كيهود وصهيونيون فانهم إنما كانوا يصعدون عن واقع أوروبا وتاريخها وأن الذين حلوا لواء هذه الدعوات لم يضعوا الإسلام في حسابهم ، ولم يكونوا قد راجعوا مفاهيمه أو تاريخه ، لعلمهم لم يعتبروا أن هناك (عالم) يدرس ويقن غير الغرب .

ولقد كان من الطبيعي أن يكون هدف هذه الحملة على الأديان عن طريق علم الأديان المقارن أن تصل إلى القول بأنه لا بد من بديل لهذه العقائد المرفوضة .

وأن يعرض هذا البديل عن أنه الحضارة نفسها أو العلم نفسه .
ومن هذا يبدو كيف أن دراسة الأديان في الفكر الغربي قد بعدت عن
الإنصاف والحقبة ، بينما لم يفعل المسلمون مثل ذلك في دراساتهم .
ويشهد بذلك شاهد من أهله : يقول هاملتون حب :

أن العرب أكثر إنصافاً في دراسة الأديان ، فقد كان كتاب العرب
يذكرون المخالفين بكل حرية وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة
وطبقات الحكماء لابن القفطي وطبقات الأدباء لياقوت وفي الوافي بالوفيات
للصفي وفي تاريخ حكماء الإسلام لليحيى ، أمثلة واضحة لهذا التسامح فقد ترجم
المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس وكأنهم أبناء ملة واحدة .

ولقد كتب أبو الريحان البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس من
الهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، كأنه إذ كتب عن ملة يوهمك أنه هو
أحد أبناء تلك الملة لتلطفه في وصف شعائرها .

(٢)

واجه الدين ، حلة ضخمة من التشكيك من خلال المفهوم المأذى الخالص
الذي طرحته حركة التنوير ، وقد حاولت هذه الفلسفات القول بأن الدين
ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وإنما
خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، (١) .

فذهبت بعض المذاهب إلى القول بأن الدين وسيلة وليس غاية في ذاته وأنه
وسيلة توصل إلى غاية أهمها معرفة الله ، ومن هنا فهم يرون أن كل وسيلة
توصل إلى معرفة الله يمكن أن تعتبر ديناً ، وقد جرت المحاولة لوضع الفكر
الحر ، في مواجهة الدين ، من حيث أنه موصل إلى هذه الغاية فهو دين جديد .

(١) طه حسين عن دوركايم .

ومن هذا المنطلق حاولت مقارنات الأديان أن تصل إلى هدف خطير :
هو أن الدين بهذا المفهوم ليس إلا علاقة بين الفرد وبين الله ولا شأن له بالمجتمع
مطلقاً . وأن المجتمع إنما يقوم على القوانين الوضعية .

ثم تصل هذه الدراسات إلى أبعد غاياتها حين تقول أن الأديان ليست شرائع
ولكنها أعراف قديمة جرت عليها الأقاليم^(١) .

(٤)

وتحاول دراسة مقارنة الأديان أن تجد مفاهيم الاغريق الوثنية التي جاء بها
أفلاطون حين قال أن الأديان لم تمنع انتشار الشرور ولم تردع الخلق عن
ارتكاب أنواع الموبقات . وأن الأديان اتخذت وسيلة لارتكاب أعظم استبداد .
وأشار إلى دعوة سقراط في الفصل بين الأخلاق والدين التي قام به .

(٥)

وقد وجدت هذه الدعوة معارضة شديدة من أصحاب الدراسات
الموضوعية الجادة فقد أكد البحث أن أمة ما لا تخلو من الدين وأن خلت من
العلم أو الفن وأن أي حضارة من الحضارات الكبرى كانت مرتبطة بدين وأن
الحلقة التي وجهت للأديان إنما قصد بها معارضة النظام الغربي المسيحي من خصوصه
الذين يطعمون في القضاء عليه ، ومن خصوم الأديان الذين يرون فيها عاملاً
خطيراً يحول دون تحقيق أهدافهم في الرأى وإقامة الدولة العالمية التي لا تتحقق إلا
بتدمير كل القيم الانسانية ، وقد أشارت أبحاث ضافية إلى أن الدين هو إحدى
ضرورات الانسانية وأرسخ عمد البشرية وأن بلوتارك في العصور القديمة أكد
هذا حين قال : « من الممكن أن نخدمنا بلا أسوار وبلا ثروة وبلا آداب وبلا

(٢) اسماعيل مظهر (المصور - يونيو ١٩٢٩) .

(١٨٢ = الأينلوجيات واللفظيات) .

مصارح. ولكن لم ير إنسان قط مدنية بلا معبد أو لا تمارس العبادة ، ولم ير قط إنساناً خلواً من الدين ، وقال الباحثون أن الدين طور من أطوار الزمن البشرى وأن الدين حاجة من حاجات النفس ، وقد عارض تويلبي نظرية الدين المقارن ودعا إلى إرجاع الحق المبهضوم للدين ، كنفذ البشرية وكطريق للتحرر ، وقال أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقيام الدين مرة أخرى ، وإن إنقاذ الحضارة المعاصرة سيكون في يد الدين ، وأكد عدد من الباحثين الحقيقة التي تقول أن الدين مؤسسة اجتماعية لا يستغنى عنها أبى مجتمع بشرى . وأن فكرة الدين متأصلة في نفوس البشر بحيث لم يقم مجتمع بشرى في العالم إلا وهو مشبع بفكرة الدين ، وقال ماكس مولر : إن الدين قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها ، وقال بليامين كونيشتان : إن الدين من العوامل التي سيطرت على البشر وأن التحسس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراضخة . ومن المستحيل أن يتصور ماهية الانسان دون أن يتبادر إلى ذهننا فكرة الدين .

وقد أكد علماء الاجتماع أن الدين من أهم القواعد التي قام عليها ببناء المجتمع البشرى ، وقال سوندر بلوم : في كتابه مختصر تاريخ الأديان : إنه لم يعثر في أى مكان على قبيلة أو شعب ليس له طقوس مقدسة أو أنه لم يؤمن بكائنات عليا وإن الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين إنما استدعوا في دعواهم إلى ملاحظات غير صحيحة ويقول كارو . إن من قواعد الدين الأصلية : الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وحاطها بعنايته وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى وأكد كثيرون ملاشاة فطرة التدين في الإنسان بل أكدوا أن هذا الميل سيأخذ في النور رويداً رويداً . وإن فطرة التدين ستلازم الإنسان مادام له عقل يميز به بين القبح والجمال . ويقول أرنست رينان في كتابه تاريخ الأديان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نجبه وكل شيء نعدده من ملاذ الحياة ونعيمها ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ،

ولكن يستحيل أن يتلاشى التدين بل سيبقى أيد الأياد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يوذ أن يمحصر الفكر الإنسانى فى المضائق .

(٦)

كما وضج أن الأزيمة الدينية التى مرت بها أوروبا والفكر العربى ومنها انطلقت إلى العالم كله تثير الشبهات إنما كان مصدرها اضطراب مفهوم الدين كما طرحته المسيحية الغربية مناقضاً للعقل معارضاً لمنطلق الحياة، حائثاً على الزهادة والروحانية الخالصة ولذلك جاء من أكبر نتائجها وتحدياته رد الفعل بالدعوة إلى المادية الخالصة وظهور ما أطلق عليه بالبنيرية والدعوة إلى الإيمان بالإنسان بدلاً من الإيمان بالله ثم خلق الصراع بين الدين والعلم وقد جاء ذلك كله استمداً من أن المسيحية ليست إلا منهجاً من مناهج اللاهوت ، تقتصر على الروحانية الخالصة وأنها لم تقيم فى الأصل على نظام مجتمع ومن هنا فإن هذه الشبهات عندما نقلت إلى المسلمين كانت غريبة عليهم متعارضة مع مفاهيمهم ودافع دينهم وتاريخه حتى يمكن أن نقول بصدق : إن كل ما وجه إلى الدين من حملات وما تعرضت له أبحاث الدين المقارن إنما هو موجه إلى الأديان التى عرفتها بيئة الغرب ، وأن هذا التعارض بين مفاهيم اليهودية التلودية والمسيحية الغربية هو تعارض أساسى بين المادية والروحانية وبين الربا والرهبانية . ومن ناحية أخرى فإن الفكر الدينى على النحو الذى عرفته أوروبا (بكهنته وكنيسته وطقوسه) لم يكن قادراً على إعطاء النفس البشرية مطلقاً إلى الحضارة والنهضة ، وكذلك فإن أوروبا لم تستطع أن تمنح قديماً إلا بعد أن تحررت من نفوذ هذا الدين وقبوه .

(٧)

ولا ريب أن كتاباً من الغرب كثير من عارضوا نظرية مقارنة الأديان ،

بما تحصل من أخطاء وأهواء . وقرروا : أن الأديان أساس الثقافة وأن كل ثقافة مشتركة بين الناس تنبع أول ما تنبع من عقائد دينية . وأن المسيحية هي الأساس الأول للثقافة الأوروبية بقدر ما كانت الهندوسية بالنسبة للثقافة الهندية^(١) .

كما عارض الباحثون الفكرة التي طرحها مقارنة الأديان من أن الناس كانوا وثنيين في الأصل ثم عرفوا التوحيد .

كما سقطت نظرية تعليل انتشار الدين بالظروف المادية فقد سقطت تلبؤات المعارضين للدين الذين أهلنوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر أن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامة ذلك أن الدين لم يلبث أن كسب نفوذاً جديداً في مجالات كثيرة وأهمها في مجال العلم نفسه .

فقد هجم العلم الحديث أن يحل للناس مشاكلهم أو يرد على أسئلتهم الحائرة . وتبين أن العلم لم يزد على أن يكون دراسة لظواهر الأشياء ، وأنه لا بد لمعرفة الكون والله من مصدر آخر غير العلم : هو الدين . ولقد تبين أن العلم ليس هو التحدي القائم إزاء الدين ولكنها الفلسفة ، ذلك أن العلم استطاع أن يؤكد حقيقة الدين ولا ينفيه ، أما الفلسفات فهي التي طرحت مختلف المفاهيم التي واجهت الدين بالتشكيك وأوجدت ذلك التعارض والخصومة .

ولم تكن نظرية دارون هي التي زعزعت الأديان ولكن تفسيرها الذي قام به خلفاء دارون وكانوا يقصدون به هدفاً بعيداً .

(٨)

ولعل من أخطر ما واجه الدين نظريات التفسير المسمى للتاريخ وما تبعها من أمثال نظرية المادية الجدلية التي ترى أن الدين ليس إلا نظاماً خلقته الطبقات الظلمة، وقد غالى كارل ماركس في حملته على الديانة المسيحية زاعماً أنها هي التي بررت الرق والاستعباد. وقد شعر لينين بأن الدين أكثر الاعتقادات رسوخاً وأنه هو الرابطة التي تجمع بين كل الآراء والاعتقادات الأخرى فهاجبه بقوة ثم هاجم الكنيسة الكاثوليكية لأنها كانت آلة بين القياصرة ولأنها قاومت الحركات الثورية أثناء الحرب الأهلية.

* * *

وقد أشار ارنولد توينبي في كتابه العادة والتغير: إلى صراع الأيدولوجيات للدين فقال: إن الدين جزء من الطبيعة البشرية. الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين من نوع ما، فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقفه في أوروبا بعد أن قامت ديانا بديلة تسمى المذاهب الفكرية أو الإيدولوجيات الفردية أو الرأسمالية أو الجماعية أو الشيوعية أو الوطنية أو القومية. إن الحرب التي تستمر بين الأيدولوجيات المعاصرة والأديان العليا السماوية هي أخطر بالنسبة لمستقبل البشرية من المشادة بين الشيوعية والرأسمالية.

للشيوعية إصرار على العدالة الاجتماعية فيه تضحية بالحرية، والرأسمالية تضحيها بالعدالة في سبيل الفردية، لأن كل منهما يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر، وكلا النظريتين مادية، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخير وحده فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان صراعهما معاً، وكلتاهما في صراع مع الوطنية أو القومية.

إن نقطة ضعف الإيدولوجيات هي منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان، فبعد أن حررته الأديان من

معبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الإنسان إلى سجون المجتمع ، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة فتضاءل ليصبح نملة اجتماعية في مجتمع النمل . د لقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار . والإيدولوجيات لا تستطيع أن تلتصيه هذه الحقيقة لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحه إياه الأديان . وجدت الأديان لتحرر الإنسان من أسار المجتمع وبصفة مباشرة أمام مسئولياته استطاعت الأديان أن تمنح معتقها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها الإيدولوجيات الحديثة . لقد منحه الأطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخلق بالطموح . منحه الراحة الروحية وحررته من سجون المجتمع .

د لاغنى للإنسان عن الدين ولن تستطيع أن الإيدولوجيات أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلا من المحبة والتعاون .

د انها قد تمنحنا لقمة الخبز ولكنها تسلبنا العلمانية النفسية والتحرر الروحي .

(٩)

إن دراسة الدين دراسة علمية صحيحة بعيداً عن أهواء الدعوات والحركات التي تقودها جماعات تدعو إلى الحكومة العالمية أو الصهيونية أو الإيدولوجية المادية أو التفسير الاقتصادي للتاريخ . هذه الدراسة من شأنها أن تكشف حقائق كثيرة ؛ إنها تكشف أول ماتكشف إن في العقل البشري ميلا إلى التوحيد فهو يطلب دائماً الوحدة لا التنوع . ويرى علماء الاجتماع المحدثين عدم جواز بقاء مؤسسة تستند إلى الكذب والزيغ لتدوم وقتاً طويلاً وأن تظل على حيوية عظمى وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن التحديات التي تواجه الدين في العالم المعاصر : إنما تتمثل في موجتين كبيرتين (١) :

(الأولى) المادة التي لا ترى في الدين إلا تخلصاً من الواقع ولجوءاً إلى التحذيرات الروحية التي أبرز ما فيها أنها توجه السلوك الإنساني توجيهاً سليماً إزاء مشاكل الحياة .

(الثاني) موجة التحليل من القيم الدينية التي بدأت في أوروبا الغربية في القرن الماضي وتزعمها اليوم الحضارة الأمريكية .

والموجتان تأخذان نظرية « التفسير المادي للتاريخ » أساساً لها وتضيف إليها عنصراً من أخطر العناصر في السلوك الإنساني وهي تركيز النشاط الفكري والنفسي في حرية الغريزة والأهواء .

(١٠)

إن أصدق نظرية في مقارنة الأديان تقوم على الفصل بين الأديان السماوية والأديان الوضعية الأرضية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى : النظر إلى مقدرة هذه الأديان السماوية في المحافظة على قيمها الأساسية خلال التاريخ أو عجزها عن ذلك ، وتغلب الأهواء عليها .

ولقد ثبت أن اليهودية دين أمة وقوم وأن المسيحية آخر أديان اليهود وأن المسيح آخر أنبيائهم ، وأن تعديلاً كثيراً دخل على الدين الذي أنزل على موسى والدين الذي أنزل على المسيح ، أما الإسلام فقد احتفظ بقدرته الفائقة على سلامة تعاليمه وكتابه .

فضلا عن أن الإسلام تميز بأنه الدين الخاتم وأنه دين البشرية كلها وأنه جمع بين العقيدة والشريعة والأخلاق وأنه شكل مجتمعه من اللبنة الأولى وأنه جعل التوحيد حجر البناء الأول وأنه هضارة الدين الحق الذي أرسل الله به الأنبياء والرسل منذ فجر البشرية وأنه قام منذ اليوم الأول في بناء منهج حياة وأنه هو الذي دفع المسلمين إلى العلم فكان مصدر المنهج العلمي التجريبي ومن

هنا فقد استطاع هذا المفهوم والمنطلق والتاريخ أن يتفادى كل ما وجه إلى الأديان من نقد وما أصابها من انحراف فقد سائر الفطرة وأقام من الالتزام الأخلاق أساساً لمنطلقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وقد أضحى الإسلام للعقل دليلاً ، وأقام للبرهان حجة وجعل التفكير فريضة ، وبذلك عجز أمثال فولتير أن يصفه بأنه كان مخالفاً للإنسانية أو مجافياً للعقل ، كما كان في واقعه معارضاً لنظرية الفصل بين الدين والمجتمع . كما انتفت عنه قضية الصراع بين الدين والعلم وأصبح عسيراً أن تطبق نظرية نقد الأديان ومنهاج المقارنة بينها على الإسلام .

* * *

ولقد عجزت أى نظرية في مقارنات الأديان أن تضع الإسلام في موضع المقارنة مع الأديان التي سبقتها للاختلاف الواضح بين وأقسامها وأصلها وبين ما احتفظ به الإسلام من قدرة على تماسك الأصل بالواقع خلال أربعة عشر قرناً دون تحريف وبغير أن يصيب النص القرآني أدنى تعديل .

(١١)

من أكبر القضايا التي أثارها دعاة المنهج المادى في الدين المقارن : مسألة الخلاف بين الدين والعلم والواقع أن خلافاً ما لم يقع بين الدين والعلم وإنما وقع الخلاف بين اللاهوت والعلم .

يقول إسماعيل مظهر : أن الصراع بين الدين والعلم مستحيل فطرة واجتماعاً ، وإنما الصراع بين اللاهوت والعلم :

تلك الفجائع التي يرونها التاريخ خلال القرون الوسطى ، ما سبب محاكم التفتيش لتحرق وتقتل تحت عنوان الهرطقة والخروج على الدين .

« لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت في القرون الوسطى بين أحضان النصرانية فإنك لا تتمعن في تاريخ الأديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصراني في قيامها في وجه العلم أزماناً طوالاً بل قروناً متعاقبة .

« والسبب في هذا أنه قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة في أن العلم لا يجب مطلقاً أن ييثر بشيء فيه أقل مخالفة لظاهر ما جاءت به الأسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين . .

وقد أشاد بعض الباحثين إلى مدى الخطأ الذي وقت فيه الكنيسة بالنسبة لأصل الإنسان وتقيدهما بالقصة الواردة في التوراة .

* * *

ومن الحق أن يقال أن هناك نزاعاً نشأ بين الدين والعلم في أوروبا ، أما بين الدين الذي هو الإسلام فإن أمراً من ذلك لم يحدث وفي هذا يقول الشيخ عبد العزيز جاديش :

[إذا تحدثوا عن تاريخ النزاع بين العلم والدين فياخذونه من غير تاريخنا . وإذا ذكروا سننات وضع السلطة في أيدي رجال الدين فأنما يتكلمون عن محيط غير محيطنا وماض غير ماضينا] .

ولقد يقول الغريون بالخلاف بين الدين والعلم أما المسلمون فلا يقولون بذلك :

لعلاء العالم من أمثال دكتور علي مصطفى عبد الرازق يقول :

أن العلم يعني بالحقائق الموضوعية وأن الدين يعني بالقيم الروحية ولكن

طلب العلم في ذاته مبنى على قيمة روحية هي حب الحق ، فطالب العلم طالب حقيقى ، ولذلك كان الدين (أى الإسلام) مشجعاً على طلب العلم ودافعاً إليه . ولذلك كان الواجب على علماء الدين ورجال العلم أن يتعاونوا ويتناصروا في خدمة الحق وفي خدمة الفضيلة فان في تعاونهم وتناصرهم رخاء البشر وسعادتهم .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : لست من القائلين بأن العلم كان يوماً من الأيام يناهض الدين ، ولم يحض الدين على معاداة العلم بل على العكس أن الإسلام يدعو إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الذهني .

العلم والدين اليوم يتكاملان وأستطيع القول بأن العلم في الأيام المقبلة سينخطو نحو الدين خطوات جريئة .

(١٢)

إذن فلماذا تأجيج هذا الصراع وتأريثه الدائم :
وإن الخشية من الأديان ظهرت في دسائير الأمم الحديثة في الغرب مهدفين :
(الأول) هدف من وراء اليهود الذين كانوا يرون أن النص على الدين سيكون المسيحية ومن هنا سيكونون في الدرجة الثانية .

(الثانى) كان الدين نفسه قد فقد مركزه الضخم بعد الحملات الضخمة التي وجهت إليه وبعد موافقه التاريخية في تأييد الملوك والأمراء والإقطاع . فضلاً عن موقفه من العلم .

ولذلك حرص الأوروبيون على أبعاد الدين دفعا للحرب التي استمرت طويلا والصراع الدينى الذى وقع بين المذاهب الدينية . وقد وجهت إلى المسيحية الغربية شبهات كثيرة منها أنها لا تنفى بحاجة النفس الإنسانية ولا تحقق غاياتها وأنها تحرم الكثير وتدعو إلى الزهد .

ولكن هذا كله يجد مواجهة صحيحة ويختلف اختلافًا بينا إذا عرّض
بالنسبة للعالم الإسلامي أو بالنسبة للمسلمين والعرب أو بالنسبة للإسلام ،
وموقفه من العلم أو من وحدة الأمم أو من النهضة .

ولكن محاولة تطبيق مثل للغرب على الإسلام إنما هو هدف أساسي
من أهداف الاستعمار والصهيونية وهو إبعاد الإسلام عن المجتمع وإبعاده
عن السياسة وإبعاده عن القانون لأنه أداة مقاومة ضخمة وسبيل إلى الوحدة
الجامعة .

[خاتمة]

نظرة عامة إلى موقف الإسلام من الفكر البشري

إن هدف هذه المحاولة عبر سبعمائة صفحة كاملة هو تقرير حقيقة واحدة هي أن الإسلام له ذاتيته الخاصة التي لا تخضع إلى أى فلسفات أو مناهج الفكر البشري .

وإن الإسلام ليس ديناً كسائر الأديان ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والأخلاق فقد خلق الإسلام العرب خلقاً جديداً ودفعهم إلى الآفاق يحملون رسالته .

وإن النظر الفلسفى الخالص لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامى ولا يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوحي .

وإن الفلسفة ليست قرينة الوحي ولا مناظرة له فهى لا تزيد عن كونها استخداماً للعقل .

كذلك فإن الإسلام جاء حاكماً على الناس والمدنيات والأمم ولم يحمى محكوماء بهم وليس الإسلام مطية ذلولاً لتبرير النظم والأيديولوجيات ، فضلاً عن أن الإسلام ليس شيئاً يؤخذ منه ويترك بما يبرر هذا المنهج أو ذاك ، ولكنه نظام متكامل له مقوماته المستقلة التي تخضع للأهواء والأغراض ، ولقد جنب مفهوم التوحيد فى الإسلام المعارف الإسلامية من الانقسام إلى دينى وهنقى .

وسمة الإسلام الواضحة هي الارتباط العضوى بين العقيدة والعمل ، وليس

الدين هو مجرد المعرفة بل هو التطبيق أيضاً . ذلك أنه لا فاصل بين العقيدة وبين أداء المسلم لها . والربط قائم دائماً بين الإسلام والإيمان دون الفعل بينهما . مثلاً في التوحيد بين السلوك وهو المظهر الخارجي والإيمان وهو المفهوم المستكن في أحماق النفس :

أى الربط بين التصديق بالقلب وهمل الجوارح .

وأن نظرية فصل الدين عن الحياة وعن الفكر في الغرب على النحو الذى يوصف بالعلمانية : هو أمر له ظروفه الخاصة فى مجتمع الغرب ، نتيجة مواقف تاريخية وآثار وفقها الدين هناك من التقدم والعلم .

(ثانياً) إن الدين ظاهرة اجتماعية أصيلة وافقت البشرية منذ أول نشأتها فلم تحل جماعة من دين ، ولذلك فإن القول بأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد هو افتراض باطل لا توجد من الأدلة الصحيحة ما يؤيده ، بينما توجد الأدلة التاريخية والعلمية ومصادر الوحي ما يؤكد أن الدين فطرة بدأت مع الإنسان وأن البشرية عرفت التوحيد ثم انحرفت عنه .

فالحقيقة الأولى فى الدين : هى التوحيد وليس الوثنية ، هى عبادة الله الحق وليس عبادة الأصنام ، وقد تأكدت هذه الحقيقة فى القرآن ، وكشفت عنها كثير من الحفريات والأبحاث الأنثروبولوجية ، بحيث لم يعد معها مجال لآى شبهة أو إثارة تؤيد تلك النظرية الزائفة التى رددتها أبحاث اليهودية التلمودية هذه الحقيقة تبطل كل ما أذاعه خصوم الأديان من القول بتدرج البشر من معتق قوامه : السحر والكهانة والتنجيم والتائم والطقوس إلى عقيدة التوحيد ذلك أن الإنسان بالقطع واليقين بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام أول البشر هو أول من حمل رسالة التوحيد إلى الناس .

أما السحر والكهانة والتنجيم والتائم فذلك هى تحولات الإنسان من

التوحيد إلى الوثنية تحت تأثير الانحراف عن الدين الحق .

(ثالثاً) لقد جاء الإسلام بالحقيقة الكبرى الناصعة فقرر أن الإله واحد ونفى كل أنواع التعدد ، وقرر أنه لا يشبهه شيء من خلقه ولا يسعه شيء من ملكه . وقرر أنه متصف بالسكالات كلها منزّه عن النقائص كلها ، وقرر أن العقل الإنساني يستطيع إدراكه ومعرفة كنه ذاته وحقيقة صفاته .

ولقد تناول القرآن كل الشبهات التي لصقت بمعنى الألوهية من اردان الآدم السابقة فكشف عن زيفها ونقض خطأها وانحرافها، وخلص إلى ذلك من طريق على قائم على الحجة والبرهان ، ومتصل بالقطرة البشرية الصافية ، ثم تناول صلة الإنسان بالله وكيف أن الإنسان مريبوب لله ، وأن الله مع الناس أينما كانوا وأنه هو الذى يهديم الطريق إلى الحق ، ويقبل توبتهم إذا انصرفوا عنه .

لقد جاء القرآن مصححاً لجميع الشبهات وأنواع البلبلة والزيف الذى وقعت فيه الديانات المنحرفة والفلسفات الخاطئة سواء ما اتصل بما كان قبل الاسلام وما تجدد منه بعد الاسلام .

(رابعاً) أعلن القرآن فكرة الخاق من العدم وأن الله خالق وأنه خلق هذه الأكوان كلها من لا شيء ، وأوجد هذا العالم كله من العدم وبهذا أنكر القرآن فكرة قدم المادة وقدم العوالم . وكما أعلن بدأ الزمان فقد أعلن نهايته، وبذا أنكر سرمدية المادة وعدم فناها .

وإذا كان القرآن قد أنكر قدم المادة فقد أعلن حدوثها وحدث (١) العالم ، وهنا ينتقل القرآن من الميتافيزيقا إلى الطبيعة ، فقد خلق الله الأرض وموج البحر وأقام الجبال وخلق هذا كله ليكون إطاراً لحياة الانسان الذى خلقه الله ليكون مستخلفاً فى الأرض والمثال الأكبر للقدرة التى لا تحد .

(١) رجعا فى هذا الى أبحاث الدكتور النشار وهذه لصوحا كاملة :

وقد طلب القرآن من المؤمنين أن لا يتجاوزوا حقائقه وان حقائقه كافية بذاتها لكي تمنح النفس الانسانية الحقيقة الكبرى التي لا مرد لها ، والتي هي غاية كل شيء . وهي الحق تبارك وتعالى .

وقدم القرآن الحقائق التي لا مجال للعقل أن يرتادها أو يصل إليها وترك للعقل الوصول إلى الحقائق التي تتصل بالمادة والتجربة .

ولقد أعلن القرآن وحدة الله وعليته ، مقابلاً لكل تفكير سابق عن فكرة الله ، وزيف كل تصور لله سبحانه من تصورات الفلاسفات سواء أكان صانعاً أو محركاً .

وخلق الله آدم من مادة الحياة (الطين) وقد وضع فيه الفضيلة والخطيئة وأنزله الأرض لكي يقيم الحياة .

خامساً : ورسم القرآن للفكر الانساني أبعاد الغيب بما لا يستطيع العقل أن يصل إليه وقدم منهجاً كاملاً فيما يتعلق بالله والكون والانسان .

فإن الله هو الخالق الحق القادر الحكيم الذي ليس كمثل شيء لا تدركه الابصار وهو مبدع بالمعنى الحقيقي ، ليس شيئاً مما يتصورون مما تقول الفلسفة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فليس الله صورة مفارقة ولا هو محرك أول غير متحرك وليس مثلاً بين مثل يشمل على عالم وراء السماوات من غير أن يكون له دور حقيقي في إيجاد هذا العالم وتديره ، كما يؤخذ من مذهب أنلاطون ، وليس روحاً أو قسوة سارية في الكون المادي كما يزعم الفلاسفة ، بل هو صانع مدير منزّه عن صفات هذه الأشياء الحادثة المتغيرة ، متعال عن تشبيهات المشبهين وتجسيد المجسدين من أهل المذاهب الأخرى . والعالم : صنع حادث ، في ذاته وفي نظامه وهو مظهر للحكمة والرحمة وهو الدليل القريب الظاهر على وجود الله وهو على عظمته عالم صغير ورأه عوالم كبيرة .

والإنسان : أعظم المكنات وأرقاها من حيث المرتبة واجتماع صفات الكمال الممكنة للمخلوقات ، فيه نعمة من خالقه ، وهو كائن كريم له في الدنيا رسالة تقترب على ماله من عقل وقدرة وإختيار وإدراك لمعنى الحق والخير والأمر والنهي وليس بالكائن الساقط أو المعاقب ، ولا هو كائن عارض في هذا الكون ، بل هو محور الكون المادى وخليفة في هذه الأرض ليعمرها باسم الله مهتدياً بإرشاده على أساس العلم بالحق وإفاضة الخير والبر وحياته ممتدة قبل هذه الدنيا وبعدها ، وهو هنا يؤدى رسالة ويحمل أمانة ويجهاد ويكافح ، يخضع الطبيعة ويجهاد نفسه ، في داخل خطة الخالق الحكيم ، ثم ينتقل إلى عالم آخر : هو عالم الحساب والجزاء بعد عالم الاختبار والابتلاء^(١).

سادساً : كذلك قرر الإسلام ، النبوة ، والوحى وجعلها من الحقائق الثابتة ، ولقد ثبت أن العلم علمان : علم لا تستطيع الإنسان أن يصل إليه بقدراته الذاتية ولكن هذه القدرات تستطيع أن تفهمه وتؤمن به وهو عالم الغيب بكل ما يتصل به ولذلك كان الوحى وكانت النبوة وكانت الكتب السماوية دليلاً على ذلك العلم ، وفي نفس الوقت أتاح الله للإنسان أن يعمل بعقله في مجال اكتشاف أسرار الأرض والبحث عن خيراتها وتمارها من أجل عمرانها .

ولذلك فقد تأكد أن العقل غير كاف وأنه لابد من الحاجة إلى النبى ، الذى يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد والجزاء ويكشف عن وجوه الأشياء التى تدرك بالعقل : حسنها وقبيحها ، ومن هنا كانت ضرورة النبوة والوحى للبشرية^(٢).

ولما كان الإنسان وسيظل في حاجة إلى هداية الله فقد جاءت النبوة والرسالة لتضعه دائماً على الطريق الصحيح كلما انحرف ، ولتوجه طاقاته إلى الخير

(١) بتصرف من نص الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة .

(٢) من نص للأستاذ محمد المهنوب .

فهو عاجز بمفرده عن الأمن وعن الهداية وفي حلقة دائماً إلى هذه الحماية والتوجيه حتى يستطيع أن يلتزم حدود الله وضوابطه .

سابعاً : من أكبر مقررات الاسلام التي تعد فيصلاً عميقاً بين فكر وفكر : حرية الإرادة والمسئولية الفردية .

ومفهوم هذه العقيدة الأساسية في بناء الفكر الإسلامي أن الله لم يجعل الانسان مكرهاً على فعل شيء ولا ترك شيء ، ولكنه أراد سبحانه أن يكون عاقلاً ومنحه تمييزاً واختياراً وعقلاً مدركاً جملة به مكلفاً بختاراً بالتكاليف الشرعية ، أي جعله حراً يفعل ما يختار وهذه الحرية قد أرادها الله له ومنحها له فهي من إرادة الله فلا يأتي العبد شيئاً ولا يذره إلا بعلم الله وقدره .

وأن معنى تقدير الله للأشياء ، إنما هو جعلها بمقدار مخصوص ونظام محدود وهو ربط أجزاء الكون ربطاً محكماً دقيقاً لا تنافوت فيه بحيث لا يصطدم فيه شيء بآخر ولا يتناقض جرم مع غيره .

فالمسلم يؤمن بأن له إرادة حرة وأن له مسئولية على تصرفاته وله حساب وجزاء في اليوم الآخر بعد البعث والنشور .

وما زال عقيدة القضاء والقدر من أعظم معطيات الاسلام وقد كانت وتستظل مصدر الاتصارات العظيمة التي حققها المسلمون خلال تاريخهم الطويل .

ثامناً : جاء الاسلام بفكرة رئيسية هي فكرة " الحق " ، في كل شيء : في التوحيد والمعرفة والكون والحكم على الأشياء ، ولقد أقام الاسلام منهج المعرفة على أساس الحق ، معارضياً للجمود والتقليد : " أن الظن لا يغني عن الحق شيئاً " ، " قل هاتوا برهانكم " كما يحارب الهوى ويطالب بالدليل والبرهان ويقرر مسئولية الانسان عن وسائل المعرفة التي وهبها الله له .

[ولا تنق مالمس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشئولا].

تاسعاً : كان موقف الاسلام بالنسبة للإنسان غاية في السلامة والانصاف والفهم الدقيق وأبرز معالم هذا الفهم الدقيق ارتباط الروح والمادة فيه : يقول ليوبولد فابس (محمد أسد) : أن الاسلام من دون الآديان السامية جميعاً يعتبر روح الانسان ناحية واحدة من شخصيته وليس ظاهرة مستقلة : وبالتالي فإن ذو الانسان الروحي في نظر الاسلام ، مرتبط ارتباطاً لا انفصام له بجميع نواحي طبيعته الأخرى ، أن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته فهي ليست نتيجة أى خطيئة أولى ، ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الاسلام ، بل قوى إيجابية وهبها الله للإنسان فيجب أن يتقبلها أو يفيد منها بحكمه على أنها كذلك ، ومن هنا فإن مشكلة الانسان ليست في كيف يسكب مطالب جسمه ، بل كيف يوفق بينها وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مريحة وصالحة . أن جذور هذا التوكيد الإيجابي للحياة الانسانية ، إنما يوجد في النظرة الاسلامية القائلة بأن الانسان مفلور على الخير . بخلاف الفكرة المسيحية التي تقول بأن الانسان يولد مكسوا بالخطيئة الاولى أو العقيدة الهندوسية التي تقول بأنه منخط ونجس أصلاً ويجب أن يتغير عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو السكال . بخلاف ذلك كله يقول القرآن الكريم : ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، أى في حالة من الطهارة لا يمكن أن تفسد إلا من طريق السلوك السيء من بعد ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا .

عاشراً : ومن هنا فإن الانطوائية والنشأوم والرهانية وفكرة الهروب من الحياة لتجد لها مكاناً في مفاهيم الاسلام لأنها تتعارض مع السباحة والانفتاح الذي يتسم به ، فضلاً عن إعتراؤه الواضح بالغرأز ومنطقاتها وإن دعا إلى ضبطها وتحريرها من الفساد .

حادى عشر : من وجوه الاختلاف والتباين بين الاسلام والأديان ، مسألة الرموز .

فالرموز فى الأديان وهى الصور والنمايل والأشكال والأدوات التى ترمز إلى جوانب رئيسية من العقيدة نفسها كالصليب فى المسيحية ونجمة داود فى اليهودية والصور وغيرها .

فقد خلا الاسلام من هذه الرموز خلواً تاماً ، لأن طبيعته كمقيدة قائمة على التوحيد المطلق والتنزيه السكامل لله سبحانه وتعالى عن أى تصوير أو تشكيل أو رمز مادى فإذا وجدت رموز فى الملابس أو الرايات فإنها ليست من الاسلام ودخيلة عليه .

ثانى عشر : لا يقر الاسلام مفهوم البطولة القائم على الورائة أو الجنس أو اللون ، وإنما يجعلها مرتبطة بالعقيدة والفكر الاسلامى هو الذى أعاد تشكيل النفس الاسلامية وهو صاحب الأثر العميق فى بناء بطولة عمر وعثمان وعلى وخالد ، نتيجة التحول الخطير الذى أدخله الاسلام إلى عقولهم وقلوبهم وأنفسهم وبما غير من الموروث والطباع وبما صاغها من جديد . أن منهج لومبروز فى تكوين البطال وإعتماده على الموروثات هو أشبه بالتفسير المادى للبطولة لأنه يعتمد على التركيبات المادية فى الانسان ، وليس على روحه وفكره .

ثالث عشر : الفكر الاسلامى المنبثق من الاسلام ، ليس هو الفكر الغربى الهلنى ولا الفكر الشرقى الغنوصى وهو ليس مركباً للفكرين وليس حلقة إتصال ، بينهما بل هو فكر مستقل له طبيعته الذاتية الخالصة المتحررة من الوثنية والشائمية والتعدد .

وأن أهم ما يميز به الاسلام هو أنه لا يفصل بين الدينى والدنىوى ، ولقد هدم الاسلام بحقيقة واقعة وتاريخية الافتراض الذى يقول بأن الدين يدفع

الإنسان بعيداً عن النضال والعمل، وذلك أن الإسلام كان عاملاً هاماً في بناء الحضارة الإنسانية وفي حركات التحرر والتقدم .

رابع عشر : كان للإسلام أثر بعيد المدى في الفكر الغربي كله فقد فتح الطريق إلى عديد من خطوات التحرر والأصالة . فالإسلام هو الذي أعطى لوثر وكالفن مفاهيمهما في تحرير الفكر المسيحي الغربي وهو الذي كان مصدر الحملة على عبادة الصور والطقوس في الكنائس وهو الذي أعطى الغرب مفاهيم الفروسية ومعاني المروءة والنخوة ونصرة الضعيف ونجدة الملهوف وكان له أثره في ظهور أدب التروبادور - والإسلام هو الذي قدم للبشرية المنهج العلمي التجريبي الذي صدرت عنه الحضارة الغربية كما قدم منهج المعرفة المتكامل الجامع بين الروح والمادة .

وقد رفض الإسلام الخرافات الوثنية وتعدد الآلهة وطالب الإباحة في التراث اليوناني كما حرر الفكر الأوروبي من وثنية الفكر الإغريقي وقد كان أبلغ كفاح المسلمين في تاريخهم كله هو : كفاحهم من أجل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الثقافات الوافدة والعقليات الغربية سواء أكانت يونانية أو مجوسية أو غربية .

خامس عشر : من أبرز أوجه الخلاف بين الإسلام والأديان أن الإسلام هو الذي صنع المجتمع الإسلامي بينما احتوت المجتمعات الأخرى القائمة فعلاً أديانها التي إعتنقتها والإسلام لا يعترف بطبقة معينة يمكن أن تسمى رجال الدين لها نظام خاص أو حقوق معينة أو نفوذ من أي نوع ولكن هناك علماء متخصصون في العلوم والعقائد .

سادس عشر : عقيدة البعث والجزاء في الإسلام ركن أساسي ومنطلق أساسي للأخلاق والمسئولية الفردية . والبعث والجزاء في الإسلام جسماني

وروحاني معاً متميزاً بذلك عما في عقائد كثيرة من تنكر البعث حلة أو تجعله روحانياً صرفاً .

وتعد عقيدة البعث والجزاء الركن الثاني للإسلام بعد التوحيد وهي نبراس العمل في الحياة كلها .

سابع عشر : أن الإسلام لا يحاكم بواقع المسلمين ولا يحاكم بفترة الضعف التي مرت به ، لأن المسلمين في هذه الفترة كانوا قد انفصلوا عن جوهر فكرهم .

والإسلام عقيدة وتاريخ ، أما العقيدة فهي الأصول الثابتة التي يتحاكم إليها ماضيهم وحاضرهم ، أما التاريخ فإنه قد سار خطوات مع العقيدة ثم انحرف عنها فهو لا يعتبر مصدراً من مصادر الحكم على العقيدة نفسها ، بل تعتبر العقيدة حكماً على تاريخ المسلمين ، إتصالاً بها في مجال التقدم أو انفصالاً عنها في مجال التخلف .

ثامن عشر : أن الإسلام لا يقف في وجه العلم ولا تقدم الحضارة حين يقف عند حدوده وضوابطه التي ترفض التطور فيها ، إنما يقف الإسلام أمام اتجاه العلم إلى أعمال الابداء ، ويدعو إلى تحرك العلم في إطار الأخلاق . ويوجهه إلى نفع البشرية وحل مشاكلها وشفاء أمراضها وتحويل الخبرات الكامنة إلى رزق ينسر الحياة ولا يقف الإسلام أمام الحضارة بوصفها مدنية ولكن يقف أمام جوانبها الهدامة كالخمر والربا واستعباد البشر والزنا والتحرر الكامل من قيم الأخلاق وضوابط المجتمعات .

١ - مصادر البحث

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : الجامع الصحيح للإمام البخارى .

٢ - المراجع العامة

منهاج السنة لابن تيمية

المحلى لابن حزم

تاريخ الأمم والملوك للبطرى

فتوح البلدان للبلاذرى

مقدمة ابن خلدون

العواصم من القواصم للقاضى بن العربى

الفصل فى الملل والنحل لابن حزم

رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده

إحياء علوم الدين للغزالى

٣ - مراجع

دائرة المعارف الإسلامية :

الإسلام ورسوله بلغه العصر :

تاريخ المسادية :

محمد فريد وجدى

أحمد حسين

لانجته

د. محمد عبد الهادى أبو ريده : بحث عن الاسلام والأديان (مجلة عالم الفكر)

د. محمد أحمد الغمراوى : العلم والدين

محمد قطب : الانسان بين المادية والروحية

جوان كوماس : خرافات عن الأجناس

عبد الحميد العبادى : الاسلام والمشكلة العنصرية

أنور الجندى : القيم الأساسية للفكر الإسلامى

جون كارل فلوجل : الانسان والأخلاق والمجتمع

د. صبرى جرجس : التراث الفرويدى

د. توفيق الطويل : المثل الأعلى فى فلسفة الأخلاق

محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية

د. أحمد شلبى : مقارنات الأديان : اليهودية : المسيحية

ول ديورانت : قصة الحضارة

د. محمد وصفى : الارتباط الزمنى

د. هبد الرحمن مرجبا : من الفلسفة اليونانية

د. عمر فروخ : العرب والفلسفة اليونانية

أبو الحسن الندوى : رجال الدعوة والفكر

أحمد أمين : ضحى الاسلام

د. هلى سامى الشار : مناهج البحث عن مفكرى الاسلام

د. يوسف العش : روح الحضارة الاسلامية

محمد هبد الله هنان : الحركات الهدامة

محب الدين الخطيب : الرعيل الأول

السكلى : كتاب الأصنام

- أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم
د. اسماعيل راجي الفاروقي : المال المعاصرة في الدين اليهودي
ابن الجوزي : نقد العلم والعلماء
د. محمد بديع شريف : الصراع بين الموالى والعرب
عبد المتعال الصعيدي : القضايا الكبرى في الاسلام
الشهرستاني : الملل والنحل
الموردي : ترجمان القرآن
حسن البنا : الرسائل الجامعة
محمد المبارك : المجتمع الإسلامي
انور الجندي : مقدمات العلوم والمناهج

آفاق البحث

٣	مدخل إلى البحث
١٣	الباب الأول : الفلسفة المادية
١٥	الفصل الأول : الفلسفة المادية
٢٤	الفصل الثاني : العلم والعلمانية
٣١	الفصل الثالث : العلمانية
٤٠	لحق : ضوء من الإسلام على العالم والفلسفة المادية
٤٥	الباب الثاني : فلسفة التاريخ
٤٧	الفصل الأول : التفسير المادي للتاريخ
٥٤	الفصل الثاني : التفسير الليبرالي للتاريخ
٦٥	الفصل الثالث : الفلسفة البرجوازية
٦٧	الباب الثالث : الفلسفة العنصرية
٦٩	الفصل الأول : فلسفة الاستعمار
٧٣	الفصل الثاني : فلسفة الأجناس (نظرية العنصرية)
٩٧	(٢) معارضة عو الجنس غير الأبيض
١٠٤	(٣) الإسلام ووحدة الجنس البشري
١١٢	لحق : ضوء من الإسلام
١١٥	الباب الرابع : الفلسفة الاجتماعية
	الفصل الأول : نظرية النفس والجنس البشري (النظرية الجنسية لفرويد)
١١٧	(٢) مصادر فرويد
١٢٦	(٣) نظرية الكظم في الإسلام
١٣٩	الفصل الثاني : نظرية النسبية الأخلاقية
١٤٤	(٢) الأخلاق في الإسلام
١٥٤	الفصل الثالث : الفلسفة الاجتماعية
١٦٤	(٢) الفلسفة للمرأة في الفكر الغربي
١٦٨	

صفحة	
١٧٩	الفصل الرابع : فلسفة الأدب للكشوف
١٨٧	الفصل الخامس : الفلسفة الوجودية
٢٠٠	الفصل السادس : الفلسفة الهيكلية
٢١٥	الفصل السابع : فلسفة وحدة الحضارة
٢٢٩	الفصل الثامن : الفلسفة الروحية الحديثة
٢٣٦	الفصل التاسع : التيوصوفية
٢٤٠	الفصل العاشر : الفلسفة البهائية
٢٤٦	الفصل الحادي عشر : فلسفة التربية الغربية
٢٥٢	التربية في مفهوم الإسلام
٢٥٩	لحق : ضوء من الإسلام
٢٦٧	الباب الخامس : مقارنات الأديان والدين المقارن
٢٦٩	مقارنات الأديان
٢٨٤	خاتمة : نظرة عامة إلى موقف الإسلام من الفكر البشري
٢٩٤	مصادر البحث والمراجع العامة
٢٩٧	آفاق البحث